كارلوس رويث ثافون

مارينا

رواية لليافعين

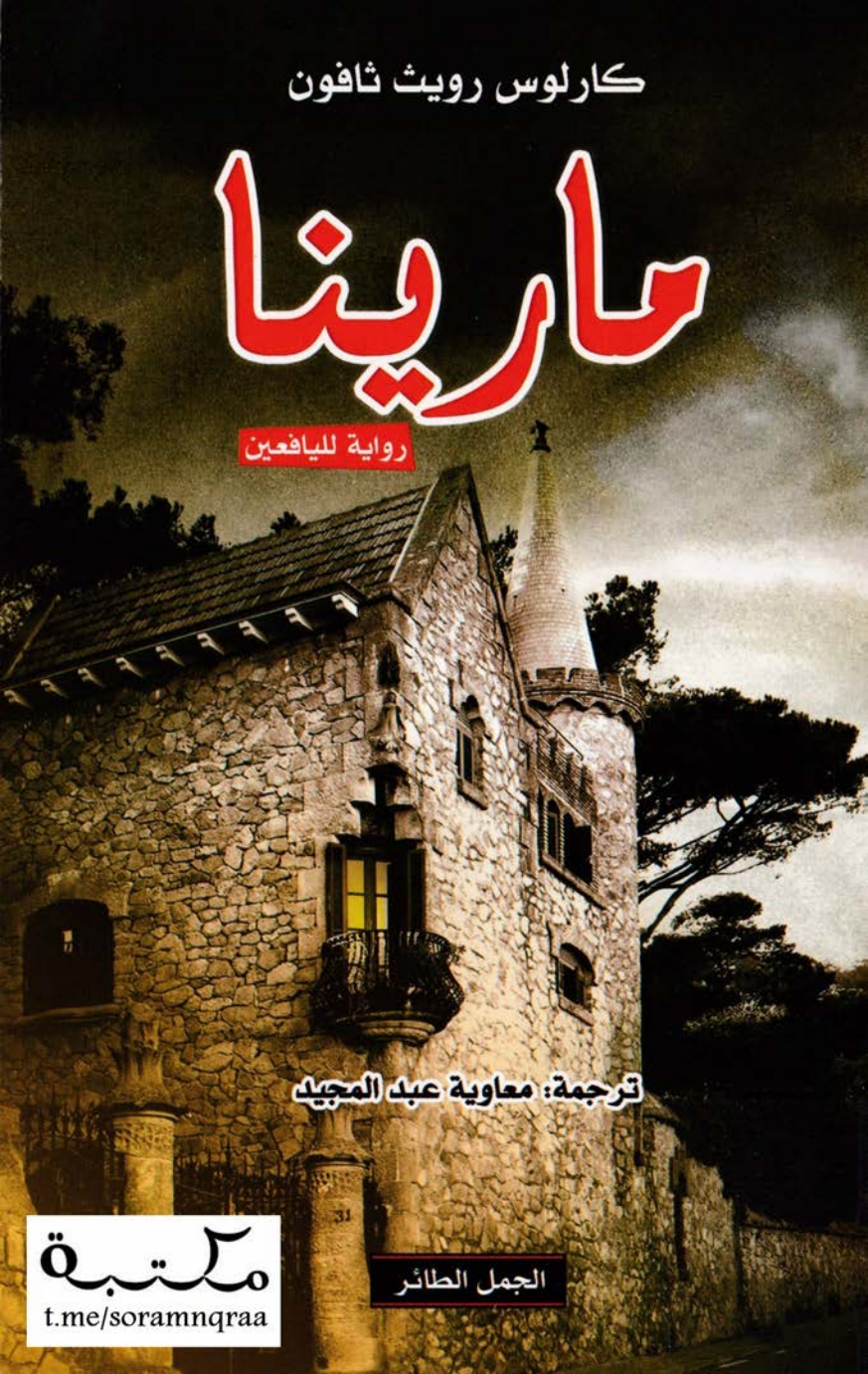

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر

مكتبة
t.me/soramnqraa

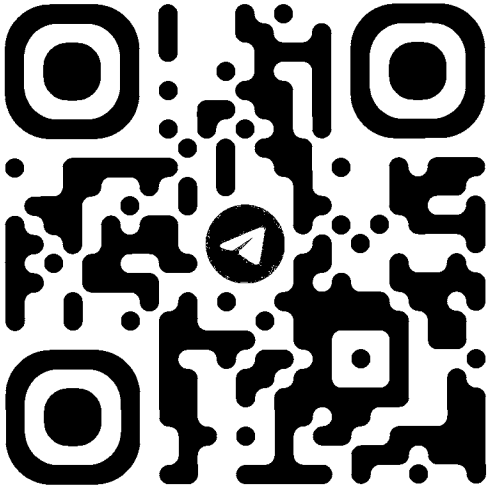

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

كارلوس رويث زافون: **مارينا**، رواية لليافعين

كارلوس رويث ثافون، أديبٌ إسبانيّ ولد في مدينة برشلونة عام ١٩٦٤. بدأ مسيرته الأدبيّة عام ١٩٩٣ مع سلسلة روائيّة لليافعين استهلّها برواية **أمير الضباب**، لتتلوها **قصر منتصف الليل**، ثمّ **أضواء سبتمبر**، ورواية **مارينا**. وفي عام ٢٠٠١ أصدر رائعته **ظلّ الريح**، وما لبثت أن نالت اهتمامًا عالميًّا وصُنِّفَت بين الكتب الإسبانيّة الأكثر مبيعًا على مستوى العالم، وحصل ثافون بموجبها على ثناء وتقدير، وعدد كبير من الجوائز والتكريم. ثمّ تابع عمله على سلسلة **مقبرة الكتب المنسيّة**، وأصدر **لعبة الملاك**، **سجين السماء**، **متاهة الأرواح**. وافته المنية في لوس أنجلس عام ٢٠٢٠ جرّاء إصابته بمرض سرطان القولون. وإحياءً لذكراه، تعاون أصدقاؤه في دار النشر بلانيتا على جمع أعماله القصصيّة في كتاب واحد حمل عنوان **مدينة من بخار**.

كارلوس رويث ثافون

مكتبة
t.me/soramnqraa

مارينا

رواية لليافعين

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الجمل الطائر

معاوية عبد المجيد، مترجم سوريّ من مواليد دمشق عام ١٩٨٥، درس الأدب الإيطاليّ في جامعة سيينا في إيطاليا. علَّمَ اللغة الإيطاليّة في كليّة الآداب في جامعة دمشق. حصل على درجة الماجستير في الثقافة الأدبيّة الأوروبيّة عن قسم الترجمة الأدبيّة من جامعة بولونيا الإيطاليّة وجامعة مولوز الفرنسيّة. صدرت له ترجمات عديدة في العالم العربيّ، مثل **ضمير السيّد زينو** لإيتالو سفيفو، **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** لأمبرتو إيكو، **الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس** لأوغو فوسكولو. حاز عدّة جوائز عالميّة لعمله في مجال الترجمة الأدبيّة. وعن منشورات الجمل صدرت له أعمال الأديب الإسبانيّ كارلوس رويث ثافون: **ظل الريح، لعبة الملاك، سجين السماء، متاهة الأرواح، مدينة من بخار، أمير الضباب، قصر منتصف الليل، أضواء سبتمبر.**

الجمل الطائر

سلسلة متخصصة بأدب الأطفال والناشئة تصدر عن
منشورات الجمل

كارلوس رويث ثافون: **مارينا**، رواية لليافعين، الطبعة الأولى
ترجمة: معاوية عبد المجيد

منشورات الجمل، الشارقة – بغداد ٢٠٢٥
ص.ب: ٨٠٠٣٣ – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

Carlos Ruiz Zafón: *Marina*
© Carlos Ruiz Zafón 1999, 2008

© *Al-Kamel Verlag* 2025
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

CARLOS RUIZ ZAFÓN

MARINA

مكتبة
t.me/soramnqraa

صديقي القارئ،

لديَّ اعتقادٌ راسخٌ بأنَّ كلَّ الكُتَّاب - سواء أقرّوا بذلك أم لا - يُفضِّلون كتابًا مُعيَّنًا من بين كتبهم التي ألَّفوها. ونادرًا ما تكون لهذا التفضيل صلةٌ بالقيمة الأدبيَّة الحقيقيَّة للعمل، أو بمدى إقبال القرَّاء عليه في حينه، أو بالحظوظ أو المشقَّات الناجمة عن إصداره. لسببٍ مجهول، يشعر المرءُ بأنَّه أقربُ إلى أحد أبنائه دون أن يستطيعَ شرحَ دوافعه هذه جيِّدًا. بالنسبة إليَّ، من بين الكتب التي أصدرتُها، منذ أن زاولتُ هذه المهنة الغريبة، حوالي العام ١٩٩٢، أُفضِّلُ «مارينا».

ألَّفتُ هذه الروايةَ في لوس أنجلس ما بين العامين ١٩٩٦ و١٩٩٧. كان عمري حينذاك ثلاثةً وثلاثين عامًا تقريبًا، عندما بدأتُ أظنُّ أنَّ مرحلةَ الشباب الأولى - كما سمَّاها أحدُ البسطاء - تتسرَّبُ من بين أصابعي بوتيرةٍ ثابتة. كنتُ من قبلُ قد أصدرتُ ثلاثَ رواياتٍ لليافعين، وحالما باشرتُ كتابةَ «مارينا» أيقنتُ أنَّها ستكون آخرَ كتابٍ أُؤلِّفُهُ من هذا النوع. وكلَّما تقدَّمتُ بهذه الحكاية، بدا كلُّ شيءٍ فيها بنكهة الوداع، وحين أنجزتُها تملَّكَني

انطباعٌ بأنَّ شيئًا منّي - شيئًا لا أعرف ما هو حتّى الآن لكنّي أشعر كلَّ يوم بأنّه انبتَّ عنّي - ظلَّ فيها إلى الأبد.

لعلَّ «مارينا» هي الروايةُ الأصعبُ على التصنيف والتوصيف من بين الروايات العديدة التي كتبتُها، وربّما هي أكثرُها شخصيَّةً. وللمفارقة، سبَّبَ لي إصدارُها خيبةَ أملٍ أكثرَ من غيرها. لقد عاشت الروايةُ عشر سنواتٍ بطبعاتٍ رديئةٍ مشوبةٍ بعمليَّات احتيالٍ أربكت قرَّاءً كثيرين، إذ قُدِّمَتْ لهم بما لم تكن عليه. ورغم هذا، ما زال قرَّاءٌ من كلّ فئةٍ عمريَّةٍ واجتماعيَّةٍ يكتشفون بين صفحاتها أشياء جديدة، ويصلون إلى عُلِّيَّة الروح التي يُحَدِّثُنا عنها الراوي، أوسكار.

مارينا تعود إلى البيت في النهاية، والحكايةُ التي يُنهيها أوسكار من أجلها أصبحت الآن في متناول القرَّاء، للمرَّة الأولى بظروفٍ لطالما تمنَّاها مؤلِّفُها. وربّما الآن سأتمكَّنُ، بمساعدتهم، من فهم لماذا بقيت هذه الروايةُ ماثلةً في ذاكرتي كاليوم الذي أنجزتُها فيه، وسأستطيع - على حدّ قول مارينا - أن أتذكَّرَ الأشياءَ التي لم تقع.

كارلوس رويث ثافون

برشلونة، يونيو ٢٠٠٨

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت لي مارينا ذات مرَّةٍ إنَّنا لا نتذكَّرُ إلّا الأشياءَ التي لم تقع. استغرقتُ من الزمن دهرًا لا نهايةَ له لكي أدركَ معنى تلك الكلمات. ولكن، من الأفضل أن أبدأ من البداية، والتي في هذه الحالة ليست سوى النهاية.

في مايو ١٩٨٠، اختفيتُ من العالَم طوال أسبوع. لم يعرف أحدٌ مكاني سبعةَ أيَّامٍ وسبعَ ليالٍ. أصدقاء، وزملاء، ومُعلِّمون، بل وحتّى رجالُ شرطة، هبُّوا للبحث عن ذلك الهارب الذي ظنَّ بعضُهم أنَّه قد مات، أو تاه في طرقاتٍ سيِّئة السمعة، فريسةً لإحدى نوبات فقدان الذاكرة.

وبعد أسبوع، اعتقد ضابطٌ بزيٍّ مدنيٍّ أنَّه حدَّدَ ذلك الفتى؛ المواصفاتُ مُطابِقة. كان المُشتَبَهُ فيه يجول في محطَّة فرنسا مثل روحٍ ضالَّةٍ داخل كاتدرائيَّةٍ مبنيَّةٍ من حديدٍ وضباب. اقترب منّي الضابطُ كأنَّنا في أجواء روايةٍ بوليسيَّة. سألني إن كنتُ أُدعى أوسكار دراي، إن كنتُ أنا تلميذَ المدرسة الداخليَّة، الفتى المفقودَ دون أثر. أومأتُ بصمت. لا أذكر سوى انعكاس طاق المحطَّة في عدسة نظَّارته.

جلسنا على مقعدٍ بجانب السكك الحديديَّة. أشعل الضابطُ سيجارةً بهدوء، تركها تحترق ولم يرفعها إلى شفتيه. قال لي إنَّ عددًا كبيرًا من الناس ينتظرونني، ليطرحوا عليَّ عددًا كبيرًا من الأسئلة، وتقتضي مصلحتي أن أُحضِّرَ لها إجاباتٍ جيِّدة. أومأتُ من جديد. حدَّقَ إلى عينيَّ، وتفحَّصَني. «في بعض الأحيان، لا يُنصَحُ بقول الحقيقة يا أوسكار». أعطاني فكَّةً وأشار عليَّ بالاتِّصال بمُوجِّهي في المدرسة الداخليَّة. ففعلتُ. انتظر الضابطُ أن أنهي المكالمة، ثمَّ أعطاني نقودًا لركوب سيَّارة أجرة وتمنَّى لي التوفيق. سألتُهُ كيف كان مُتأكِّدًا من أنَّني لن أختفي ثانيةً. نظر إليَّ طويلًا. «لا يختفي إلّا مَن كان لديه مكانٌ يذهب إليه» - ردَّ حازمًا. رافقني إلى خارج المحطَّة وودَّعَني، دون أن يسألني حتّى أين كنتُ طوال تلك المدَّة. رأيتُهُ يبتعد على امتداد جادّة كولون. وكان دخانُ سيجارته، التي لم يُدخِّنها، يتبعه ككلبٍ وفيّ.

في ذلك اليوم، نحَتَ شبحُ غاودي في سماء برشلونة غيومًا مستحيلةً على خلفيَّةٍ زرقاء تُعمي الأبصار. ركبتُ سيَّارةَ أجرة إلى المدرسة الداخليَّة، حيث تخيَّلتُ فرقةَ إعدامٍ بانتظاري.

وطوال شهرٍ تقريبًا، انهال عليَّ المُعلِّمون والأخصَّائيّون النفسانيّون في المدرسة بأسئلةٍ عارمةٍ لأبوحَ بسرّي. كذبتُ عليهم جميعًا، رويتُ لكلٍّ منهم ما يريد سماعَهُ أو يستطيع تقبُّلَه. ومع الوقت، تظاهر الجميعُ بنسيان تلك الواقعة. وحذوتُ حذوَهم. لم أبح لأحدٍ بما جرى حقيقةً.

لم أكن أعلم حينها أنَّ محيطَ الزمن، عاجلًا أم آجلًا، سوف

يُعيدُ لنا الذكريات التي دفنَّاها. فبعد خمسة عشر عامًا، عاد ذلك اليومُ إلى ذهني. رأيتُ ذلك الفتى يتسكَّعُ في ضباب محطَّة فرنسا، والتهبَ اسمُ مارينا مُجدَّدًا كأنَّه جرحٌ حديث.

لكلٍّ منّا سرٌّ موصودٌ في عُلِّيَّة روحه. وهذا هو سرّي.

١

في أواخر السبعينات، كانت برشلونة سرابًا من أزقَّةٍ وطرقاتٍ يُسافِرُ فيها المرءُ ثلاثين أو أربعين عامًا نحو الماضي، وذلك باجتياز عتبة مبنى أو مقهى بكلّ بساطة. الزمنُ والذاكرة، التاريخُ والخيال، ينصهر بعضُها ببعضٍ في تلك المدينة المسحورة كألوانٍ مائيَّةٍ تحت المطر. هناك بالتحديد، في أصداء تلك الشوارع التي لم يعد لها وجود، هَندَسَت الكاتدرائيَّاتُ والقصورُ - الهاربةُ من القصص الخرافيَّة - مشهدَ هذه الحكاية.

كنتُ حينذاك فتىً في الخامسة عشرة من العمر، أتهالك بين جدران مدرسةٍ داخليَّةٍ اتَّخذَت اسمَ قدِّيسٍ على سفوح تلَّة بايبيذريرا. وكان حيُّ سارّيا في تلك الأيَّام ما يزال على هيئة بلدةٍ صغيرةٍ عند تخوم مدينةٍ حداثيَّةٍ كبرى. والمدرسةُ في قمَّة طريقٍ يتسلَّقُ من ممشى بونانوبا. واجهتُها الأثريَّةُ توحي بقلعةٍ أكثر من كونها مدرسة. وهيكلُها المُتعرِّجُ، ذو اللون الترابيّ، أحجيةٌ من أبراجٍ وأقواسٍ وأجنحةٍ مُظلِمة.

وكانت المدرسةُ محاطةً بحصنٍ من الحدائق والنوافير، والمستنقعات الطينيَّة والباحات، وغابات الصنوبر الفاتنة. وما

حولها مبانٍ كئيبةٌ تحتوي على مسابحَ يحجبها بخارٌ شبحيّ، ونوادٍ رياضيَّةٍ يسكنها الصمت، ومُصلَّياتٍ مُعتِمةٍ تبتسم فيها صورُ القدِّيسين على انعكاس الشموع. وللمدرسة أربعةُ طوابق، ناهيك بالقبوين، وسندرة معزولة يقيم فيها القساوسةُ القلائلُ الذين كانوا يُزاوِلون التعليمَ في تلك الآونة. وتقع غرفُ النزلاء عند الممرَّات الكهفيَّة في الطابق الرابع، الغارقة في عتمةٍ دائمة، تكتنفها أصداءٌ مُريعة.

كنتُ أقضي أيَّامي شاردَ الذهن في قاعات تلك القلعة المهولة، بانتظار المعجزة التي تتكرَّرُ كلَّ يوم عند الساعة الخامسة والدقائق العشرين عصرًا. ففي تلك الساعة السحريَّة، تسكب الشمسُ على النوافذ العلويَّة ذهبًا سائلًا، ويُقرَعُ الجرسُ إيذانًا بانتهاء الدروس، فتتاحُ لنا نحن نزلاء المدرسة الداخليَّة ثلاثُ ساعاتٍ من الحرّيَّة قبل موعد العشاء في الصالة الكبرى. فكان يجدر بنا، نظريًّا، أن نُخصِّصَ ذلك الوقت للدراسة والتأمُّل الروحيّ. ولا أذكر أنَّني كرَّستُ أيَّ يوم لتلك الأنشطة النبيلة.

هذه اللحظةُ المُفضَّلةُ عندي. أُخادِعُ مراقبةَ الحارس، وأخرج لاستكشاف المدينة. اعتدتُ أن أرجعَ إلى المدرسة قُبيلَ العشاء، سائرًا في الطرقات والجادّات بينما يُخيِّمُ الظلامُ على كلّ شيءٍ من حولي. تمدُّني تلك النزهاتُ الطويلةُ بإحساسٍ مُسْكِرٍ بالحرّيَّة. تُحلِّقُ مُخيِّلتي ما فوق الأبنية وتلامس السماء. فتختفي طرقاتُ برشلونة، والمدرسةُ الداخليَّة، وغرفتي الكئيبةُ في الطابق الرابع، بضعَ ساعات. أشعر أنَّني رغم إفلاسي أسعدُ الناس حظًّا في الوجود، بضعَ ساعات.

وغالبًا ما دفعني تسكُّعي إلى ما كان يُسمَّى بصحراء سارّيا، وهي ليست سوى جزءٍ من غابةٍ ضاعت في أرضٍ لا أحد. فمعظمُ القصور القديمة الفخمة، التي كانت فيما مضى تضخُّ الحياةَ بشمال ممشى بونانوبا، ما زالت قائمة، مع أنَّها خرابٌ تقريبًا. الطرقاتُ المحيطةُ بالمدرسة الداخليَّة ترسم ملامحَ مدينة أشباح. أسوارٌ مكسوَّةٌ باللبلاب تمنع الدخولَ إلى حدائقَ برّيَّةٍ تنهض فيها دورٌ أثريَّة. عماراتٌ اكتسحتها الأعشابُ الضارَّةُ وتعرَّضَت للهجران، وذكراها تحوم حولها كضبابٍ لا ينقشع. وكثيرٌ من تلك الدُّور لا تنتظر إلّا أوانَ هدمها، وأكثرُ منها استُبِيحَت ونُهِبَت على مرّ الأعوام. لكنَّ بعضَها ما يزال مأهولًا.

ساكنوها منسيّون، مُتحدِّرون من سلالاتٍ آفلة. أبناءُ عوائلَ كانت أسماءُ أفرادها تتصدَّرُ الصفحاتِ الأولى من جريدة الطليعة، عندما كان التراموي ما زال يُثير الشكوكَ حول الابتكارات الحديثة. رهائنُ ماضيهم البائد، يرفضون القفزَ عن السفينة الغارقة. يخشون أنَّهم، في حال تجرَّأوا ووطئت أقدامُهم خارج حدود منازلهم المتداعية، تلاشت أجسادُهم كالرماد في مهبّ الريح. كأنَّهم سجناء، يذبلون على ضوء الشموع. وكان يبدو لي أحيانًا، عندما أمرُّ بجانب تلك البوَّابات الصدئة، أنَّني أتلقَّى نظراتٍ مُتوجِّسةً من خلف المصاريع الكالحة.

وذات عصر، في أواخر سبتمبر ١٩٧٩، قرَّرتُ أن أُغامِرَ عشوائيًّا في إحدى تلك الجادّات المزدحمة بالدُّور الحدائيَّة، التي لم أنتبه إليها حتّى ذلك الحين. كان الطريقُ يرسم مُنعَطَفًا لينتهي أمام بوَّابةٍ كغيرها، تتراءى من خلفها بقايا حديقةٍ قديمةٍ تتَّسِمُ

بعقودٍ من الهجران. ومن بين الحشائش يتبدَّى هيكلُ دارٍ تتكوَّنُ من طابقين، وواجهُتها الكئيبةُ تنهض خلف نافورةٍ بمنحوتاتٍ غطَّاها الزمنُ بالطحالب.

هبط الظلامُ وبدا لي المكانُ مشؤومًا. كان يلفُّهُ صمتٌ قاتل، تتخلَّلُهُ نسمةٌ طفيفةٌ لتهمسَ في خاطري تحذيرًا بلا كلمات. أدركتُ أنّي وصلتُ إلى إحدى المناطق «الميِّتة» من الحيّ. وفكَّرتُ أنَّه من الأفضل أن أعودَ أدراجي وألوذَ بمدرستي. كانت تتنازعني الجاذبيَّةُ الهوسيَّةُ لذلك المكان المنسيّ، والرغبةُ في اتِّباع الحسّ السليم، فإذا أنا ألمح عينين صفراوين لامعتين تتلألآن في العتمة، تُوغِلان فيَّ كخنجرين. ابتلعتُ ريقي.

تبدَّى فراءٌ رماديٌّ ومخمليٌّ لقطٍّ مُتسمِّرٍ أمام بوَّابة الدار. ثمّة عصفورٌ يُحتَضَرُ بين فكّيه، وجرسٌ فضّيٌّ صغيرٌ يتدلَّى من عنقه. تفحَّصَتني عيناه برهةً، ثمَّ استدار وتسلَّلَ بين القضبان الحديد. رأيتُهُ يختفي في رحابة تلك الجنَّة الملعونة حاملًا العصفورَ نحو رحلته الأخيرة.

أسرتني رؤيةُ ذلك الحيوان الصغير المتعالي والمتحدّي. لا بدَّ أنَّ له صاحبًا، بالنظر إلى فرائه وجرسه. لعلَّ الدارَ تحتضن شيئًا ملموسًا أكثر من أشباح برشلونة الراحلة. اقتربتُ ووضعتُ يدي على قضبان البوَّابة. كان الحديدُ باردًا. وكانت آخرُ أضواء الغسق تُلهِبُ آثارَ قطرات الدماء التي نزفها العصفورُ في ذلك الحرش. كأنَّها لآلئُ قرمزيَّةٌ تخطُّ دربًا في المتاهة. ابتلعتُ ريقي ثانيةً. أو بالأحرى حاولتُ. كان فمي جافًّا. وقلبي، إذ عرف ما كنتُ أجهله، نَبَضَ في صدغيَّ بشدَّة. وهكذا أحسستُ أنَّ البوَّابةَ

تتراخى على ثقل يدي، وأدركتُ أنَّها مفتوحة.

عندما خطوتُ الخطوةَ الأولى باتِّجاه الداخل، كان القمرُ يضيء وجوهَ الملائكة الحجريَّة الشاحبة عند النافورة. الملائكة تُراقِبني. تسمَّرَت قدماي في الأرض. توقَّعتُ أن تقفزَ تلك الأشكالُ من قواعدها وتتحوَّلَ إلى شياطين مُدجَّجةٍ بمخالب ذئبٍ وألسنة أفعى. لم يقع شيءٌ من هذا كلِّه. سحبتُ نفسًا عميقًا، وفكَّرتُ في إمكانيَّة الحدّ من تهوُّر مُخيِّلتي، أو التراجع عن استكشافي الخجول لذلك البيت. ومرَّةً أخرى، قرَّرَ أحدُهم عنّي. اجتاح صوتٌ سماويٌّ ظلالَ الحديقة كما لو أنَّه عطر. سمعتُ لمحاتِ ذلك الهمس تنقش أنغامَ مقطعٍ أوبراليٍّ بمرافقة بيانو. كان أعذبَ صوتٍ أصغيتُ إليه في حياتي.

ورغم أنَّ اللحنَ مألوفٌ بالنسبة إليّ، لم أنجح في تحديده. الموسيقى صادرةٌ من الدار. تعقَّبتُ أثرَها الأخّاذ. تسرَّبَت شفراتُ ضوءٍ بخاريٍّ من الباب الموارب لردهةٍ زجاجيَّة. رأيتُ عينَي القطّ تُحدِّقان إليَّ من رفّ نافذةٍ كبيرةٍ في الطابق الأوَّل. اقتربتُ من الردهة المضاءة التي يصدر منها ذلك النغمُ البديع. صوتُ امرأة. ثمّة هالةٌ خافتةٌ قوامُها مئةُ شمعةٍ تختلج في الداخل. أبصرتُ بوقًا ذهبيًّا لغراموفون قديم، وقرصٌ يدور فيه. ودون أن أعي ما أفعله، فوجئتُ بدخولي الغرفة، مفتونًا بصوت تلك الحوريَّة حبيسة الغراموفون. لاحظتُ على الطاولة، التي يعتليها الجهاز، وجودَ غرضٍ لامعٍ ومُدوَّر. ساعةُ جيب. أمسكتُها وعاينتُها على ضوء الشموع. عقاربُها مُتوقِّفة ووجهُها مكسور. بدت أنَّها مصنوعةٌ من الذهب، وأنَّها قديمةٌ قِدَمَ الدار

التي وجدتُني فيها. وفي القرب أريكةٌ قديمةٌ مُوجَّهةٌ إلى مدفأةٍ عُلِّقَت فوقها لوحةٌ زيتيَّةٌ لامرأةٍ ترتدي ثوبًا أبيض. عيناها الوسيعتان رماديَّتان، حزينتان وعميقتان، تهيمنان على الصالة.

انتهى مفعولُ السحر على حين غرَّة. نهض خيالٌ عن الأريكة والتفت نحوي. شعرٌ أبيضُ طويل، وعينان تقدحان شررًا في الظلام كالجمر. لم يكن في وسعي سوى رؤية يدين بيضاوين ضخمتين تمتدَّان باتِّجاهي. هُرِعتُ بالركض نحو الباب تحت تأثير الفزع، فتعثَّرتُ بالغراموفون وأسقطتُهُ أرضًا. شعرتُ أنَّ إبرتَهُ تخدش القرص. تحطَّمَ الصوتُ السماويُّ بصرخةٍ جهنَّميَّة. تدحرجتُ إلى الحديقة، وكنتُ أحسُّ باليدين تمسَّان قميصي، واجتزتُها على أجنحة قدميَّ، والهلعُ يكوي كلَّ مسامي. لم أتوقَّف البتّة. ركضتُ وركضتُ دون أن ألتفتَ إلى الخلف، حتّى وخزتني صعقةُ ألم في خاصرتي، وأدركتُ أنَّني أتنفَّسُ بمشقَّة. كنتُ أتصبَّبُ عرقًا عند ذلك الحدّ، وأضواءُ المدرسة الداخليَّة تلتمع على بُعد ثلاثين مترًا عنّي.

تسلَّلتُ من بابٍ قريبٍ من المطابخ لا يحرسه أحد، وجرجرتُ نفسي حتّى غرفتي. لا بدَّ أنَّ الآخرين كانوا في الصالة الكبرى منذ حين. نشَّفتُ جبيني من العرق، فيما استعاد قلبي إيقاعَهُ الطبيعيَّ شيئًا فشيئًا. وما لبثتُ أن هدأتُ حتّى طرق أحدهم الباب.

- أوسكار، حان وقتُ العشاء. - نبَّهَني مُوجِّهي، الأب سيغي، وهو يسوعيٌّ عقلانيٌّ لا يُحِبُّ اضطرارَهُ إلى أداء دور الشرطيّ.

- سأنزل فورًا، يا أبانا. - أجبتُ - لحظة واحدة.

ارتديتُ السترةَ الإلزاميَّةَ بعجالة وأطفأتُ ضوءَ الغرفة. كان شبحُ القمر، الذي ينهض فوق برشلونة، باديًا من النافذة. لم أنتبه إلّا حينذاك أنَّ الساعةَ الذهبيَّةَ كانت في يدي.

٢

في الأيَّام التالية، أصبحنا أنا وتلك الساعةُ الملعونة رفيقين لا يفترقان. كنتُ آخذها معي إلى كلّ مكان، بل وأضعها تحت وسادتي حين أنام، خشية أن يراها أحدهم ويسألني من أين حصلتُ عليها. لم تكن لديَّ إجابة. «هذا لأنَّك لم تعثر عليها، إنّما سرقتَها» يهمس في أذني صوتٌ يتَّهمني. «المصطلح القانونيّ: *سطو وانتهاك حرمة المسكن*» يضيف الصوتُ الذي يشبه - لسببٍ لم أفهمه - صوتَ المُمثِّل الذي يُدبلِجُ بيري ماسون.

وفي الليل كنتُ أنتظر بفارغ الصبر أن ينامَ رفاقي لأتفحَّصَ كنزي السّرّيّ. وإذا ساد الصمتُ عاينتُهُ بضوء مصباح. وما كان بمقدور كلّ مشاعر الذنب في الدنيا أن تُبطِلَ السحرَ الذي تُمارِسُهُ عليَّ غنيمةُ أولى تجاربي في «الجريمة غير المُنظَّمة». كانت الساعةُ ثقيلةً وتبدو مصنوعةً من الذهب الصلب. ووجهُها المكسورُ يوحي بلكمةٍ أو سقطة. تخيَّلتُ أنَّ تلك الصدمةَ حطَّمَت آليَّتَها، وأنَّها جمَّدَت عقاربَها على السادسة والدقائق الثلاث والعشرين. إدانةٌ أبديَّة. قرأتُ على خلفيَّتها العبارة التالية:

إلى خيرمان، الذي يتحدَّثُ الضوءُ في قلبه
ك. آ.
١٩-١-١٩٦٤

خطر في ذهني أنَّ ثمنَ هذه الساعة باهظٌ للغاية، وأنَّ الندمَ لن يتأخَّرَ لينهشني. إذ أشعرتني تلك الكلماتُ أنَّني لصٌّ ذكريات.

في يوم خميسٍ ماطر، قرَّرتُ أن أشاركَ سرّي. كان صديقي المُقرَّبُ في المدرسة الداخليَّة فتىً ثاقبَ العينين، عصبيَّ المزاج، يُلِحُّ أن نُلقِّبَهُ ج. ف.، مع أنَّ هذين الحرفين لا يمتّان بصلةٍ لاسمه الحقيقيّ. كان لدى ج. ف. روحُ شاعرٍ تحرُّريّ، وذكاءٌ حادٌّ غالبًا ما يقطع ألسنتنا به. كان ضعيفَ البنية، يكفي أن ينطقَ أحدهم كلمةَ ميكروب على نطاق كيلومتر حتّى يقتنعَ أنَّه أُصيبَ بالعدوى. ذات يوم بحثتُ في القاموس عن كلمة هيبوكوندريا/ *الهُجاس* [وسواس المرض]، واستنسختُ له الصفحة.

- لا أعرف إن كنتَ تدري، سيرتُك مذكورةٌ في قاموس الأكاديميَّة الملكيَّة. - قلتُ له.

ألقى عينًا على الورقة ثمَّ رماني بنظرةٍ مُرعِبة.

- جرِّبْ أن تبحثَ عن كلمة «أبله» لترى أنَّني لستُ الشهيرَ الوحيد. - ردَّ.

وفي ذلك اليوم، خلال استراحة منتصف النهار، تسلَّلنا أنا و ج. ف. إلى القاعة الكبرى المظلمة. كانت خطواتُنا في الممرّ الرئيس تُوقِظُ أصداءَ مئات الظلال التي تمشي على رؤوس أصابعها. ثمّة حزمتان ضوئيَّتان تهبطان على الخشبة المُغبرَّة.

جلسنا وسط ذلك الضياء، أمام صفّين من مقاعد خاوية تمتزج بالعتمة. وكان همسُ المطر يخدش زجاجَ الطابق الأوَّل.

- وماذا الآن؟ - قال ج. ف. بنبرةٍ حادَّة - لِمَ كلُّ هذا الغموض؟

أخرجتُ الساعةَ من دون أن أقولَ شيئًا، وأعطيتُها له. قطَّبَ ج. ف. حاجبيه وقيَّمَ الغرض. عاين الساعةَ باهتمامٍ لم يدم سوى لحظات، ثمَّ أرجعها إليَّ وهو ينظر باتِّجاهي بفضول.

- ما رأيك؟ - سألتُهُ.

- رأيي أنَّها ساعة. - أجاب ج. ف. - مَن يكون المدعو خيرمان؟

- ليس لديَّ أدنى فكرة.

رويتُ له تفاصيلَ المغامرة التي عشتُها قبل أيَّامٍ في تلك الدار المتهالكة. أصغى ج. ف. إلى سرد الأحداث بصبرٍ وإمعانٍ علميَّين يتميَّزُ بهما. وحين أفرغتُ ما عندي، تأمَّلَ طويلًا قبل أن يُعبِّرَ عن انطباعاته.

- لقد سرقتَها فعليًّا. - استنتج.

- هذه ليست القضيَّة. - اعترضتُ.

- ينبغي أن نطَّلعَ على وجهة نظر خيرمان هذا.

- أغلب الظنّ أنَّ خيرمان هذا مُتوفًّى منذ أعوام. - ألمحتُ دونما اقتناعٍ راسخ.

حكَّ ج. ف. ذقنه.

- أتساءل ما الذي نصَّ عليه القانونُ الجزائيُّ بحقّ السرقة مع

سابق الإصرار والترصُّد للأغراض الشخصيَّة والساعات التي نُقِشَت عليها الإهداءات. . . - ألحَّ صديقي.

- لم يكن هناك سابقُ إصرارٍ ولا ترصُّدٍ ولا أيُّ شيءٍ من هذا. - احتججتُ - لقد وقع الأمرُ برمَّته فجأةً، لم يسعفني الوقتُ للتفكُّر. وحين انتبهتُ إلى وجود الساعة في يدي، كان قد فات الأوان. ستفعل الشيءَ ذاته أنت أيضًا لو كنتَ مكاني.

- لو كنتُ مكانك لأصابتني الجلطة. - حدَّدَ ج. ف. الذي كان رجلَ أقوال أكثر من كونه رجلَ أفعال - هذا إذا افترضنا أنَّني مجنونٌ لدرجة التسلُّل إلى ذلك البيت لمجرَّد اللحاق بهرٍّ إبليس. ومَن يدري أيُّ نوعٍ من الجراثيم ينتقل إلينا من حيوانٍ كهذا.

سادنا الصمت بعض الوقت، لنصغي إلى أصداء المطر البعيدة.

- بكلّ الأحوال. - خَلُصَ ج. ف. - ما وقع وقع. لن تعود إلى تلك الدار، صحيح؟

ابتسمتُ.

- ليس بمفردي.

جحظت عينا صديقي.

- لا، لا. انسَ الأمر.

في عصر ذلك اليوم، بعد انتهاء الدروس، تسلَّلنا أنا و ج. ف. من باب المطابخ ودلفنا إلى الشارع العجائبيّ الذي يُفضي إلى الدار. كان البِلاطُ ممتلئًا ببِرك المياه والورقات اليابسة. السماءُ مُتوعِّدة، تربض على المدينة. وصديقي شاحبٌ أكثر من المعتاد، وغير مطمئنّ. إذ إنَّ رؤيةَ ذلك المكان

المسجون بالماضي قلَّصَت معدته إلى حجم كرةٍ صغيرة. وكان الصمتُ مُطبِقًا.

- أعتقد أنَّ الحلَّ الأمثلَ هو الاستدارة والفرار. - همس مُتراجِعًا عدَّة خطوات.

- لا تكن جبانًا كدجاجة.

- الناس لا يُقدِّرون الدجاجَ بما يستحقّه. فمن دون الدجاج لا بيضَ ولا...

وفجأةً، عمَّ رنينُ جرسٍ صغيرٍ مع الريح. انعقد لسانُ ج. ف.، كانت عينا القطّ الصفراوان تُحدِّقان إلينا. فحَّ الحيوانُ بغتةً كالأفعى وأظهر مخالبَهُ. انتصب وبرُ ظهره، وكشف فكَّاه عن أنيابٍ حادَّة كانت في اليوم الماضي تنتزع الحياةَ من عصفور. تمزَّقَت السماءُ وأُنيرَت جرَّاء برقٍ بعيد. تبادلنا النظرات أنا وصديقي.

وبعد ربع ساعة، كنّا جالسَين على مقعدٍ بجانب بركة ماءٍ في رواق المدرسة المُعمَّد. والساعةُ ما تزال في جيب سترتي. أثقل من أيّ وقتٍ مضى.

*

وظلَّت هناك طوال الأسبوع، حتّى صباح السبت. استيقظتُ قُبَيلَ الفجر بإحساسٍ غامضٍ بأنَّ الصوتَ حبيسَ الغراموفون زارني في المنام.

كانت برشلونة خارج النافذة تشتعل بستارةٍ من ظلالٍ قرمزيَّة، كأنَّها غابةٌ من أسطحٍ ولاقطات إشارة. قفزتُ عن السرير وبحثتُ

عن الساعة الملعونة التي سمَّمت حياتي خلال الأيَّام الماضية. تبادلنا أنا وهي النظرات. وفي النهاية تسلَّحتُ بالعزيمة التي لا نصادفها إلّا حين ينبغي لنا مواجهةُ مهمَّاتٍ عبثيَّة، وقرَّرتُ أن أضعَ حدًّا لهذه الحالة. سأعيد الساعةَ إلى أصحابها.

ارتديتُ ثيابي بهدوء ومشيتُ في الممرّ المظلم، في الطابق الرابع، على رؤوس أصابعي. ما كان لأحدٍ أن ينتبهَ لغيابي حتّى العاشرة أو الحادية عشرة صباحًا. تمنَّيتُ أن أعود قبل ذلك الوقت.

كانت الطرقاتُ في الخارج رازحةً تحت العباءة الأرجوانيَّة العكرة التي تُغطّي فجرَ برشلونة. نزلتُ إلى شارع مارخينات. كان حيُّ سارّيا يستيقظ من حولي. تُلامِسُهُ غيومٌ منخفضةٌ لتقبضَ على أولى الأضواء بهالةٍ مُذهَّبة. وتبرز واجهاتُ البيوت من بين فجوات الضباب والورقات اليابسة التي تحوم بلا هدى.

وجدتُ الطريق بسرعة. توقَّفتُ برهةً لأتشرَّبَ ذلك الصمت، ذلك السلامَ الغريبَ الذي يسيطر على تلك الزاوية المنسيَّة من المدينة. خِلتُ أنَّ العالَمَ توقَّفَ بالتزامن مع الساعة التي في جيبي، حين سمعتُ صوتًا خلف ظهري.

التفتُّ لأصبحَ مُتفرِّجًا على رؤيةٍ مسروقةٍ من حلم.

٣

درَّاجةٌ هوائيَّةٌ تظهر من الضباب ببطء. فتاةٌ بثيابٍ بيضاء تتقدَّمُ نحوي، على امتداد الطريق الصاعد. كان ضوءُ الفجر من خلفها يسمح بتقصّي ملامح جسمها تحت الثوب القطنيّ. وشعرُها الطويلُ الذي من لون القشّ يتموَّجُ ليغطّي وجهها. بقيتُ مُتسمِّرًا، أنظر إليها وهي تقترب، مثل بليدٍ في نوبة شلل. توقَّفت الدرَّاجةُ على بُعد مترين عنّي. لمحت عيناي، أو مُخيِّلَتي، جانبًا من ساقين رشيقتين تحطَّان على الأرض. صعدتُ بنظري على ثيابها التي بدت أنَّها هاربةٌ من إحدى لوحات خواكين سورويا، حتّى اصطدمتُ بعينيها اللتين من لونٍ رماديٍّ عميقٍ يمكن السقوطُ فيه بسهولة. كانتا تُحدِّقان إليَّ بتعبيرٍ ساخر. ابتسمتُ وارتسمت على وجهي أفضلُ تعابير البلادة.

– لا بدَّ أنَّك الذي لديه الساعة. – قالت الفتاة بنبرةٍ تتلاءم مع نظرتها.

تكهَّنتُ أنَّها من عمري، ربّما تكبرني بعام. كان تكهُّنُ أعمار النساء بالنسبة إليَّ فنًّا أو عِلمًا، لا مُجرَّدَ هواية. بشرتُها شاحبةٌ كثيابها.

- هل تسكنين هنا؟ - تلعثمتُ وأنا أشير إلى البوَّابة.

رَمَشَتْ بالكاد. تغلغلت فيَّ هاتان العينان بشدَّةٍ حتّى استغرقتُ ساعتين قبل أن أنتبهَ أنَّها - من جانبي - أروعُ مخلوقةٍ رأيتُها أو تمنَّيتُ أن أراها في حياتي. نقطة، من أوَّل السطر.

- ومَن أنت حتّى تطرح عليَّ أسئلة؟

- أتصوَّرُ أنَّني الذي لديه الساعة. - ارتجلتُ - أُدعى أوسكار. أوسكار دراي. جئتُ لأُعيدَها.

لم أعطها فرصةً لتردّ، أخرجتُ الساعةَ من جيبي وأريتُها لها. قاومت الفتاةُ نظراتي قليلًا ثمَّ أخذت الساعةَ منّي. لاحظتُ أنَّ يدَها بيضاء كأنَّها لدميةٍ من ثلج، وأنَّ بنصرَها يزدان بخاتمٍ ذهبيّ.

- كانت مُحطَّمةً قبل أن آخذها. - فسَّرتُ.

- مُحطَّمة منذ خمسة عشر عامًا. - غمغمت دون أن تنظر إليَّ.

وعندما رفعت عينيها أخيرًا، تفحَّصتني من الأعلى إلى الأسفل، كأنَّها تُعايِنُ قيمةَ أثاثٍ قديم أو غرضٍ بلا قيمة. قال لي شيءٌ في عينيها أنَّها لا تعدُّني لصًّا حقيقيًّا؛ كانت على الأرجح تحاول تصنيفي في قائمة الحمقى أو البُله. لم يساعدني وجهي المُتنوِّرُ كثيرًا. قوَّست الفتاةُ حاجبَها وافترَّت منها ابتسامةٌ ملغزة، ثمَّ أعطتني الساعة.

- أنت مَن أخذها، أنت مَن سيُسلِّمُها لصاحبها.

- ولكن...

- الساعةُ ليست لي. - فسَّرَت - إنَّها لخيرمان.

أعاد إليَّ ذلك الاسمُ في ذهني صورةَ ذلك العملاق ذي الشعر الأبيض الذي فاجأني قبل أيَّامٍ في صالة الدار.

- خيرمان؟

- والدي.

- وأنتِ؟ - سألتُها.

- ابنته.

- أقصد: ما اسمكِ؟

- أعلم تمامًا ما الذي تقصده. - ردَّت الفتاة.

ولم تضف شيئًا، إنّما ركبت سرجَ درَّاجتها من جديد وعبرت بها البوَّابة الحديد. وقبل أن تختفي في الحديقة، التفتت برهةً. كانت عيناها تسخران منّي بشدَّة. تنهَّدتُ ولحقتُ بها. رحَّبَ بي أحدُ معارفي القدامى. كان القطُّ يُحدِّقُ إليَّ بازدرائه المعهود. وددتُ لو كنتُ كلبًا من فصيلة الدوبرمان.

قطعتُ الحديقةَ بمرافقة الهرّ. وتوغَّلتُ في ذلك الدغل حتّى وصلتُ إلى نافورة الملائكة، حيث أُسنِدَت الدرَّاجة. كانت الفتاةُ تُفرِّغُ سلَّة المقود من كيسٍ يعبق برائحة الخبز الطازج. أخرجت قنّينةَ حليب وجلست القرفصاء لتملأ قصعة. فهبَّ الهرُّ إلى فطوره. لا بدَّ أنَّ هذا طقسٌ يوميّ.

- خِلتُ أنَّ قطَّكِ لا يتغذَّى إلّا على الطيور المهيضة الجناح. - قلتُ.

- لا يتغذَّى عليها، يصطادها فقط. يحمي أرضه. - شرحت

لي كأنَّها تُحدِّثُ طفلًا - إنَّه يحبُّ الحليب. أليس صحيحًا يا كافكا، أنَّك تحبُّ الحليب؟

لعق الهرُّ الكافكاويُّ أصابعها مُوافِقًا. ابتسمت الفتاةُ بلطفٍ وهي تداعب ظهره. تبدَّت ملامحُ عضلات جنبها من تحت ثنيَّات ثيابها. وفي تلك اللحظة تمامًا رفعت عينيها وفاجئتني بأنّي أرمقها وألعق شفتيَّ.

- وأنت؟ هل تناولتَ الفطور؟ - سألتْ.

أومأتُ نافيًا.

- فأنت جائعٌ إذًا. الأغبياء جوعى على الدوام. - قالت - تعال، ادخل وكلْ شيئًا. من الأنسب أن تكون معدتُك ممتلئةً إن أردتَ أن تشرح لخيرمان لماذا سرقتَ ساعته.

*

كان المطبخُ عبارةً عن غرفةٍ كبيرةٍ في الجانب الخلفيّ. والفطورُ المفاجئُ يتكوَّنُ من المعجَّنات التي اشترتها الفتاةُ من أفران حلويّات فويكس، في ساحة سارّيا. صبَّت لي فنجانًا كبيرًا من القهوة بالحليب وجلست أمامي، بينما كنتُ ألتهم تلك المأدبة بشراهة. لم تمسَّ شيئًا، بل كانت تنظر إليَّ كأنَّها انتشلت مُتسوِّلًا جائعًا من الطريق، بمزيجٍ من الفضول والشفقة والريبة.

- لقد رأيتُك من قبلُ في هذه الأنحاء. - قالت دون أن تحيدَ عينيها عنّي - أنت وصديقك النحيل الفَزِعُ دومًا. غالبًا ما تمرّان بالشارع الخلفيّ حين تنصرفان من المدرسة الداخليَّة. وأحيانًا

تتسكَّعُ بمفردك، وتدمدم سارحًا. أراهن أنَّكما تقضيان أوقاتًا ممتعة في ذلك السجن...

كدتُ أردُّ عليها بذكاء ولكن، تفشَّى ظلٌّ عملاقٌ على الطاولة كبقعة حبر. رفعت مُضيفتي أنظارَها وابتسمت، بينما تسمَّرتُ في مكاني، وفمي مليءٌ بالمعجَّنات، وقلبي ينبض كالصناجة.

- لدينا ضيف. - أعلنتْ بنبرةٍ مَرِحة - بابا، هذا أوسكار، لصُّ ساعاتٍ مُبتَدِئ. أوسكار، هذا خيرمان، والدي.

ابتلعتُ ما في فمي دفعةً واحدة، والتفتُّ ببطء. رجلٌ طويل القامة، يقف شامخًا أمامي. يرتدي بدلةً من وبر الألباكا، وجيليه وربطة عنق. وشعرُهُ الأبيضُ الكثيفُ مُسرَّحٌ بعناية إلى الخلف ينهمر على كتفيه. وله شاربٌ أبيض يزهو على وجهه المنحوت، وعينان داكنتان وحزينتان. إلّا أنَّ أكثرَ ما يُميِّزُهُ يداه. يدان بيضاوان كأيدي الملائكة، أصابعهما طويلة ورفيعة. خيرمان.

- لستُ بلصٍّ يا سيّدي... - بيَّنتُ غاضبًا - دعني أشرح لك ما حدث. ما كنتُ لأغامرَ بالدخول إلى داركم لو لم تبدُ لي مهجورة. وحين دخلتُ لا أعلم ما الذي جرى لي، سمعتُ موسيقى، أقصد... باختصار، ما حدث هو أنّي دخلتُ ورأيتُ الساعة. لم تكن نيَّتي أن أسرقَها، أُقسِمُ لك، لكنّي ذُعِرتُ وهربتُ، وحين انتبهتُ أنَّها في يدي كان قد فات الأوان. لا أدري إن كنتُ واضحًا...

كانت الفتاةُ تتبسَّمُ بمكر. حطَّت عينا خيرمان، الداكنتان والمنيعتان، على عينيَّ. فتَّشتُ في جيبي وأريتُهُ الساعة، مُترقِّبًا أن

يبدأ بين لحظةٍ وأخرى بالصراخ والتهديد بالاتِّصال بالشرطة والحرس المدنيّ ومحكمة القاصرين.

- أُصدِّقُ حضرتك. - قال بلطف، وأخذ الساعةَ وجلس إلى الطاولة معنا.

كان صوتُهُ عذبًا، أعلى من الهمس بقليل. وضعت له ابنتُهُ طبقًا بالمعجَّنات وفنجانَ قهوة بالحليب كبيرًا كفنجاني. وقبَّلتْهُ على جبينه فعانقها. نظرتُ إليهما في انعكاس الضوء المتسرِّب من النوافذ الكبرى. تبيَّنَ لي وجهُهُ رقيقًا، فريسةً لمرضٍ مّا، وكنتُ قد تخيَّلتُهُ وجهَ غول. كان طويلًا ونحيلًا بشكلٍ لا يُصدَّق. ابتسم لي باحترامٍ وهو يرفع الفنجانَ إلى شفتيه، ولاحظتُ وجودَ تيَّارٍ من المودَّةِ بين الوالد وابنته يتخطَّى حدودَ الكلمات والإيماءات. رباطٌ مُؤلَّفٌ من النظرات الصامتة التي تُوحِّدهما بظلال تلك الدار، الواقعة في نهاية طريقٍ منسيّ، حيث يعتني أحدهما بالآخر، بمعزلٍ عن العالَم.

*

أنهى خيرمان فطورَه، وشكرني من كلّ قلبه لأنّي تعنَّيتُ وأعدتُ له الساعة. لطفٌ فائض، أشعرني بالذنب مرَّتين.

- حسنًا يا أوسكار. - قال بصوتٍ مُتعَب - تشرَّفتُ بمعرفة حضرتك. آمل أن نلتقي ثانيةً كلَّما أحببتَ حضرتك المجيء لزيارتنا.

لم أفهم لماذا كان يُصرُّ على مخاطبتي بصيغة الاحترام. في هذا الرجل ما يوحي بعهدٍ ماضٍ، بأزمنةٍ سالفةٍ كان فيها شعرُهُ

لامعًا، وتلك الدارُ قصرًا منيفًا يتوسَّطُ الطريق ما بين سارّيا والسماء. صافحني وانصرف ليدخلَ في تلك المتاهة المبهمة. رأيتُهُ يبتعد وهو يعرج قليلًا على امتداد الممرّ. وابنتُهُ تراقبه وتُبطِنُ حزنًا في عينيها.

- خيرمان ليس في حالةٍ صحّيَّةٍ جيِّدة. - غمغمت - يُرهَقُ بسهولة.

ثمَّ تخلَّصَ وجهُها من ذلك التعبير المكتئب فورًا.

- هل ترغب في شيءٍ آخر؟

- تأخَّرَ الوقت. - قلت وأنا أُصارِعُ نزعتي لإيجاد عُذرٍ يُبقيني مزيدًا من الوقت معها. - من الأفضل أن أغادر.

تقبَّلَت قراري ورافقتني إلى الحديقة. فرَّقَ ضوءُ الصباح الضبابَ. وصبغ مطلعُ الخريف أوراقَ الشجر بلون النحاس. مشينا نحو البوَّابة؛ كان كافكا يخرخر تحت الشمس. توقَّفت الفتاةُ قبل قضبان الحديد وأفسحت لي الطريق. تبادلنا نظراتٍ صامتة. مدَّت يدها إليَّ فصافحتُها. وأحسستُ بنبضها من تحت جلدها الناعم.

- شكرًا على كلّ شيء. - قلت - واعذريني على...

- لا يهمّ.

رفعتُ كتفيَّ.

- حسنًا...

مشيتُ، وأنا أشعر أنَّ سحرَ تلك الدار ينفصل عنّي كلَّما تقدَّمتُ خطوة. صدح صوتُها فجأةً خلف ظهري.

- أوسكار!

التفتُّ. ما زالت هناك، خلف البوَّابة. وكافكا مستلقٍ عند قدميها.

- لماذا دخلتَ دارنا أوَّل من أمس؟

نظرتُ حولي، كأنَّي آمل العثورَ على الجواب مكتوبًا على الأرض.

- لا أدري. - أقررتُ في النهاية - الغموض، على ما أظنّ...

ابتسمت الفتاةُ ابتسامتها الملغزة.

- هل تحبُّ قصصَ الغموض؟

أومأتُ مؤكِّدًا. لو سألتني إن كنتُ أحبُّ الزرنيخ لأبديتُ جوابًا مماثلًا.

- هل أنت مشغولٌ غدًا؟

هززتُ رأسي نافيًا. وحتّى لو كنتُ مشغولًا، فلا أسهل من اختلاق عذر. أنا لصٌّ فاشل، هذا صحيح ولكنّي أعترف أنّي فنَّانٌ في الكذب.

- سأنتظرك هنا عند التاسعة إذًا. - قالت، وغابت بين ظلال الحديقة.

- مهلًا!

أوقفتْها صرختي.

- لم تخبريني باسمكِ...

- مارينا... إلى الغد!

حيَّيتُها بيدي، لكنَّها كانت قد اختفت. انتظرتُ بلا جدوى

أن تُعاوِدَ ظهورَها. استقرَّت الشمسُ في كبد السماء: لا بدَّ أنَّها الثانية عشرة ظهرًا. توجَّهتُ نحو مدرستي حين أدركتُ أنَّ مارينا لن تعود ثانيةً. كانت بوَّاباتُ الحيّ القديمةُ تبدو أنَّها تبتسم لي. كنتُ أسمع صدى خطواتي على البِلاط، لكنّي كدتُ أجزم أنَّني كنتُ أسير شبرًا فوق الأرض.

٤

لا أعتقد أنّي كنتُ دقيقًا في مواعيدي قبل تلك المرَّة. المدينةُ ما تزال في ثياب نومها حينما قطعتُ ساحةَ سارّيا. نهض سربٌ من الحمام عند مروري، جرَّاء قرع الأجراس إيذانًا بقدَّاس التاسعة. وكانت الشمسُ المشرقةُ تُحيي آثارَ مطرٍ ليليٍّ ناعم. خرج كافكا ليستقبلني من بداية الشارع المؤدّي إلى الدار. وهنالك مجموعة عصافير تتَّخذ مسافة أمانٍ من على قمَّة سور. والقطُّ يُطيلُ النظرَ إليها بحياديَّةٍ مدروسةٍ واحترافيَّة.

- صباح الخير يا كافكا. هل ذبحنا نفسًا بريئةً هذا الصباح؟

أجابني القطُّ بخرخرةٍ طفيفة، واصطحبني عبر الحديقة برزانةٍ تليق بكبير الخدم. كانت مارينا تنتظرني جالسةً على حافّة النافورة، بثوبٍ عاجيّ اللون يكشف عن كتفيها. وفي يدها دفترٌ مُجلَّدٌ تكتب عليه بقلم حبرٍ سائل. كان وجهُها يشي بتركيزٍ فائق، إذ لم تنتبه لوجودي. ذهنُها هائمٌ في عالَمٍ آخر، فانتهزتُ الفرصةَ لأتمعَّنَ فيها بانبهارٍ قدْرَ ما سمح لي الوقت. وجزمتُ أنَّ ليوناردو دافنشي بنفسه رسم لها عظامَ الترقوة، لا تفسيرَ يرقى إلى هذا.

قطع كافكا الغيورُ حالةَ السحر بموائه. توقَّفَ القلمُ بغتةً، وتقاطعت عينا مارينا بعينيَّ. فأغلقَتِ الدفترَ بسرعة.

- مستعدّ؟

*

اقتادتني مارينا في طرقات سارّيا نحو غايةٍ مجهولة، ولم تمدّني بدلالةٍ أخرى عن نيَّاتها سوى ابتسامةٍ غامضة.

- إلى أين نذهب؟ - سألتُها بعد مرور دقائق.

- اصبر. سترى.

تبعتُها بانصياع، رغم ما ساورني من شكوكٍ بأنّي عرضةُ مقلبٍ لم أفهمه حتّى اللحظة. نزلنا إلى ممشى بونانوبا، ومنه انعطفنا إلى سان خرباسيو، مررنا أمام الثقب الأسود لمقهى فيكتور. كان هناك نفرٌ من *المتأنِّقين*، يَحتَمون بنظّاراتٍ شمسيَّةٍ لا غنى عنها، ويحملون قناني البيرة ويُدفِّئون سُرُجَ درَّاجاتهم الناريَّة بخمول. كثيرٌ منهم، عند مرورنا، أخفضوا نظّارات الراي بان لإجراء مسحٍ كاملٍ على جسد مارينا. «ابتلَعِوا الرصاص» شتمتُ في سرّي.

وعند شارع الدكتور رو، انعطفت مارينا يمينًا. نزلنا مسافةَ مُربَّعين سكنيَّين، حتّى وصلنا إلى البناء رقم ١١٢، ثمَّ دلفنا منه إلى دربٍ ترابيٍّ ضيِّق. وما زالت الابتسامةُ الملغزةُ ثابتةً على شفتيها.

- أهو هنا؟ - سألتُ ينهشني الفضول.

بدا أنَّ ذلك الدربَ لا يُفضي إلى أيّ جهة. واكتفت مارينا

بالسير فيه. اقتادتني عبر طريقٍ صغير يصعد نحو رواقٍ مُطوَّقٍ بأشجار السرو. فانكشفت وراءه حديقةٌ مسحورةٌ تكتظُّ بالشواهد والصلبان والأضرحة المكسوَّة بالطحالب والراقدة بين ظلالٍ زرقاء: مقبرة سارّيا القديمة.

*

مقبرةُ سارّيا هي أشدُّ الأماكن خفاءً في برشلونة. لن تجدها إذا بحثتَ عنها في الخريطة. وإن سألتَ أحدَ سكَّان الحيّ أو سائقَ أجرة عن كيفيَّة الوصول إليها، فمن الوارد أنَّك لن تحصل منه على إجابة، مع أنَّ الجميعَ سمع عنها. وإن عقدتَ العزمَ أن تجدَها بمفردك، فعلى الأرجح أنَّك ستضلُّ السبيل. قلَّةٌ ممّن اطَّلعوا على السرّ يظنُّ في الحقيقة أنَّ هذه المقبرةَ القديمةَ جزيرةٌ من الماضي، تظهر وتختفي على هواها.

إلى مكانٍ كهذا ساقتني مارينا في يوم أحدٍ من شهر سبتمبر، لتكشفَ لي عن سرٍّ كان يفتنني بقدر ما افتتنت به صاحبتُهُ تقريبًا. وصلنا بحسب توجيهاتها إلى نقطةٍ منعزلةٍ في المنطقة العليا من جناح المقبرة الشماليّ. جلسنا في صمتٍ نراقب القبورَ والأزهارَ الذابلة. لم تقل مارينا كلمةً واحدة، في حين بلغ صبري مداه بعد مرور دقائق. فالغموضُ الوحيدُ في كلّ هذا بالنسبة إليَّ هو سببُ وجودنا هناك.

- مكانٌ يفوح بالموت بعضَ الشيء. - قلتُ بسخريةٍ مُتعمَّدة.

- الصبرُ أبُ العلوم. - ردَّت مارينا.

- وعرَّابُ الجهل. - أجبتُ - لا يوجد شيءٌ هنا.

قدحتني مارينا بنظرةٍ لم أستطع تفسيرَها.

- أنت تُخطِئ. هنا توجد ذكرياتُ مئات الأشخاص، حياتُهم، مشاعرُهم، أوهامُهم، غيابُهم، أحلامُهم التي عجزوا عن تحقيقها، خيباتُهم، خياناتُهم وحبُّهم الذي لم يُستجَب فحطَّمَ قلوبَهم... هنا يوجد هذا كلُّه، حبيسًا إلى الأبد.

رمقتُها بمزيجٍ من الفضول والمهابة، مع أنّي لم أفهم مغزى كلامها جيِّدًا. يبدو أنَّه مهمٌّ جدًّا بالنسبة إليها.

- لن نفهمَ شيئًا من الحياة ما لم نستوعب الموت. - أضافت مارينا.

فاتني المعنى الحقيقيُّ لكلماتها مرَّةً أخرى.

- في الحقيقة، أنا لا أُفكِّرُ فيه كثيرًا. - قلت - في الموت، أقصد. ليس بجدّيَّة، فعلى الأقلّ لا...

هزَّت مارينا رأسها، كطبيبٍ يُحدِّدُ أعراضَ مرضٍ قاتل.

- في الحقيقة أنت واحدٌ من أولئك المُغفَّلين... - علَّقَت بنبرةٍ ملغزة.

- المُغفَّلون؟

كنتُ تائهًا حينئذ. مئة بالمئة.

سرحت مارينا بنظرتها، واتَّخذَ وجهُها تعبيرًا جادًّا جعلها تبدو امرأةً عجوزًا. كنتُ مبهورًا بها.

- أتصوَّرُ أنَّك لا تعرف الأسطورة... - قالت.

- أيُّ أسطورة؟

- توقَّعتُ ذلك. - جادت بالحديث - يُقال إنَّ للموت مبعوثين يجوبون الطرقات بحثًا عن أناسٍ جُهَلاء، ورؤوسٍ فارغةٍ لا تُفكِّرُ فيه.

أوغلت نظراتِها في عينيَّ حينذاك.

- وحين يصادف أحدُ أولئك التعساء مبعوثَ الموت - تابعت مارينا - يسوقه دون عِلمه لإيقاعه في فخّ. بابُ الجحيم. يُغطّي هؤلاء المبعوثون وجوهَهم لإخفاء حقيقة أنْ ليس لديهم عيون، إنّما فتحتان مُجوَّفتان سوداوان وتزدحمان بالدود. وحين تنعدم وسائلُ الفرار، يكشف المبعوثُ عن وجهه، لتعي الضحيَّةُ حينها هولَ الرعب الذي ينتظرها...

حامت كلماتُها في أجواء مُحمَّلةٍ بالأصداء، بينما كانت معدتي تنقبض.

افترَّت من مارينا ابتسامةٌ ماكرة عندئذ. ابتسامةُ هرّ.

- أنتِ تمازحينني. - قلتُ في النهاية.

- طبعًا.

أمضينا خمس أو عشر دقائق في سكوت، وربّما أكثر. أبديَّةٌ كاملة. لامست النسماتُ الخفيفةُ أشجارَ السرو. ورفرفت حمامتان بيضاوان بين القبور. وتسلَّقت نملةٌ على بنطلوني. لم يقع ما هو أهمُّ من هذا. أحسستُ أنَّ إحدى ساقيَّ تخدَّرت، وكان دماغي سيحذو حذوها. تأهَّبتُ للاعتراض فإذا مارينا تأمرني بيدها أن أخرسَ قبل أن أفتح فمي بكلمة. ثمَّ أشارت إلى رواق المقبرة.

دخل أحدهم توًّا. امرأةٌ مُتدثِّرةٌ برداءٍ مخمليٍّ أسود، وجهُها مُغطّىً بحجاب. ويداها، المضمومتان على صدرها، مغلولتان بقفّازٍ من لون الرداء نفسه. كانت أهدابُهُ تمسُّ الأرض، ولا تتيح رؤيةَ القدمين. بدا من موقعنا أنَّ ذلك الطيفَ الذي لا وجهَ له يتقدَّمُ مُعلَّقًا في الهواء. اقشعرَّ بدني على حين غرَّة.

- مَن؟... - همستُ.

- شششش. - أخرستني مارينا.

اختبأنا خلف أعمدة الدكَّة، وتجسَّسنا على السيِّدة ذات السواد. كانت تتحرَّكُ بين القبور كالشبح. تُمسِكُ وردةً حمراء بين أصابع القفّاز. وبدت الزهرةُ كجرحٍ نازفٍ منحوتٍ بسكّين. دنت المرأةُ من شاهدةٍ تحت نقطة مراقبتنا وتوقَّفت، موليةً إلينا ظهرها. فلاحظتُ للمرَّة الأولى أنَّ ذلك القبرَ كان مجهولَ الاسم، خلافًا عن البقيَّة. ولا يُميِّزُهُ سوى نقشةٍ في الرخام: رمزٌ يُمثِّلُ حشرةً ربّما، فراشةٌ سوداء مبسوطة الجناحين.

ظلَّت السيِّدةُ ذات السواد عند القبر خمس دقائق، صامتة. انحنت في النهاية، ووضعت الوردةَ على الشاهدة وانصرفت ببطء، مثلما جاءت. كأنَّها شبح.

رمتني مارينا بنظرةٍ عصبيَّة واقتربت لتهمس بشيءٍ مّا في أذني. أحسستُ أنَّ شفتيها تلامسان جلدي، وأنَّ دودةَ الأرض بأرجلها الناريَّة الألف ترقص السامبا على رقبتي.

- اكتشفتُها بمحض الصدفة ثلاثة أشهر مضت، حين رافقتُ خيرمان ليضعَ الورودَ على قبر خالته ريمي... تجيء إلى هنا في آخر يوم أحدٍ من كلّ شهر، في العاشرة صباحًا، وتضع زهرةً

حمراء، الزهرةَ نفسها، على ذلك القبر. - شرحت لي مارينا - تجيء بالرداء نفسه، والقفّاز نفسه، والحجاب نفسه. وحيدةٌ دائمًا، لا تكشف عن وجهها أبدًا ولا تتحدَّثُ إلى أحد.

- مَن المدفون في ذاك القبر؟

كان الرمزُ الغريبُ المنقوشُ على الرخام يُثير فضولي.

- لا أدري. سجلُّ المقبرة لا يتضمَّن أيَّ اسم...

- ومَن تكون هذ المرأة؟

تأهَّبَت مارينا للإجابة فإذا هي تُبصِرُ طيفَ المرأة يختفي بعد رواق المقبرة. أمسكت يدي وأنهضتني بعجالة.

- أسرِعْ هيّا، وإلّا فقدنا أثرها.

- هل سنلاحقها؟ - سألتُ.

- ألم ترغب ببعض التشويق؟ - قالت بنبرةٍ تتوسَّطُ الشفقة والاستياء، كأنَّها تتعامل مع طفل.

*

حين وصلنا إلى شارع الدكتور رو، كانت السيّدةُ تنعطف نحو بونانوبا. وعاد المطرُ مع أنَّ الشمس رفضت التواري. لاحقنا المرأةَ تحت ستارة الدموع الذهبيَّة تلك. قطعنا ممشى بونانوبا وبدأنا بالصعود نحو سفوح التلَّة، حيث الدُّور والقصور التي ازدهرت في الماضي. ولجت السيّدةُ في عقدة الطرقات المُقفِرة، والمفروشة بسجَّادةٍ من ورقاتٍ يابسة، تلتمع كحراشف متساقطة من ثعبانٍ كبير. وعندما وصلت إلى مفترق طرق، توقَّفَت مثل تمثالٍ حيّ.

- رأتنا... - همستُ وأنا أختبئ مع مارينا خلف جذع شجرة ضخم مكتظٍّ بالنقوش.

فكَّرتُ لوهلةٍ أنَّها ستلتفت وتكتشف أمرنا. ولكن لا. انعطفت نحو الشِمال واختفت. تبادلنا نظرةً أنا ومارينا. واستأنفنا الملاحقة. ساقنا أثرُها إلى زقاقٍ مسدود، مُغلَقٍ من الجانب المكشوف على سكَّة سارّيا، التي تصعد نحو بابيبذريرا وسانت كوغات. توقَّفنا: لا أثر للسيِّدة ذات السواد، مع أنَّنا رأيناها تنعطف نحو هذه الجهة تمامًا. تبدَّت أبراجُ مدرستي الداخليَّة من فوق رؤوس الأشجار وأسطح المنازل.

- لعلَّها دخلت بيتها. - تكهَّنتُ - ربّما تسكن في هذه الأنحاء...

- كلا. هذه البيوت مهجورة. لا أحد يسكن هنا.

أشارت مارينا إلى الواجهات المختبئة خلف الأسوار والبوَّابات الحديديَّة. دكَّانان قديمان ومهجوران، ودارٌ التهمتها النيرانُ منذ سنوات: هذا كلُّ ما بقي قائمًا. اختفت المرأةُ تحت أنفنا.

توغَّلنا في الزقاق. انعكست قطعةٌ من السماء على سطح بركة ماء عند أقدامنا. وكانت قطراتُ المطر تُكدِّرُ صورتَنا. وفي آخر الزقاق بابٌ خشبيٌّ يتمايل بفعل الريح. نظرت إليَّ مارينا بصمت. فاقتربنا بحذر، ومددتُ عنقي لألقي نظرة. كان البابُ، المُركَّبُ في سورٍ من طوبٍ أحمر، يُؤدّي إلى فِناء. وكان الفِناءُ في الماضي حديقة، وقد استحالت آنذاك مرتعًا للأعشاب الضارَّة. وما وراء الحشائش المتشابكة، تراءت واجهةُ مبنىً غريبٍ ومكسوٍّ

باللبلاب. استغرقتُ بعض الوقت حتّى تبيَّنَ لي أنَّها دفيئةٌ زجاجيَّة مدعومةٌ بهيكلٍ من فولاذ. وكان حفيفُ الحشائش مُتوعِّدًا، مثل سربِ نحلٍ مُتربِّص.

- من بعدك. - دعتني مارينا.

تسلَّحتُ بالشجاعة وتوغَّلتُ بين الحشائش، تتبعني مارينا التي أمسكت بيدي دون سابق إنذار. شعرتُ أنَّ خطواتي تدوس على طبقة فتات. فجالت في ذهني صورةٌ لتشابك ثعابين سوداء بعيونٍ حمراء. قطعنا ذلك الدغلَ المُكوَّنَ من أغصانٍ رفيعةٍ تخدش الجلدَ إلى أن طلعنا على فسحةٍ أمام الدفيئة. تركت مارينا يدي لتُمعِنَ النظرَ في ذلك المبنى المشؤوم. كان اللبلابُ يُغلِّفُ هيكلَهُ كشبكة عنكبوت. والدفيئة تبدو مدفونةً في قعر مستنقع.

- أخشى أنَّها تمكَّنت من الهرب. - قلت - لم تطأ قدمٌ هنا منذ سنوات.

وافقتني مارينا على مضض. ألقت نظرةً أخيرةً على الدفيئة بإحباط. «الهزائمُ الصامتةُ طعمُها ألذّ» قلتُ في نفسي.

- هيّا لنغادر هذا المكان. - أشرتُ عليها، ومددتُ يدي نحوها بأملٍ دفينٍ بأن تمسكَها ثانيةً لنجتاز غابة الحشائش.

تجاهلتْها مارينا، وابتعدت عابسةً لتلفَّ حول الدفيئة. زفرتُ وتبعتُها مُتردِّدًا. هذه الفتاةُ أشدُّ عُندًا من بغل.

- مارينا. - قلت - هنا لا...

وجدتُها خلف المبنى، قبالة ما يبدو أنَّه المدخل. نظرت إليَّ ورفعت يدها نحو الزجاج لتمسحَ قشرةَ الطحالب التي كانت

تحجب نقشًا ما. فعرفتُ فيه الفراشةَ السوداءَ المنحوتةَ على القبر المجهول في المقبرة. حطَّت مارينا يدها على النقش، فانفتح الباب برفق. اجتاحتنا هبَّةُ ريحٍ نتنة ومُقزِّزة. رائحةٌ كريهةٌ تنبعث من المستنقعات والآبار المُلوَّثة. تجاهلتُ ما تبقَّى لي من حسٍّ سليمٍ على قلَّته، وولجتُ في الظلمات.

٥

فاحت رائحةٌ مخيفةٌ من عطرٍ وخشبٍ عتيقٍ بين الظلال. ونضحتِ الأرضُ الترابيَّةُ المحروثةُ بالرطوبة. تراقصت خيوطُ البخار نحو الطاق الزجاجيّ، فتكاثفتْ ونقَّطت بقطراتٍ غير مرئيَّةٍ في العتمة. ثمَّة صوتٌ غريبٌ ينبض خارج نطاقي البصريّ، غمغمةٌ معدنيَّةٌ كالتي تصدر عن دفَّة نافذةٍ إذا هزَّتها الريح.

كانت مارينا تتقدَّمُ بتؤدة. الحرارةُ خانقة، رطبة. كنتُ أشعر بدبق ملابسي على جلدي، وبغشاءٍ من العرق يُغطّي جبيني. التفتُّ نحو مارينا فرأيتُ تحت الظلمة أنَّها تتعرَّضُ للشيء ذاته. وما زالت تلك الغمغمةُ غيرُ الطبيعيَّة تهيج في الظلّ. كأنَّها آتيةٌ من كلّ مكان.

- ما هذا؟ - همست مارينا، بغصَّة خوفٍ تشوب صوتَها.

رفعتُ كتفيَّ مُعرِبًا عن عدم يقيني. توغَّلنا في الدفيئة، ثمَّ توقَّفنا حيث تتلاقى أشعَّةُ الضوء المُتغلغِل من السطح. كادت مارينا تقول شيئًا فإذا القرقعةُ المخيفةُ تتناهى إلى مسمعنا ثانيةً. صارت أقرب. على بُعد أقلّ من مترين عنّا. فوق رأسينا مباشرةً. تبادلنا نظرةً صامتة، ورفعنا أعينَنا ببطءٍ نحو السقف، الغارق في

الظلمات. أحسستُ بيد مارينا تشدُّ على يدي بقوَّة. كانت ترتجف. كنّا نرتجف.

كنّا مُحاصَرين. عدَّةُ أشكالٍ مُدبَّبةٍ تتمايل في الفراغ. أحصيتُ ما يربو إلى اثني عشر، ربّما أكثر. سيقان، أذرع، أيدٍ وأعين تومض في العتمة. قطيعٌ من أجسامٍ هامدةٍ يربض فوقنا، عرائسُ جهنَّميَّة. كلَّما تلامست صدَرَ ذلك الصوتُ المعدنيّ. تراجعنا بضع خطوات، وقبل أن ننتبه إلى ما كان يحدث، علق كاحلُ مارينا بعتلةٍ موصولةٍ بمنظومة بَكَرات. وما إن انضغطت العتلةُ حتّى تهاوى ذلك الجيشُ من الأشكال المُجمَّدة خلال عُشرٍ من الثانية. رميتُ نفسي على مارينا لأحميها وسقطنا على الأرض. سمعتُ صدى ارتطامٍ عظيم، ودويَّ الهيكل الزجاجيّ. فخشيتُ أن تتحطَّمَ إحدى تلكَ الصفائح الزجاجيَّة فتنهالَ علينا بوابلٍ من سكاكين شفَّافة. وفي تلك اللحظة أحسستُ بملمسٍ باردٍ على رقبتي. أصابع.

فتحتُ عينيَّ. رأيتُ وجهًا يبتسم لي. عينان لامعتان وصفراوان تتلألآن بلا حياة. عينان زجاجيَّتان في وجهٍ منحوتٍ من خشبٍ مطليّ. كبتت مارينا صرخةً حينذاك.

- إنَّها دُمى. - قلتُ، بلا أنفاس.

نهضنا لنعاينَ الطبيعةَ الحقيقيَّةَ لتلك الكينونات. عرائس. أشكالٌ خشبيَّة، معدنيَّة، خزفيَّة. كانت مُعلَّقةً بما يشبه مَعدَّات الإخراج المسرحيّ عبر آلاف الحبال. وحين حرَّكَت مارينا العتلةَ عن غير قصد، تفعَّلَت منظومةُ البكرات التي ترفعها. وهكذا كانت تلك الأجسامُ، المُعلَّقةُ على علوّ ثلاثة أذرعٍ عن الأرض، تتأرجح برقصةٍ مُريعةٍ تليق بأجسادٍ مشنوقة.

- ما هذا بحقّ الجحيم؟! - هتفت مارينا.

عاينتُ الدمى. أدركتُ من أزيائها أشكالَ بعضها: ساحر، وشرطيّ، وراقصة، وسيِّدةٌ راقيةٌ بفستانٍ عنَّابيّ، ورجلٌ مفتول العضلات يظهر في الاستعراضات... كانوا بأحجام حقيقيَّةٍ جميعًا، ويرتدون ثيابًا أنيقةً تُلائم الحفلات التنكُّريَّة غير أنَّ الزمنَ أحالها إلى أسمال. ولكن، هنالك ما يجمع بينها ويُضفي عليها طابعًا غريبًا يكشف عن أصلها المشترك.

- إنَّها غير مُكتَمِلة. - لاحظتُ.

فهمت مارينا ما أُلمِّحُ إليه في اللحظة نفسها. كانت العرائسُ كلُّها ينقصها شيءٌ مّا. الشرطيُّ بلا ذراعين، وللراقصة جوفان داكنان عوضًا عن العينين، والساحرُ بلا فمٍ أو يدين... أمعنّا النظرَ في الأجسام التي تتأرجح في الضوء الطِّفيّ. اقتربت مارينا من الراقصة وعاينتْها باهتمام. لفتت انتباهي إلى علامةٍ صغيرةٍ على جبينها، تمامًا عند منبت شعرها الشبيه بشعر دمية. الفراشةُ السوداءُ مرَّةً أخرى. مدَّت مارينا يدها نحو تلك العلامة. لامست أصابعُها الفراشةَ وسرعان ما سحبتْها. لاحظتُ حركتَها التي تنمُّ عن اشمئزاز.

- الشَّعر... حقيقيّ! - قالت.

- مستحيل.

تفحَّصنا تلك الدمى المخيفة واحدةً واحدة، واكتشفنا العلامةَ ذاتها على الجميع. ضغطتُ على العتلة مجدَّدًا، فرفعت منظومةُ البكراتِ تلك الأجسامَ نحو السقف ثانيةً. رأيتُها تصعد هامدةً، فتخيَّلتُ أنَّها أرواحٌ آليَّةٌ تعود إلى خالقها.

- يبدو أنَّ هناك شيئًا مّا. - قالت مارينا من خلفي.

التفتُّ ورأيتُها تشير إلى إحدى زوايا الدفيئة حيث يتراءى مكتبٌ قديم. كان سطحُهُ الخشبيُّ مكسوًّا بطبقةٍ رقيقةٍ من الغبار. يتسكَّعُ فوقها عنكبوتٌ مُخلِّفًا أثرًا دقيقًا. انحنيتُ ونفختُ على الغبار. فارتفعت غيمةٌ رماديَّةٌ في الهواء. ووجدتُ مُجلَّدًا مفتوحًا من منتصفه. ظهرت صورةٌ بلونٍ بنّيٍّ داكن، ومُثبَّتةٌ على صفحة، وكُتِبَ أسفلها بخطٍّ مُنمَّق: «آرل، ١٩٠٣». الصورة تُبرِزُ توأمًا سياميًّا مُتَّحِدَ الصدر: شقيقتان بثيابٍ أنيقة، وترتسم على وجهيهما أتعسُ ابتسامةٍ في الدنيا. مكتبة سُر مَن قرأ

قلَّبت مارينا الصفحات. كان المُجلَّدُ في الواقع ألبومًا عاديًّا جدًّا لصورٍ قديمة. غير أنَّ الصورَ لا تحتوي على ما هو عاديٌّ إطلاقًا وصورةُ التوأم السياميّ ليست سوى البداية. كانت أصابعُ مارينا تُقلِّبُ الصفحات لمعاينة تلك الصور، بمزيجٍ من الانبهار والاشمئزاز. ألقيتُ نظرةً أنا أيضًا، حتّى راودني خدرٌ غريبٌ على كامل عمودي الفقريّ.

- ظواهر من الطبيعة... - همست مارينا - كائناتٌ مُشوَّهة، من تلك التي كانت تُستَخدَمُ في الماضي لعروض السيرك...

صُدِمتُ بضراوة تلك الصور الصاعقة كالسياط. الجانبُ المظلمُ من الطبيعة، يكشف عن وجهه القبيح. أرواحٌ بريئةٌ محبوسةٌ في أجسادٍ مُشوَّهةٍ بشكلٍ فظيع. تصفَّحنا ذلك الألبوم بصمتٍ امتدَّ دقائق طويلة. وكانت الصورُ في كلّ مرَّة - يؤسفني ما سأقول - تخرج علينا بمخلوقاتٍ كابوسيَّة. لكنَّ الخللَ الخُلُقيَّ

لم يحجب نظرات الذعر والوحشة والأسى المستعرة على تلك الوجوه.

- يا إلهي... - همست مارينا.

سُجِّلَ تحت كلّ صورةٍ مكانُ وزمانُ التقاطها: بوينوس آيريس، ١٨٩٣. بومباي، ١٩١١. تورينو، ١٩٣٠. براغ، ١٩٣٣... استصعبتُ تصوُّرَ مَن ولماذا أعدَّ مجموعةً رهيبةً كهذه. قائمة جهنَّميَّة. أزاحت مارينا أنظارَها عن الألبوم في النهاية وابتعدت تحت العتمة. حاولتُ أن أتبعها، لكنّي لم أستطع أن أنفصلَ عن الرعب والألم المعشّش في تلك الصور. ولو عشتُ ألف سنة، ما كنتُ لأنسى نظرةَ كلٍّ من تلك المخلوقات. أغلقتُ المُجلَّدَ والتفتُّ نحو مارينا. سمعتُها تتنهَّدُ في الظلام، وشعرتُ أنّي بلا معنى، عاجزٌ عن التصرُّف أو التفوُّه بأيّ شيءٍ مفيد. لا بدَّ أنَّ في تلك الصور ما أقلقها بعمق.

- هل أنتِ بخير؟ - سألتُها.

أومأت مارينا بصمت، بعينين مغمضتين تقريبًا. وفجأةً دوَّى صوتٌ مّا في المكان. تحرَّيتُ ببصري داخل عباءة الظلال التي تحيط بنا. سمعتُ ذلك الصوتَ العصيَّ على التوصيف مرَّةً أخرى. كان صوتًا عدوانيًّا. شرّيرًا. وشممتُ حينئذٍ رائحةً نتنة، ثاقبة، مُثيرة للغثيان. تنبعث من الظلمات كأنَّها أنفاسُ حيوانٍ برّيّ. تيقَّنتُ أنَّنا لم نكن وحدنا. ثمّة أحدٌ مّا هناك. ويراقبنا. استقصت مارينا في سور العتمة وهي مُتجمِّدةٌ في مكانها. أمسكتُها من يدها واقتدتُها نحو المخرج.

٦

كان المطرُ الناعمُ في الخارج يُغطّي الطرقات برداءٍ فضّيّ. الساعةُ الواحدة. مشينا على درب العودة دون أن نفوهَ بكلمة. وكان والدُ مارينا في الدار ينتظرنا على الغداء.

- لا تُخبِر خيرمان بشيء، أرجوك. - توسَّلت إليَّ مارينا.

- اطمئنّي!

وفي الحقيقة ما كنتُ قادرًا على تفسير ما وقع. فكلَّما ابتعدنا، صارت ذكرى تلك الصور وتلك الدفيئة المشؤومة أكثر ضبابيَّةً. وحين وصلنا قرب ساحة سارّيا، انتبهتُ أنَّ مارينا كانت شاحبةً للغاية وتتنفَّسُ بصعوبة.

- هل أنتِ بخير؟ - سألتُها.

قالت نعم بتردُّد. جلسنا على أحد مقاعد الساحة. سحبت نفسًا طويلًا وعميقًا بعينين مغمضتين. وكان سربُ حمامٍ يجري عند أقدامنا. خشيتُ لوهلةٍ أن يُغمى عليها. إلّا أنَّها فتحت عينيها وابتسمت لي.

- اطمئن. مُجرَّدُ غثيان. لا بدَّ أنَّه بسبب تلك الرائحة.

- بالتأكيد. من الوارد أنَّها لحيوانٍ نافق. جرذٌ أو...

قيَّمَت مارينا فرضيَّتي. واستعادت وجنتاها لونَهما بعد قليل.

- يجب أن آكلَ شيئًا مّا. فلنستعجل. قد يسأم خيرمان من انتظارنا.

نهضنا ومشينا نحو بيتها. وكان كافكا بانتظارنا عند البوَّابة. نظر إليَّ باحتقار وركض ليتمسَّحَ بكاحل مارينا. وبينما كنتُ أتأمَّلُ في مزايا أن يكونَ المرءُ هرًّا، سمعتُ ذلك الصوتَ السماويَّ الصادرَ من غراموفون خيرمان للمرَّة الثانية. كانت الموسيقى تفيض بالحديقة كالمدّ البحريّ.

- ما هذه الموسيقى؟

- ليو ديليب. - أجابت مارينا.

- مَن؟

- ديليب. مُؤلِّفٌ موسيقيٌّ فرنسي. - أوضحت مارينا وقد أدركت جهلي - ماذا يُعلِّمونكم في المدرسة؟

رفعتُ كتفيَّ.

- هذا مقطعٌ من أحد أعماله الأوبراليَّة. لاكميه.

- ومَن صاحبة الصوت؟

- أمّي.

حدَّقتُ إليها مذهولًا.

- هل أمُّكِ مُغنيَّةٌ أوبرا؟

ردَّت إليَّ مارينا نظرتها الخارقة.

- كانت. - أجابت - لقد توفِّيت.

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان خيرمان ينتظرنا في الصالة الكبرى، وهي غرفةٌ بيضويَّةٌ كبيرة، تتدلَّى من سقفها ثريَّا على هيئة دموعٍ زجاجيَّة. وكان والدُ مارينا غالبًا ما يرتدي لباسًا يليق بالمناسبات، بزَّة رسميَّة، إضافةً إلى فروة شعره الفضّيّ المُسرَّح إلى الخلف بعنايةٍ فائقة. كأنّي في حضرة أحد النبلاء من أواخر القرن التاسع عشر. جلسنا إلى الطاولة، المُعدَّة بمناديل مُطرَّزة وأدوات طعامٍ من فضَّة.

- من دواعي السرور أن تكونَ معنا يا أوسكار. - قال خيرمان - لسنا محظوظين باستضافة شخصٍ لطيفٍ كحضرتك كلَّ يوم أحد.

كانت الصحونُ الخزفيَّةُ أثريَّةً بامتياز. ويبدو أنَّ لائحةَ الوجبات تتكوَّنُ من حساءٍ لذيذ النكهة، مُرفَقًا بالخبز. لا أكثر. وبينما كان خيرمان يُقدِّمُ لنا الطعام، أدركتُ أنَّ هذا الرقيَّ مردُّهُ حضوري. فعلى الرغم من فخامة الملاعق وتحفة الصحون وأناقة الهندام، لم يكن في تلك الدار نقودٌ تكفي لوجبة لحم. وفي الواقع، لم يكن هناك نقودٌ حتّى لدفع فواتير الكهرباء. فالدار كانت تُضاء بالشموع على الدوام. ولا بدَّ أنَّ خيرمان استقرأ أفكاري.

- لعلَّ حضرتك انتبهتَ إلى عدم وجود الكهرباء يا أوسكار. والحالُ أنَّنا لا نؤمن كثيرًا بالاختراعات العلميَّة الحديثة. فأيُّ عِلمٍ هذا الذي يحمل الإنسانَ إلى سطح القمر، ويعجز بالمقابل عن تأمين قطعة خبزٍ للبشر على الأرض؟

- قد لا تكمن المشكلةُ في العِلم، إنّما فيمَن يستخدمه.

تفكَّرَ خيرمان في تعليقي وأومأ بإجلال، لستُ أدري إن كانت لهذا صلةٌ باحترامه أم بقناعته.

- ألمح في كلام حضرتك ميولًا فلسفيَّةً يا أوسكار. هل قرأتَ شوبنهاور؟

رمقتني مارينا بنظرةٍ لتُشيرَ عليَّ بمسايرة أبيها.

- سطحيًّا. - ارتجلتُ.

ارتشفنا الحساءَ بصمت. وكان خيرمان يبتسم لي بمودَّةٍ بين الحين والآخر، وينظر إلى ابنته بحنان. حدَّثَني حدسي أنَّ مارينا ليس لديها أصدقاءُ كُثُر، وأنَّ أباها يرى وجودي في تلك الدار بعين الرضا، حتّى لو كنتُ غيرَ قادرٍ على التمييز بين شوبنهاور وماركة مُستَلزَمات التجبير.

- قل لي يا أوسكار، ما الذي يجري في العالَم هذه الأيَّام؟

صاغ سؤالَه بطريقةٍ جعلتني أظنُّ أنَّني سأُسبِّبُ له صدمةً كبرى إذا أعلنتُ عليه نهايةَ الحرب العالميَّة الثانية.

- ليس الكثير في الحقيقة. - أجبتُ رازحًا تحت نظرات مارينا المُتيقِّظة - الانتخابات وشيكة...

أيقظ النبأُ اهتمامَ خيرمان، فأوقف رقصةَ ملعقته وقدَّرَ المسألة.

- وهل حضرتك يمينيٌّ أم يساريٌّ يا أوسكار؟

- أوسكار لاقراطيّ يا أبي. - تدخَّلت مارينا.

كدتُ أختنق بقطعة الخبز. كنتُ أجهل معنى تلك الكلمة، لكنَّها بدت لي أنَّها تعني «أناركيّ على درَّاجة هوائيَّة». حدَّقَ إليَّ خيرمان بتمعُّنٍ وفضول.

- مثاليَّاتُ الشباب... - غمغم - أفهمك، أفهمك.. فحين كنتُ في عمر حضرتك قرأتُ باكونين. إنَّه مثل الحصبة، لا مفرَّ من الإصابة بها...

رميتُ مارينا بنظرةٍ شرسة، وكانت تلعق شفتيها كالقطّ. غمزتني وأزاحت أنظارها. نظر إليَّ خيرمان بفضول الوَدود، فبادلتُهُ بإيماءةٍ برأسي ورفعتُ الملعقةَ إلى فمي. فهكذا أتجنَّبُ الحديثَ وأحفظ ماء وجهي على الأقلّ. أكملنا غداءنا بهدوء. لم أستغرق وقتًا طويلًا لألاحظَ أنَّ خيرمان، على الطرف الآخر من الطاولة، كان يغفو. وحين فلتت الملعقةُ من بين أصابعه في النهاية، نهضت مارينا وأرخت ربطة عنقه المصنوعة من الحرير الفضّيّ. تنهَّدَ خيرمان. كانت إحدى يديه ترتعش قليلًا. أسندت مارينا أباها بذراعه وأعانته على النهوض. فأومأ خيرمان مُنكَسِرَ النفس، وابتسم لي خجلًا. بدا لي أنَّه شاخ خمسة عشر عامًا بلحظةٍ واحدة.

- أستميحك عذرًا يا أوسكار... - قال بصوتٍ خافت - علاماتُ الشيخوخة...

فنهضتُ كذلك، ونظرتُ إلى مارينا مُتطوِّعًا للمساعدة. لكنَّها رفضت، وطلبت منّي البقاءَ في الصالة. اتَّكأ الرجلُ على ذراع ابنته ورأيتُهما يغادران.

- سُرِرتُ بلقائك يا أوسكار. - همس خيرمان بصوته المُتعَب، وكان يمضي في الممرّ المظلم - عُدْ لزيارتنا، عُدْ لزيارتنا...

سمعتُ خطاهما تتبدَّد، وانتظرتُ عودةَ مارينا على ضوء

الشموع نصف ساعةٍ تقريبًا، وكنتُ أغرق أكثر في أجواء الدار. وحين تيقَّنتُ من أنَّها لن تعود، ساورني القلق. ففكَّرتُ في وجوب البحث عنها، لكنّي لم أجد الوضعَ مناسبًا لتفتيش الغرف من دون إذن. ارتأيتُ أن أترك لها رسالة، ولكن لم يكن لديَّ ما أكتب به. هبط المساء وكان من الأفضل أن أنصرف. قد أعود في اليوم التالي، بعد الدروس، لأتأكَّدَ من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام. فوجئتُ بنفسي أبحث عن أعذارٍ للعودة رغم أنّي لم أرَ مارينا منذ نصف ساعةٍ فقط. خرجتُ من المطبخ إلى خلف الدار، وقطعتُ الحديقة وبلغتُ البوَّابة. كانت السماءُ تنطفئ على المدينة، وتقطعها غيومٌ عابرة.

وفي طريق عودتي إلى المدرسة بخطواتٍ متباطئة، تسلسلت أحداثُ النهار في ذهني من جديد. وعند السلالم، على مقربةٍ من غرفتي التي في الطابق الرابع، أيقنتُ أنّي عشتُ أغربَ يوم في حياتي. ولكن لو استطعتُ شراءَ تذكرة لأعيشَهُ ثانيةً، ما تردَّدتُ.

٧

حلمتُ في الليل أنّي مسجونٌ في مشكالٍ عملاق. يُدوِّرُهُ كائنٌ شيطانيٌّ لم أستطع أن ألمحَ سوى عينه الضخمة من خلال العدسة. وكان العالَمُ يتفتَّتُ إلى متاهاتٍ من إيهاماتٍ بصريَّةٍ تطوف حولي. حشرات. فراشاتٌ سوداء. فصحوتُ جفلًا، وأنا أهجس بأنَّ سائلًا من القهوة الساخنة يجري في عروقي. رافقتني حالةُ التوتُّر تلك النهارَ كلَّه. مضت دروسُ يوم الاثنين كقطاراتٍ لا تتوقَّفُ عند محطَّتي. وقد انتبه ج. ف. إلى ذلك سريعًا.

- في العادة تسرح فوق الغيوم. - قال - أمّا اليوم فقد تخطَّيتَ الغلافَ الجوَّيّ. هل أنت بخير؟

طمأنتُهُ بإيماءةٍ ذاوية. نظرتُ إلى الساعة المُعلَّقة فوق السبُّورة: الثالثة والنصف. تفصلنا أقلُّ من ساعتين على انتهاء الدورس. أبديَّةٌ كاملة. وكان المطرُ في الخارج يخدش زجاجَ النوافذ.

*

وما إن دقَّ الجرسُ حتّى انسحبتُ بسرعةٍ فائقة، مُتخلِّفًا عن

موعدي مع ج. ف. الذي كان ينتظرني لنزهتنا المعتادة في العالَم الواقعيّ. اجتزتُ الممرَّاتِ الطويلةَ في المدرسة الداخليَّة ووصلتُ إلى المخرج. كانت حدائقُ المدخل ونوافيرُهُ شاحبةً تحت العاصفة. خرجتُ بلا مظلَّة، بلا معطف. والسماءُ من فوقي مثل شاهدة قبرٍ رصاصيَّة. وأضواءُ أعمدة الإنارة تشتعل كأعواد الثقاب.

هممتُ بالركض. ملصتُ من بِرَك المياه وتجنَّبتُ أقنيةَ الصرف الطافحة، ووصلتُ إلى الصعدة. كان الطريقُ المنحدرُ يحوي جداولَ مائيَّة، أشبَهَ بأوردةٍ نازفة. ركضتُ منقوعًا حتّى النخاع في الشوارع الضيِّقة والساكنة. وكانت المجاري تدوّي على وقع خطاي. والمدينةُ تغرق في محيطٍ من الظلمات. استغرقتُ عشر دقائق للوصول إلى بوَّابة دار مارينا وخيرمان، مُبلَّلًا من رأسي إلى قدميَّ. رأيتُ الغسقَ مثل ستارٍ رخاميٍّ ورماديٍّ يُسدَلُ على الأفق. خُيِّلَ إليَّ أنّي أسمع قرقعةً خلف ظهري، عند منفذ الزقاق. التفتُّ فزعًا. خِلتُ لوهلةً أنَّ أحدهم يلاحقني. ولكن لا أحد، سوى المطر الذي يرشُّ بِرَك الطريق.

تسلَّلتُ عبر البوَّابة. اقتاد ضياءُ البرق خطواتي إلى الدار. رحَّبت بي ملائكةُ النافورة. ووصلتُ إلى باب المطبخ من الخلف، وأنا أرتجف من البرد. كان البابُ مفتوحًا. دخلتُ. البيتُ غارقٌ كلّيًا في ظلامٍ دامس. تذكَّرتُ كلمات خيرمان بخصوص انعدام الكهرباء.

لم يخطر في بالي حتّى تلك اللحظة أنّي لم أتلقَّ دعوةً من أحد. وها أنا للمرَّة الثانية أتسلَّلُ إلى تلك الدار من دون أيّ

مُسوِّغ. فكَّرتُ في الانصراف، لكنَّ العاصفةَ في الخارج كانت تعوي. تنهَّدتُ. يداي تتجمَّدان بردًا، أكاد لا أشعر بأناملي. سعلتُ كالكلب وأحسستُ بنبض قلبي عند صدغيَّ. كانت ملابسي تلتصق بجسمي من شدَّة صقعيها. «مملكتي مقابل منشفة» قلتُ في سرّي.

- مارينا؟ - ناديتُ.

تاه صدى صوتي في الصالة الكبرى. كنتُ مُطوَّقًا بعباءة الظلام. لا شيء سوى ضياء البرق الذي يُمزِّقُ العتمة على ومضات، مثل فلاش كاميرا فوتوغرافيَّة.

- مارينا؟ - ألححتُ - هذا أنا أوسكار.

توغَّلتُ في الدار بخجل. كان حذائي المُبلَّلُ يُصدِرُ صوتًا لزجًا. توقَّفتُ عند عتبة الصالة حيث تغدَّينا في الأمس. المائدة خاوية، الكراسي خالية.

- مارينا؟ خيرمان؟

لم أحصل على جواب. تراءى لي من على أحد الرفوف في الظلمة شمعدانٌ صغير وعلبةُ أعواد ثقاب. نفَّذتُ خمسَ محاولات حتّى استطاعت أصابعي المُخدَّرةُ وفاقدةُ الإحساس أن تُشعِلَ عودًا واحدًا.

رفعتُ الضوءَ المرتعش. ففاض المكانُ بضياءٍ شبحيّ. تقدَّمتُ مُتمهِّلًا نحو الممرّ الذي رأيتُ مارينا وأباها يختفيان فيه ليلة أمس.

كان يُفضي إلى صالةٍ كبيرةٍ أخرى، تعتليها هي كذلك ثريَّا تلتمع دموعُ زجاجها في العتمة مثل دوَّامةٍ من الألماس. وكانت

العاصفةُ، عبر النوافذ، تعرض داخل البيت ظلالًا ملتوية. ثمّة أرائكُ وأثاثٌ قديمٌ مُسجَّى بأغطيةٍ بيضاء. ودَرَجٌ رخاميٌّ يُؤدّي إلى الطابق الأوَّل. مشيتُ باتِّجاهه وقد اعتبرتُ نفسي دخيلًا. فرأيتُ عينين صفراوين تتلألآن عند ذروة الدَّرَج. سمعتُ مواءً. هذا كافكا. تنفَّستُ الصعداء. واختفى القطُّ في الظلام بأقلّ من ثانية. نظرتُ حولي، فلاحظتُ أنَّ خطواتي خلَّفَت أثرًا على الغبار.

- هل من أحدٍ هنا؟ - ناديتُ مرَّةً أخرى، ولكن لا جواب.

تخيَّلتُ وضعَ هذه الصالة قبل عدَّة عقود، مُزيَّنةً بأبَّهة، تبتهج أرجاؤها بفرقةٍ موسيقيَّةٍ وعشرات المدعوّين وهم يرقصون. كانت تبدو لي حينذاك صالةً بسفينةٍ غارقة. الجدرانُ مُكدَّسةٌ بالبورتريهات الزيتيَّة. تظهر في جميعها امرأة. عرفتُها. هي ذاتُها التي تظهر في اللوحة التي رأيتُها حين تسلَّلتُ في المرَّة الأولى إلى هذه الدار. كان السحرُ والإتقانُ ودرجةُ الإضاءة في تلك الصور خارقًا للعادة. تساءلتُ مَن بوسعه أن يرسمَ هكذا. إذ كان واضحًا حتّى لشخصٍ مثلي أنَّها عملُ رسَّامٍ واحد. المرأة تراقبني من كلّ الجدران. ليس من الصعب ملاحظةُ الشبه الفظيع بينها وبين مارينا. الشفاهُ نفسُها، البشرةُ الشاحبةُ نفسها التي تكاد تكونُ شفَّافة. الخصرُ نفسُه، ناعمٌ ورقيقٌ كأنَّه خصرُ دميةٍ خزفيَّة. العينان الرماديَّتان نفسُهما، حزينتان وعميقتان. لمس شيءٌ ممّا كاحلي. كافكا، يتمسَّحُ بقدميَّ. انحنيتُ لأداعبَ فراءه الفضّيّ.

- أين صاحبتُك، ها؟

فأجابني القطُّ فورًا بمواءٍ كئيب. لا أحد في هذه الدار.

سمعتُ المطرَ ينقر السطح. ألوفٌ من عناكب الماء تسرح في العُلّيَّة. لا بدَّ أنَّ مارينا وخيرمان قد خرجا لسببٍ لا يمكن تكهُّنُهُ. بكلّ حال، هذا ليس شأني. داعبتُ كافكا وقرَّرتُ الانصرافَ قبل عودتهما.

- وجودُ واحدٍ منّا هنا زائدٌ عن الحاجة. - همستُ لكافكا - أنا.

وفجأةً، اقشعرَّ زغبُ القطّ كالأشواك. أحسستُ بعضلاته تشتدُّ كأكبال الفولاذ على ملمس يدي. مَاءَ كافكا فزعًا. تساءلتُ ما الذي قد يُخيفه على هذا النحو، فإذا بي أشمُّها. تلك الرائحة. نتانةُ الحيوان المُتفسِّخ في الدفيئة. وانتابني الغثيان.

رفعتُ عينيَّ. كان المطرُ الغزيرُ يحجب نوافذَ الصالة. وتبدَّت من الخارج هوامشُ ملائكة النافورة بصورةٍ مُشوَّشة. فأنبأتني فطرتي بوجود شيءٍ مُريب. ثمّة شخصٌ غريبٌ بين التماثيل. نهضتُ وتقدَّمتُ بتمهُّلٍ نحو الزجاج. دار أحدُ التماثيل حول نفسه. توقَّفتُ مُتجمِّدًا. لم أستطع تمييزَ ملامحه، كلُّ ما رأيتُهُ طيفٌ قاتمٌ مُتدثِّرٌ برداء. وكنتُ متأكِّدًا أنَّ هذا الغريبَ ينظر إليَّ. بقيتُ في مكاني طوال لحظةٍ لا تنتهي. وبعد قليل، توارى الطيفُ في الظلمات. وعندما لمع ضياءُ البرق على الحديقة، لم يعد للغريب وجود. وانتبهتُ بعد حينٍ أنَّ تلك الرائحة المُقزِّزة قد اختفت باختفائه.

*

لم يخطر في بالي سوى الجلوس ريثما يعود خيرمان

ومارينا. لم تستهوِني فكرةُ الخروج. وكان للعاصفة أقلُّ نصيبٍ من الأسباب. استرخيتُ على أريكةٍ كبيرة. وتكفَّلَ نقرُ المطر، والضوءُ الخافتُ في الصالة، بتهيئة غفوتي. وفي لحظةٍ مّا، سمعتُ صوتَ مفتاحٍ يدور في قفل الباب الرئيس وخطواتٍ تتقدَّمُ في البيت. فانتفضتُ من غيبوبتي وخفق قلبي بشدَّة. توغَّلَت الأصواتُ في الممرّ. أُضيئت شمعة. ركض كافكا لملاقاة الضوء بينما كان خيرمان وابنتُهُ يدخلان الصالة. قدحتني مارينا بنظرةٍ قاسية.

- ما الذي تفعله هنا يا أوسكار؟

تلعثمتُ بشيءٍ مّا بلا معنى. ابتسم لي خيرمان بمودَّة ورمقني بفضول.

- بربِّك يا أوسكار! أنت مُبلَّلٌ للغاية! مارينا، أحضري مناشف نظيفة من أجله... تعال يا سيِّد أوسكار لنُشعِلَ النار، فهذه ليلةٌ عسيرة...

*

جلستُ أمام المدفأة ممسكًا بفنجانٍ من الحساء الساخن الذي أعدَّته لي مارينا. أوضحتُ، كيفما اتَّفق، سببَ وجودي في الدار، ولم أُشِر إلى الطيف الذي لمحتُهُ في الحديقة ورائحته النتنة. تلقَّى خيرمان توضيحاتي بصدرٍ رحب، ولم يبدُ مستاءً من تطفُّلي على الإطلاق، بل على العكس. أمّا مارينا، فكانت موضوعًا آخر. نظراتُها تقدح شررًا. خشيتُ أن تُدمِّرَ غباوتي، في التسلُّل المُتكرِّر إلى بيتهما، صداقَتنا إلى الأبد. لم أفتح فمي

طوال نصف الساعة الذي قضيناه قرب النار. وعندما رجاني خيرمان أن أعذره وتمنَّى لي ليلةً هانئة، ظننتُ أنَّ صديقتي السابقة ستطردني ركلًا، وتنهاني عن العودة إليها.

«ها هي...» قلتُ في نفسي. قبلةُ الموت. وجَّهت إليَّ مارينا ابتسامةً حادَّة، ساخرة.

- تبدو كالبطَّة المُرتَبِكة. - قالت.

- شكرًا. - أجبتُ، وانتظرتُ الأسوأ.

- هلّا بيَّنتَ لي ما الذي كنتَ تفعله هنا؟

كانت عيناها تلمعان قبالة النار. أنهيتُ الحساءَ وأخفضتُ عينيَّ.

- في الحقيقة لستُ أدري... - قلتُ - أتصوَّرُ أنَّني... لا أدري...

ساعدني مظهري المؤسف، إذ اقتربت مارينا منّي وربَّتت على يدي.

- انظر إليَّ. - أمرتْ.

فنظرتُ إليها. كانت ترمقني بمزيجٍ من العطف والاستلطاف.

- لستُ غاضبةً منك، أتفهم؟ - قالت - كلُّ ما في الأمر أنّي فوجئتُ بوجودك هنا. فأنا أرافق خيرمان كلَّ يوم اثنين إلى الطبيب، إلى مستشفى سان بابلو. لهذا خرجنا. لم يكن اليومُ مناسبًا للزيارات.

شعرتُ بالخجل.

- لن يحدث هذا مرَّةً أخرى. - وعدتُها.

كنتُ على وشك أن أروي لمارينا عن الشبح الغريب الذي

خِلتُ أنّي رأيتُه، لكنَّها ابتسمت وقرَّبَت منّي لتطبعَ قبلةً على خدّي. اكتفيتُ بأن تلامسني بشفتيها كي تجفَّ ثيابي على الفور وكي أنسى ما كنتُ أنوي قولَه. انتبهت مارينا إلى ارتباكي الصامت.

- ما بك؟

نظرتُ إليها بسكوت وهززتُ رأسي.

- لا شيء.

قوَّسَت حاجبًا، كأنَّها لم تُصدِّقني، لكنَّها لم تُلِحّ.

- هل تريد مزيدًا من الحساء؟ - سألتني وهي تنهض.

- شكرًا.

أخذت مارينا الفنجان وذهبت إلى المطبخ لتملأه. راوحتُ مكاني بجوار النار، مبهورًا ببورتريهات المرأة على الجدران. وعندما عادت، تبعت نظراتي.

- المرأة التي تظهر في اللوحات... - بادرتُ.

- إنَّها أمّي. - قالت مارينا.

شعرتُ أنّي لامستُ وترًا حسَّاسًا.

- لم أر لوحاتٍ كهذه من قبل... تبدو كأنَّها... صورٌ للروح.

وافقتني مارينا بصمت.

- لا بدَّ أنَّها لرسَّامٍ مشهور. - تابعتُ - لكنّي لم أر مثيلًا لها من قبل.

تأخَّرت مارينا في الإجابة.

- ولن ترى. فالرسَّامُ لم يمسك فرشاته منذ سبعة عشر عامًا تقريبًا. وهذه المجموعة من البورتريهات هي عملُهُ الأخير.

- لا بدَّ أنَّه عرف والدتَكِ جيِّدًا لكي يرسمها بهذه البراعة. - لاحظتُ.

حدَّقت إليَّ مارينا طويلًا. نظرتُها مطابقةٌ للنظرة المحبوسة في اللوحات.

- أكثر من أيّ شخصٍ آخر. - أجابت - كان قد تزوَّجَها.

٨

في ذلك المساء، وبجانب المدفأة، قصَّت عليَّ مارينا حكايةَ خيرمان ودارِهما في حيّ سارّيا.

وُلِدَ خيرمان بلاو لعائلةٍ ثريَّةٍ تنتمي إلى البرجوازيَّة الكاتالانيَّة المزدهرة في ذلك العهد. وكان لسلالة بلاو شرفةٌ في مسرح الأوبرا، ومستعمرةٌ صناعيَّةٌ على ضفاف نهر سيغري، إضافةً إلى بعض الفضائح الاجتماعيَّة. قيل إنَّ خيرمان الصغير ليس ابنَ كبير العائلة بلاو، إنّما ثمرة حبٍّ غير مشروعٍ بين ديانا، والدته، وشخصٍ غريب الأطوار يُدعى كيم سالْبات. وكان سالْبات جامحًا ورسَّامَ بورتريهات وشَبِقًا مُحتَرِفًا، بهذا الترتيب. كان يفضح مُمثِّلي الطبقة الراقية من المجتمع في الوقت نفسه الذي يُكرِّسُهُ لتخليد وجوههم على اللوح، بأسعارٍ فلكيَّة. وبغضّ النظر عن الحقيقة، لم يكن خيرمان يُشبِهُ أحدًا من أفراد عائلته، لا من حيث المظهر ولا من حيث الطباع. انحصرت اهتماماتُهُ في الرسم والتصميم، الأمر الذي أيقظ شكوكَ الجميع. لاسيّما أبوه صاحبُ اللقب.

عندما أتمَّ عامَهُ السادسَ عشر، أخبره أبوه أنْ ليس في العائلة

مكانٌ للكسالى والصعاليك. فإن أصرَّ على نيَّته بأن يصبحَ «فنَّانًا»، أرسله للعمل في المصنع بصفة مُتدرِّبٍ أو كسَّار حجر، في الجيش أو في أيّ مؤسَّسةٍ قادرةٍ على تقوية شخصيَّته لعلَّهُ يصبح شخصًا مفيدًا للمجتمع. فقرَّرَ خيرمان الهربَ من البيت، الذي عاد إليه بعد أربع وعشرين ساعة برفقة الدَّرك.

خاب ظنُّ كبير العائلة من بِكره، فعقد آمالَهُ على نجله الثاني، غاسبار، الذي تفانى في تعلُّم تجارة النسيج وأبدى قابليَّةً واسعة للاستمرار في تقاليد الأسرة. وحين قلق بلاو العجوزُ بشأن مستقبل خيرمان الاقتصاديّ، سلَّمَهُ دارَ سارّيا، شبه المهجورة منذ سنوات. «مع أنَّك عارٌ على العائلة، فإنّي لم أعمل كالعبد لينتهي المطافُ بابني على قارعة الطريق» قال له. كانت الدارُ فيما سبق ملتقىً لنخبة النخبة من العالَم الجميل، لكنَّها تعرَّضَت للإهمال. دارٌ ملعونة. يُقال في الواقع إنَّ اللقاءاتِ السرّيَّةَ بين ديانا والجامح سالْبات انعقدت فيها. وهكذا، ويا لسخرية القدر، انتقلت ملكيَّةُ المبنى إلى خيرمان. وأصبح خيرمان فيما بعد، بعون أمّه الخفيّ، مُتدرِّبًا عند كيم سالْبات شخصيًّا. حدَّقَ سالْبات إلى عينيه مباشرةً في اليوم الأوَّل، وقال هذه الكلمات:

- أوَّلًا، أنا لستُ والدك، ولا أعرف والدتك إلّا سطحيًّا. ثانيًا، حياةُ الفنَّان محفوفةٌ بالمخاطر، والحيرة، وبالفقر خاصَّةً. لستَ أنت الذي يختارها؛ إنّما هي التي تختارك. إن كان لديك تحفُّظٌ على إحدى هاتين النقطتين، فالأفضل أن تخرجَ من هذا الباب فورًا.

لم يخرج خيرمان.

كانت أعوامُ التتلمذ على يد سالْبات بالنسبة إلى خيرمان قفزةً إلى عالَمٍ جديد. اكتشف للمرَّة الأولى أنَّ هناك شخصًا يؤمن به، بموهبته وبإمكانيَّة أن يصبحَ شيئًا أبعدَ من نسخةٍ شاحبةٍ عن أبيه. شعر أنَّه إنسانٌ مُختَلِف. وفي غضون ستَّة أشهرٍ تعلَّمَ وتطوَّرَ أكثر ممّا فعله خلال حياته السابقة كثيرًا.

وكان سالْبات رجلًا فريدَ الطباع، سخيًّا، وعاشقًا لملذَّات الحياة. لا يرسم إلّا في الليل، ورغم أنَّه ليس وسيمًا (لا بل كان يُشبِهُ الدبَّ) فكان من الممكن اعتبارُهُ زيرَ نساءٍ لا يُقاوَم، موهوبًا بقدرةٍ عاتيةٍ على الإغراء يبرع في استخدامها كبراعته في استخدام الفرشاة تقريبًا.

عارضاتٌ بجمالٍ يحبس الأنفاس، وسيِّداتٌ من صفوة المجتمع، يَسِرْنَ في طابورٍ داخل مرسمه، مُتلهِّفاتٍ لاتِّخاذ وضعيَّاتٍ ليرسمهنَّ، وللحصول على شيءٍ آخر بحسب ظنون خيرمان. كان سالْبات ضليعًا في الخمور، والشعراء، والمدن الأسطوريَّة، والتقنيَّات البهلوانيَّة العاطفيَّة المُستورَدة من بومباي. عاش أعوامه السبعة والأربعين بكثافةٍ عالية. ولطالما قال إنَّ البشرَ يقضون حياتهم كما لو كان مُقدَّرًا لهم أن يعيشوا فيها خالدين، وأنَّ في ذلك هلاكَهم. كان يسخر من الحياة والموت، من الآلهة والإنسان. وكان طبخُهُ يفوق أعظمَ طهاة دليل ميشلين، ويأكل أكثر منهم جميعًا. وخلال الأعوام التي أمضاها خيرمان بجانبه، غدا سالْبات مُعلِّمَهُ وصديقَهُ الصدوق. وقد علم خيرمان أنَّه ما كان ليصلَ إلى ما وصل إليه في حياته، بصفته إنسانًا ورسَّامًا، لولا أفضالُ كيم سالْبات.

هو من القلّة المُتميِّزين الذين عرفوا سرَّ الضوء. كان يقول إنَّ الضوءَ مثل راقصةٍ مُتقلِّبة المزاج، تعي مدى فتنتها. وكان الضوءُ بين يديه يتحوَّلُ إلى خطوطٍ رائعةٍ تُنير اللوحَ وتفتح أبوابًا في الروح. أو هذا ما ورد في النصّ الترويجيّ بقوائم مَعَارِضِهِ على الأقلّ.

- الرسمُ هو الكتابةُ بالضوء. - يُؤكِّدُ سالْبات - عليك أن تتعلَّمَ أبجديَّتَهُ أوَّلًا؛ ثمَّ نحويَّاته. عندها فقط سيكون لك أسلوبُك وسحرُك.

وسَّعَ كيم سالْبات آفاقَ خيرمان باصطحابه في رحلاته. عرَّفَهُ على باريس، وفيينا، وبرلين، وروما... وسرعان ما أدرك خيرمان أنَّ سالْبات كان ماهرًا ببيع فنِّهِ ربّما أكثر من كونه رسَّامًا عظيمًا.

- من بين ألف شخصٍ يقتني لوحةً أو عملًا فنِّيًّا، لدى واحدٍ منهم فقط فكرةٌ ضئيلةٌ عمّا يقتنيه. - شرح له وهو يبتسم - الآخرون جميعًا، لا يشترون العمل إنّما الفنَّان، ما سمعوه عنه، وما يتخيَّلونه عنه. هذه السوق لا تختلف عن تجارة الأدوية السحريَّة أو جرعات الحبّ يا خيرمان. الفرقُ يكمن في السعر.

توقَّفَ قلبُهُ العظيمُ عن النبض في ١٧ يوليو ١٩٣٨. ادَّعى أحدُهم أنَّ موتَهُ ناجمٌ عن ميوله نحو الإفراط. لكنَّ خيرمان كان موقنًا أنَّ أهوالَ الحرب قتلت الأملَ والرغبةَ في الحياة لدى مرشده.

- بوسعي أن أرسمَ طوال ألف سنة - غمغم سالْبات على

فراش الموت - لكنّي لن أستطيعَ تغييرَ همجيَّة البشر وجهلهم وفظاظتهم. الجمالُ نسمةٌ بالمقارنة مع ريح الواقع يا خيرمان. لا معنى لفنّي. لا جدوى منه...

بكاه الجميعُ في جنازته: طابورُ عشيقاته الطويل، دائنوه، أصدقاؤه وزملاؤه، وعشراتُ الأشخاص الذين ساعدهم دون أن يطلبَ منهم شيئًا بالمقابل. كانوا يعلمون أنَّ ثمّة ضوءًا في العالَم وها قد انطفأ يومئذ، وأنَّهم باتوا منذ تلك اللحظة أشدَّ عزلةً وخواءً.

ترك له سالْبات مبلغًا متواضعًا، إضافةً إلى مرسمه. وأمَّنَهُ على تقاسم ما تبقَّى (وهو ليس بالشيء الكبير، لأنَّ سالْبات كان يُنفِقُ أكثر ممّا يتقاضى، وقبل أن يتقاضاه) مع عشيقاته وأصدقائه. سلَّمَ كاتبُ العدل، المُكلَّفُ بتنفيذ الوصيَّة، رسالةً إلى خيرمان من قِبَلِ سالْبات الذي كتبها حين أدرك نهايتَهُ الوشيكة. وكان عليه أن يفتحها بعد مماته.

تسكَّعَ الفتى طوال الليل في أنحاء المدينة، بعينين دامعتين وقلبٍ مكسور. فاجأه الفجرُ على كاسر الأمواج عند الميناء، وهناك - مع أولى خيوط الضوء - قرأ كلماتِ كيم الأخيرةَ التي خصَّهُ بها.

خيرمان العزيز،

لم أقلها لك وأنا حيّ، لأنّي فكَّرتُ في وجوب انتظار اللحظة الملائمة. ولكنّي أخشى ألّا أكونَ هنا عندما تحين.

هذا ما وددتُ أن أقوله لك: لم أعرف رسَّامًا بموهبةٍ تُضاهي

موهبتك في حياتي كلّها يا خيرمان. ما زلتَ لا تعرف ذلك، ولا يمكنك أن تفهمه. إلّا أنَّ الموهبةَ تنبض في داخلك، وفضلي الوحيد هو أنّي استطعتُ معرفتها. تعلَّمتُ منك أكثر ممّا تعلَّمتَ منّي، دون أن تنتبه. ليتك حظيتَ بمُعلِّم تستحقُّهُ فعلًا، مُعلِّم يُوجِّهُ موهبتك أفضل من هذا المُتدرِّب التّعيس. الضوءُ يتحدَّثُ في قلبك يا خيرمان. أمّا نحن الآخرين فلا يسعنا سوى أن نُصغي إليه. لا تنسَ ذلك أبدًا. ومن الآن فصاعدًا سيصبح مُعلِّمُك تلميذَك وصديقَك الصدوق، إلى الأبد.

سالْبات

وبعد أسبوع، غادر خيرمان إلى باريس، هربًا من تلك الذكريات المُؤرِّقة. عُرِضَ عليه أن يعملَ أستاذًا في مدرسة رسم. وبذا لن يعودَ إلى برشلونة قبل مُضيّ عشرة أعوام.

*

حصل خيرمان في باريس على شهرةٍ بصفته رسَّامَ بورتريهات مرموقًا، واكتشف الأوبرا، هذا الشغفَ الذي لن يتخلَّى عنه أبدًا. وبدأت لوحاتُهُ تباع على نطاقٍ واسع، حتّى إنَّ أحدَ تُجَّار الفنون الذي عرفه منذ أيَّام سالْبات، وافق على تسويقه. وكانت مبيعاتُ أعماله، إضافةً إلى راتبه من مدرسة الرسم، تسمح له بحياةٍ كريمةٍ على بساطتها. قدَّمَ عدَّة تضحيات، وأفاد من معارف مدير المدرسة، الذي كان على صلةٍ بنصف باريس، فاستطاع حجز مقعدٍ في مسرح الأوبرا على امتداد موسمٍ كامل. لا شيء

يدعو إلى التفاخر: مقعدٌ في الصفّ السادس من شرفةٍ واقعةٍ قليلًا نحو الشِمال. كان ربعُ الخشبة يبقى خارجَ نطاقه البصريّ، لكنَّ الموسيقى تتناهى إليه بكامل عظمتها، لا تُفرِّقُ بين أسعار المقاعد والشرفات.

وفي الأوبرا رآها للمرَّة الأولى. بدت أنَّها كينونةٌ خارجةٌ من إحدى لوحات سالْبات، لكنَّ جمالَها نفسَهُ لا يُنصِفُ صوتَها. اسمها كيرستن آويرمان، عمرها تسعة عشر عامًا، وكانت بحسب تعريفات البرنامج موهبةً واعدةً في الفنّ الأوبراليّ على مستوى العالَم. تعرَّفَ عليها في الأمسية ذاتها خلال حفل الاستقبال الذي تُنظِّمُهُ الشركةُ بعد العرض. تمكَّنَ خيرمان من التسلُّلُ إلى هناك مُنتَحِلًا هويَّة ناقدٍ موسيقيٍّ في صحيفة اللوموند. وحالما صافح يدَها أصابه البكمُ كأنَّه سمكة.

- من المُستَغرب أن تكون ناقدًا ومُقلًّا في الكلام إلى هذه الدرجة، ناهيك بلكنتك الواضحة. - مازحتْهُ كيرستن.

فقرَّرَ خيرمان حينئذٍ أنَّه سيتزوَّجُ تلك المرأة، ولو كان ذلك آخرَ ما يفعله في حياته. التجأ إلى كافّة تقنيَّات الإغراء التي رأى سالْبات يستخدمها على مدى الأعوام. ولكن من المستحيل إيجادُ نظيرٍ لسالْبات، فمَن خلَقَهُ كسر القالب. وبدأت هكذا لعبةُ القطّ والفأر الطويلة، التي استمرَّت ستّة أعوام، وانتهت في مُصلًّى صغيرٍ في النورماندي، خلال ظهيرةٍ من صيف العام ١٩٤٦. كان شبحُ الحرب في يوم الزفاف ما زال يحوم في الأجواء، كرائحة جيفة.

عاد خيرمان وكيرستن إلى برشلونة فيما بعد، ونزلا في دار

سارّيا. أصبح المبنى في غيابه متحفًا مخيفًا. لكنَّ ألقَ كيرستن وثلاثةَ أسابيع من التنظيف قاما بالواجب.

عاشت الدارُ عصرًا ذهبيًّا لم تمرّ بمثله من قبل. كان خيرمان يرسم بلا توقُّف، تتلبَّسُهُ طاقةٌ لم يستطع هو نفسُهُ تفسيرَها. وبدأت الشخصيَّاتُ المهمَّةُ تتداول لوحاته، وأصبح الحصولُ على رسمةٍ بإمضاء «بلاو» شرطًا لازمًا لدى المجتمع الراقي. وراح أبوه يتفاخر بنجاح خيرمان فجأةً. «لطالما آمنتُ بموهبته، وكنتُ أعلم أنَّه سيبلغ مجدَهُ»؛ «العظمة تسري في دمائه، كجميع آل بلاو»؛ «لا يوجد أبٌ أشدُّ اعتزازًا منّي»، غدت هذه العباراتُ مُفضَّلةً لديه. ومن فرط ما كرَّرَها، صدَّقَها حقًّا. فكثيرٌ من تُجَّار الفنّ ومُتعهِّدي المعارض، الذين كانوا في الماضي يُحيِّيونه على مضض، أمسوا حينئذٍ يبذلون قصارى جهدهم لكسب ودِّه. كما أنَّ خيرمان، في هذه الفوضى العارمة من الغرور والنفاق، لم ينسَ ما علَّمَهُ إيَّاه سالْبات.

وكانت مسيرةُ كيرستن الأوبراليَّة تسير على قدمٍ وساقٍ أيضًا. ففي فترة رواج الأقراص ذات الثماني والسبعين دورةً بالدقيقة، كانت هي من أوائل الأصوات التي خلَّدَت مجموعتها الغنائيَّة. سنواتٌ من التألُّق والسعادة عاشتها الدارُ في حيّ سارّيا، حين بدا كلُّ شيءٍ ممكنًا وحيث لا تُلمَحُ ظلالٌ في الأفق.

لم يُبدِ أحدٌ أهمِّيَّةً لما تعرَّضَت له كيرستن من نوبات غثيانٍ وإغماء، إلّا في مرحلةٍ مُتأخِّرة. وكانت النجاحاتُ والرحلاتُ وضغوطُ العروض الأولى تُفسِّرُ كلَّ شيء. ففي اليوم الذي عاينها الدكتور كافريلس، حصلت كيرستن على نبأين غيَّرَا عالَمها إلى

الأبد. الأوَّل، أنَّها حامل. والثاني، أنَّ مرضًا عضالًا في الدم يسرق حياتها ببطء. لم يبق لها سوى عامٍ واحد. عامين حدًّا أقصى.

وفي اليوم نفسه، حين خرجت من عيادة الطبيب، طلبت كيرستن ساعةً ذهبيَّة، مُهداةً لخيرمان، من متجر الساعات السويسريَّة في شارع أوغوستا.

إلى خيرمان، الذي يتحدَّثُ الضوءُ في قلبه
ك. آ.
١٩-١-١٩٦٤

وكان لتلك الساعة أن تعدَّ الدقائقَ التي تبقَّت لهما معًا.

*

هجرت كيرستن العروضَ والنجاح. أُقيمَ حفلُ الوداع في المعهد، مسرح الأوبرا ببرشلونة، حيث غنَّت لاكميه لديليب، مُؤلِّفها الموسيقيّ المُفضَّل. لن تسمع الآذانُ صوتًا كصوتها. وخلال حملها، رسم خيرمان سلسلةً من البورتريهات لزوجته وقد بلغ في ذلك ذروة موهبته الفنِّيَّة. ورفض أن يبيعَ أيًّا منها.

وفي ٢٦ سبتمبر ١٩٦٤، في تلك الدار، جاءت إلى الدنيا طفلةٌ شقراء ذات عينين رماديَّتين، مطابقتين لعينَي كيرستن. اسمها مارينا، التي سترث وجهَ أمِّها وتألُّقَها. توفِّيَت كيرستن بعد ذلك بستَّة أشهر، في الغرفة نفسها التي أنجبت فيها ابنتها، حيث

أمضت أسعد لحظات حياتها رفقة خيرمان. كان زوجها يمسك يدها، الشاحبة والمرتجفة، بين يديه. أحسَّ أنَّها باردةٌ عندما حملها الفجرُ بعيدًا كأنَّها تنهيدة.

وبعد شهرٍ من وفاتها، وطئت قدمُ خيرمان في مرسمه، في عُلِّيَّة الدار. وكانت مارينا الصغيرةُ تلعب عند قدميه. أمسك خيرمان الفرشاة وحاول أن يُخلِّفَ أثرًا مُلوَّنًا على اللوح الأبيض. اغرورقت عيناه بالدموع، وسقطت الفرشاةُ من يده. ولمْ يعد خيرمان بلاو إلى الرسم منذ تلك اللحظة. فالضوءُ الذي كان يتحدَّثُ في قلبه، سكت إلى الأبد.

٩

توالت زياراتي إلى دار خيرمان ومارينا، أثناء الخريف، حتّى غدت طقسًا يوميًّا. كنتُ في الصفّ أقضي الوقتَ وأنا أحلم بعينين يقظتين، بانتظار لحظة الهرب والوصول إلى ذلك الزقاق السِّرّيّ. هناك حيث ينتظرني أصدقائي الجدد، باستثناء الاثنين، اليوم الذي تصحب مارينا فيه أباها إلى المستشفى لاستكمال علاجه. كنّا نشرب القهوة وندردش في الصالات المعتمة. قَبِلَ خيرمان أن يُعلِّمَني مبادئ الشطرنج. ورغم تلك الدروس، كانت مارينا تغلبني، كشّ ملك، في غضون خمس دقائق أو ستّ، لكنّي لم أفقد الأمل.

أصبح عالَمُ خيرمان ومارينا عالَمي، بالتدريج، ومن دون حتّى أن أنتبه. دارُهما، والذكرياتُ التي تحوم في الأجواء... أصبحت داري وذكرياتي. وهكذا اكتشفتُ أنَّ مارينا لا تتردَّدُ إلى المدرسة لكي لا تتركَ والدَها بمفرده، ولكي تعتني به. روت لي أنَّ خيرمان علَّمَها القراءة والكتابة، والتفكير.

- الجغرافيا، والهندسة، والحساب، لا فائدة من كلّ علوم الأرض هذه إن لم تتعلَّمِ التفكير بنفسك. - برَّرَت مارينا - وهذا

لا يُعلِّمونك إيَّاه في أيّ مدرسة. ليس مُدرَجًا ضمن المُقرَّرات.

فتح خيرمان ذهنَها على الفنّ والتاريخ والعِلم. وتحوَّلَت المكتبةُ السكندريَّةُ في تلك الدار إلى كونٍ متكاملٍ بالنسبة إليها. كلُّ كتابٍ بابٌ على عوالِمَ جديدة وأفكارٍ جديدة. جلسنا ذات مساء من أواخر أكتوبر على رفّ إحدى النوافذ لنشاهدَ أضواء تيبيدابو البعيدة. كشفت لي مارينا أنَّ حلمَها أن تصبحَ كاتبة. كان لديها صندوقٌ مليءٌ بالقصص والحكايات التي ألَّفَتها مذ كانت في ربيعها التاسع. وحين طلبتُ منها أن تُطلِعَني على بعضها، نظرت إليَّ كما لو كنتُ سكرانًا وقالت لا مجال لذلك قطعًا. «هذا مثل الشطرنج. امنح الوقتَ وقتًا» قلتُ في نفسي.

كنتُ أتوقَّفُ غالبًا للتمعُّن في خيرمان ومارينا خلسةً عنهما. كانا يتمازحان، ويقرآن أو يتواجهان في صمتٍ على رقعة الشطرنج. فأرى سحرًا عجيبًا في الرابط الخفيّ الذي يُوحِّدهما، والعالَمَ المنعزلَ الذي شيَّدَاه بعيدًا عن كلّ شيءٍ وأحد. أراه كالوهم الذي أخشى في بعض الأحيان أن يُبدِّدَهُ حضوري. وكنتُ أحيانًا، أثناء عودتي إلى مدرستي، أشعر أنّي أسعد شخصٍ في العالَم لمُجرَّد أنّي أشاركهما هذا الوهم.

حافظتُ على سرّيَّة تلك الصداقة، ولم أتساءل عن السبب. لم أتحدَّث بشأنهما لأحد، حتّى لرفيقي ج. ف.، وفي غضون أسابيع قليلةٍ أصبح خيرمان ومارينا حياتي السِّرّيَّة، أو في حقيقة الأمر، الحياةَ الوحيدةَ التي تمنَّيتُ أن أعيشَها. أذكر ذات مساء أنَّ خيرمان انصرف باكرًا، مُعتذِرًا كعادته بأسلوبٍ لبقٍ كأنَّه من نبلاء القرن التاسع عشر. بقيتُ بمفردي مع مارينا في صالة

البورتريهات. وجَّهَت إليَّ ابتسامةً ملغزة وقالت إنَّها كانت تكتب عليَّ. أفزعتني الفكرةُ بحدّ ذاتها.

- عليَّ؟ ماذا تقصدين أنَّكِ تكتبين عليَّ؟

- أقصد أنّي أكتب عنك، لا فوقك، فأنت لستَ منضدة.

- القصدُ واضحٌ حتّى هنا.

استمتعت مارينا بعصبيَّتي المفاجئة.

- إذًا؟ هل تستهين بنفسك لدرجةٍ تُصدِّقُ عندها أنَّ الكتابةَ عنك لا تستحقُّ العناء؟

لم يكن لديَّ إجاباتٌ على هذا السؤال. فقرَّرتُ أن أُغيِّرَ استراتيجيَّتي وأنتقلَ إلى الهجوم. فهذا ما علَّمني إيَّاه خيرمان في دروس الشطرنج. الاستراتيجيَّة الأساسيَّة: عندما يُفاجئونك وأنت عاري الساقين، فعليك بالصراخ والهجوم.

- إن كنتِ تروين عنّي، فلا يمكنكِ أن ترفضي طلبي بقراءة ما تكتبين. - شدَّدتُ.

قوَّسَت مارينا حاجبًا بارتباك.

- من حقّي أن أعرفَ ما الذي تكتبينه عنّي. - أضفتُ.

- لعلَّه لن ينالَ إعجابك.

- ولعلَّه ينال إعجابي.

- سأُفكِّرُ في الأمر.

- وأنا سأنتظر.

*

اجتاح البردُ برشلونة على طريقته المعهودة: مثل نيزك. بدأت

مقاييسُ الحرارة تنشغل بشؤونها بين يومٍ وآخر. وأُجليَت جيوشٌ من المعاطف من الخزائن لتتيح المجالَ للكنزات الخريفيَّة الخفيفة. واستبدَّت السماواتُ الفولاذيَّةُ والرياحُ العاتيةُ، التي تنهش الآذان، بالطرقات. أدهشني خيرمان ومارينا حين أهدياني قبَّعةً صوفيَّة لا بدَّ أنَّها باهظة الثمن.

- هذه لصون الأفكار، يا عزيزي أوسكار. - قال لي خيرمان - لن نسمحَ أبدًا بأن يبردَ دماغُك.

وفي أواسط نوفمبر، أعلنت مارينا على مسمعي أنَّها وخيرمان سيسافران إلى مدريد مدَّةَ أسبوع. فقد وافق طبيبٌ مشهور، في مستشفى السلام الجامعي، أن يُخضِعَ خيرمان لعلاجٍ ما يزال قيد التجريب، لم يُطبَّق إلّا على حالتين في أوروبا كلِّها.

- يقولون إنّ هذا الطبيبَ يصنع المعجزات، لا أدري... - قالت مارينا.

سقطت عليَّ فكرةُ تمضية أسبوعٍ بدونهما كالصاعقة. وباءت جميعُ محاولاتي إخفاءَ ذلك بالفشل. استقرأت مارينا قلبي كأنَّه شفيف. ربَّتَت على يدي.

- ليس سوى أسبوع، اتَّفقنا؟ ثمَّ سنلتقي مُجدَّدًا.

أومأت ولم أجد كلامًا أُهوِّنُ به النبأ.

- البارحة، قلتُ لخيرمان إنَّك قد تعتني بكافكا والدار في غيابنا... - ارتجلت مارينا.

- بالتأكيد. سأفعل كلَّ ما يلزم.

أشرق وجهُها.

- آمل أن يكونَ الطبيبُ بارعًا كما يُقال عنه. - أضفتُ.

نظرت مارينا في عينيَّ لحظةً طويلة. كانت عيناها الرماديَّتان، خلف ابتسامتها، تشعَّان ضوءَ حزنٍ جرَّدني من أسلحتي.

- نأمل ذلك.

*

كان القطارُ المتَّجهُ إلى مدريد من محطَّة فرنسا سينطلق في التاسعة صباحًا. خرجتُ عند الفجر. وكنتُ قد حجزتُ سيَّارةَ أجرة، بما توفَّرَ عندي من مدَّخرات، لأُعرِّجَ على خيرمان ومارينا وأصحبهما إلى المحطَّة. وكان صباحُ يوم الأحد ذاك يكتنفه ضبابٌ داكنٌ يُفسِحُ المجالَ ببطءٍ لضوء فجرٍ خجولٍ من لون الكهرمان. لم يفتح أحدٌ فمه جزءًا طويلًا من الرحلة. وكان عدَّادُ سيَّارة السيات القديمة، طراز ١٥٠٠، يدقُّ مثل المترونوم.

- ما كان ينبغي أن تُكلِّفَ حضرتك العناء يا أوسكار العزيز.

- قال خيرمان.

- لا عناء. - أجبتُ - الجوُّ بردٌ قارس، والوضع لا يحتمل أن تتجمَّدَ همَّتنا، أليس كذلك؟

وفي المحطَّة، جلس خيرمان في المقهى، في حين ذهبنا أنا ومارينا لشراء التذاكر. وقُبَيلَ الانطلاق، عانقني خيرمان حتّى كدتُ أنهمر باكيًا. ثمَّ صعد إلى المقصورة بمساعدة الحمَّال، وتركني أُودِّعُ مارينا على انفراد. كانت أصداءُ آلاف الأصوات والصفَّارات تحتدم تحت طاق المحطَّة الهائل. تبادلنا نظراتٍ صامتة، باستحياء.

- جيِّد. . . - قلتُ.

- لا تنسَ أن تُسخِّنَ الحليبَ لأنَّ. . .

- كافكا يكره الحليبَ البارد، خاصَّةً بعد ارتكاب جريمة، أعرف ذلك. هذا القطُّ مُدلَّل.

تهيَّأ مديرُ المحطَّة للإيذان بالانطلاق برايته الحمراء. تنهَّدت مارينا.

- خيرمان فخورٌ بك. - قالت.

- لا داعي لذلك.

- سنشتاق إليك.

- هذا ما تظنِّينه أنتِ. هيَّا، حان الوقتُ فاركبي.

دنت مارينا منّي فجأةً ولثمت شفتيَّ. وركبت القطارَ قبل أن أتمكَّنَ من إغماض جفنيَّ. بقيتُ هناك أنظر إليه وهو يبتعد نحو جدار الضباب. وعندما تاه صوتُ القاطرة في الأجواء، مشيتُ باتِّجاه المخرج. وفي الطريق فكَّرتُ أنَّني لم أخبر مارينا عن الشبح الغريب الذي ظهر في دارها خلال تلك الليلة العاصفة. وأنا نفسي، مع مرور الوقت، فضَّلتُ النسيان، واقتنعتُ في النهاية أنَّني تخيَّلتُ كلَّ ما حدث. وصلتُ إلى بهو المحطَّة فإذا بفتىً صغير يصطدم بي أو يكاد.

- خذ. . . أعطوه لي لأُسلِّمَهُ لك.

مدَّ نحوي مظروفًا أصفر اللون.

- أعتقد أنَّك أخطأتَ الشخص. - قلتُ.

- لا، لا. تلك السيِّدةُ قالت لي أن أعطيه لك تحديدًا. - أصرَّ.

- أيُّ سيِّدة؟

التفت الفتى ليُشيرَ إلى الرواق المؤدّي إلى جادّة كولون. كانت خيوطُ الضباب تُغطّي عتبات المدخل. لا أحد هناك. رفع كتفيه ومضى بعيدًا.

اتَّجهتُ نحو الرواق قلقًا وخرجتُ إلى الشارع، فأسعفني الوقتُ لرؤيتها. السيِّدةُ ذات السواد، التي رأيناها في مقبرة سارّيا، كانت تهمُّ بركوب عربةٍ من زمانٍ ولّى، تجرُّها خيول. التفتت لتنظر إليَّ برهةً. وجهُها متوارٍ بحجابٍ داكن، مثل شبكة عنكبوت حديديَّة. انغلق بابُ العربة بعجالة، وجَلَدَ الحوذيُّ خيولَهُ، وكان مُتدثِّرًا بمعطفٍ رماديٍّ يصل إلى قدميه تقريبًا. انطلقت العربةُ بسرعةٍ فائقة لتشتبكَ في أزمة سير جادّة كولون، متَّجهةً نحو لاس رامبلاس.

أصابني الذهول لدرجة أنّي نسيتُ المظروفَ الذي سلَّمَهُ لي الفتى. وما إن فطنتُ أنَّه ما زال في يدي، فتحتُهُ. كان يحتوي على بطاقةٍ قديمةٍ كُتِبَ عليها عنوان:

ميخائيل كولڤينيك

شارع البرنسيسة، 33، 2.ª-4.º

قلبتُ البطاقة. كان الطابعُ قد استنسخ على الجانب الخلفيّ الرمزَ المنحوتَ على القبر المجهول الهويَّة، وعلى باب الدفيئة المهجورة. فراشةٌ سوداء بجناحين مبسوطين.

١٠

انتبهتُ أنّي جائعٌ وأنا أمشي على امتداد الطريق نحو شارع البرنسيسة، فتوقّفتُ لأشتري كعكةً من المخبز المقابل لكاتدرائيّة سانتا ماريّا دل مار. كانت نكهةُ الشطائر تتموَّجُ على أصداء قرع الأجراس. وكان شارعُ البرنسيسة معتمًا يقطع البلدةَ القديمةَ كأنّه وادٍ ضيِّقٌ من ظلال. مررتُ بجانب أبنيةٍ وعماراتٍ تبدو أعتقَ من المدينة نفسها. الرقمُ ٣٣ بالكاد يُرى على إحدى تلك الواجهات. دخلتُ في بهوٍ يحيط برواقٍ مُعمَّدٍ لمُصلّىً قديم. صناديقُ البريد الصدئةُ مُعلّقةٌ على جدارٍ من طوبٍ مُتصدِّع. وبينما كنتُ أبحث عن اسم ميخائيل كولڤينيك عبثًا، سمعتُ أنفاسًا ثقيلةً خلف ظهري.

التفتُّ مُتوجِّسًا فلمحتُ امرأةً عجوزًا مُتجعِّدةَ الوجه، جالسةً في غرفة الحراسة. بدت أنّها تمثالٌ شمعيٌّ بثياب أرملة. مرَّت حزمةُ ضوءٍ على وجهها. كانت عيناها بيضاوين كالرخام. بلا بؤبؤ. عمياء.

- عمَّن تبحث؟ - سألتني بصوتٍ ينوح.

- ميخائيل كولڤينيك، سيِّدتي.

رمشت العجوزُ بعينيها الفارغتين، الخاليتين من الحياة، ثمَّ نفت برأسها.

- لقد أعطوني هذا العنوان. - ألححتُ - ميخائيل كولڤينيك، الطابق الرابع، الشقَّة رقم ٢...

نفت الطاعنةُ بالسنّ برأسها من جديد وعادت إلى جمودها. فلاحظتُ حركةً على طاولة الحراسة. عنكبوتٌ أسود يصعد على يديها المغضَّنتين، فيما تُمعِنُ عيناها البيضاوان في الفراغ. وحينها تسلَّلتُ نحو السلالم دون إصدار ضجَّة.

*

لم يُغيِّر أحدٌ أضواءَ تلك السلالم منذ ثلاثين عامًا على الأقلّ. الدرجاتُ لزجةٌ وبالية. المستراحاتُ صحارٍ من الظلمة والسكون. يتسرَّبُ ضياءٌ واهنٌ من منورٍ في الطابق الأخير، حيث تتخبَّطُ حمامةٌ عالقة. كان بابُ الشقَّة في الطابق الرابع من خشبٍ صلبٍ منقوش، ومقبضٍ حديديٍّ ثقيل. قرعتُ الجرسَ مرَّتين: تاه الرنينُ في داخل البيت. ومضت عدَّةُ دقائق. قرعتُ ثانيةً. دقيقتان أخريان. بدأتُ أظنُّ أنّي ولجتُ قبرًا. هذا أحد أشدّ الأبنية الشبحيَّة التي تُولِّدُ سحرًا مشؤومًا في البلدة القديمة ببرشلونة كلِّها.

انفتحت شبكةُ عين الباب فجأةً. فثقبت خطوطُ الضوء الظلامَ. وردني صوتٌ رمليّ. صوتٌ لم يُستَعمَل منذ أسابيع، وربّما منذ أشهر.

- مَن بالباب؟

- سيِّد كولڤينيك؟ ميخائيل كولڤينيك؟ - سألتُ - هل لي أن أتحدَّثَ إليك قليلًا، من فضلك؟

انغلقت الشبكةُ على حين غرَّة. وساد الصمت. كدتُ أقرع الجرسَ ثانيةً فإذا البابُ ينفتح.

تبدَّت هيئةُ رجلٍ عند العتبة. كان هديرُ صنبورٍ مّا يصدر من الداخل.

- ماذا تريد يا فتى؟

- سيِّد كولڤينيك؟

- لستُ كولڤينيك. - قاطعني - اسمي سينتيس. بنخامين سينتيس.

- المعذرة سيِّد سينتيس، لقد أعطوني هذا العنوان و...

مددتُ نحوه البطاقةَ التي سلَّمني إيَّاها الفتى في المحطَّة. أمسكتْها يدٌ غليظة، وتفحَّصتْها عينان لم أستطع رؤيتهما، بصمت، ثمَّ رُدَّت إليَّ.

- ميخائيل كولڤينيك لم يعد يسكن في هذا البيت منذ سنواتٍ بعيدة.

- هل تعرفه حضرتك؟ - سألتُ - ربّما بوسعك مساعدتي.

عاد الصمتُ مُجدَّدًا.

- ادخل. - قال سينتيس في النهاية.

*

بنخامين سينتيس رجلٌ مكنتزُ البنية، يعيش في ثوبٍ قطنيٍّ أحمر. وشفتاه تُثبِّتان غليونًا مُطفَأً، وترفعان شاربًا يتَّصلُ بلحيةٍ

كثيفة، على نمط جول فيرن، لتؤطِّرَ وجهَهُ كلّيًّا. وكانت شقَّتُهُ تربض فوق غابة أسطح البلدة القديمة، ويتغلغل فيها ضياءٌ أثيريّ. وفي البعيد تُلمَحُ أبراجُ الكاتدرائيَّة، وفي الأفق سفوحُ تلَّة مونتجويك. الجدرانُ عارية. هنالك بيانو يجمع طبقاتٍ من الغبار، وعلبٌ كبيرةٌ تتكدَّس على الأرض ممتلئةً بجرائد بائدة. لا شيء في ذلك البيت يتحدَّثُ عن الحاضر. كان بنخامين سينتيس يعيش في الماضي التامّ.

جلسنا في غرفةٍ مُؤدّيةٍ إلى شرفة. عاين سينتيس البطاقةَ مرَّةً ثانية.

- لماذا تبحث عن كولڤينيك؟ - سأل.

قرَّرتُ أن أروي له كلَّ شيءٍ من البداية، انطلاقًا من زيارة المقبرة وحتّى الظهور المريب للمرأة ذات السواد في محطَّة فرنسا ذلك الصباح. أصغى إليَّ سينتيس سارحَ النظرات، دون إبداء أيّ عاطفة. وحين انتهيتُ خيَّمَ صمتٌ مُحرِج. حدَّقَ إليَّ سينتيس طويلًا. كانت له نظرةُ ذئب، جامدةٌ وخارقة.

- لقد عاش كولڤينيك في هذا البيت أربع سنوات، بعد وصوله إلى برشلونة بفترةٍ قصيرة. - قال - ما زالت بعضُ كتبه في مكانٍ مّا هنا، أغلب الظنّ. هذا كلُّ ما تبقَّى منه.

- هل لديك عنوانه الحاليّ؟ هلّا أخبرتني أين يمكنني العثور عليه؟

انفجر سينتيس ضاحكًا.

- جرِّبْ في الجحيم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نظرتُ إليه ولم أفهم.

- ميخائيل كولڤينيك مات في العام ١٩٤٨.

*

بحسب ما رواه لي بنخامين سينتيس ذلك الصباح، كان ميخائيل كولڤينيك قد وصل إلى برشلونة في أواخر العام ١٩١٩. كان آنذاك في مطلع العشرينات، وينحدر من مدينة براغ. كان هاربًا من أوروبا التي دمَّرتْها أهوالُ الحرب العظمى. كان يجهل الكاتالانيَّة والقشتاليَّة كلّيًّا، لكنَّه يجيد التعبيرَ بالفرنسيَّة والألمانيَّة بطلاقة. لم يكن لديه مال أو أصدقاء أو معارف في تلك المدينة الصعبة والقاسية. أمضى أوَّلَ ليلةٍ له في برشلونة بالسجن، بعد أن كان قد غفا في بهو بنايةٍ لاتِّقاء البرد. زُجَّ في زنزانةٍ مع مُتَّهَمَيْن اثنين بالسرقة والسطو وإضرام حريقٍ مُتعمَّد. أشبعه رفيقاه ضربًا، بحُجَّة أنَّ تردّي البلاد سببُهُ الأجانبُ الحقراءُ الذين على شاكلته. وكانت كسورُ أضلاعه الثلاثة، والرضوضُ، والإصاباتُ الداخليَّةُ، ستُشفى مع الزمن، لكنَّه خسر أذنَهُ اليسرى إلى الأبد. «إصابةٌ في العصب» شخَّصَها الأطبَّاء. بدايةٌ سيِّئة. لكنَّ كولڤينيك قال إنَّ ما يبدأ بصورةٍ سيِّئة لا بدَّ أن يتحسَّن. وبعد عشر سنوات، أصبح كولڤينيك واحدًا من أثرى الرجال المُتنفِّذين في برشلونة.

*

في مستوصف السجن، تعرَّف على الذي سيغدو لاحقًا أفضلَ صديقٍ لديه: طبيبٌ شابٌّ من أصول بريطانيَّة، يُدعى جون

شيلي. كان الطبيبُ شيلي يتدبَّرُ أمرَه بالألمانيَّة، وله خبرةٌ مباشرةٌ بمصاعب أن يكونَ المرءُ أجنبيًّا في أرضٍ غريبة. وبفضله حصل كولڤينيك، بعد خروجه من السجن، على عملٍ في شركةٍ صغيرة تُسمَّى بيلو-غراني. كانت الشركةُ تُصنِّعُ مُستَلزَمات التجبير وأطرافًا صناعيَّة. إذ إنَّ النزاعَ مع المغرب، والحربَ العظمى في أوروبا، خلقا طلبًا واسعًا على هذا النوع من المنتجات. فمن أجل تعزيز أمجاد المصرفيِّين، والضبَّاط، والوزراء، وسماسرة البورصة، وآباء الوطن الآخرين، بُتِرَت أطرافُ آلاف الرجال، وأصبحوا مُعوَّقين مدى الحياة، في سبيل الحرّيَّة، أو الديمقراطيَّة، أو الإمبراطوريَّة، أو العرق أو الراية.

وكانت ورشاتُ البيلو-غراني تقع بجانب سوق البورني. تضمُّ صناديقَ زجاجيَّةً ممتلئةً بأذرعٍ وأعينٍ وسيقانٍ ووصلاتٍ اصطناعيَّة، تُذكِّرُ زوَّارَها بهشاشة الجسد البشريّ. وبفضل الراتب المتواضع وتوصية الشركة، نجح كولڤينيك بالحصول على مأوى في شقَّةٍ بشارع البرنسيسة. قارئٌ نهم، تعلَّمَ أن يدافعَ عن نفسه بالكاتالانيَّة والقشتاليَّة على حدٍّ سواء، في غضون عامٍ ونصف العام. وسرعان ما اعتمد على موهبته وذكائه لكي يغدو واحدًا من الموظَّفين الذين لا غنى عنهم في الشركة. كان كولڤينيك يتمتَّعُ باطِّلاعٍ واسعٍ في مجال الطبّ والجراحة والتشريح. صمَّمَ آليَّةً ثوريّةً قائمةً على الضغط الهوائيّ، تتيح للساق والذراع الاصطناعيَّتين تحريكَ المفصل. كان جهازُهُ يتفاعل مع الإشارات العضليَّة، ويُزوِّدُ المريضَ بحركةٍ غير مسبوقة. أوصل اختراعُهُ شركةَ بيلو-غراني إلى ريادة هذا القطاع. وما كانت تلك سوى

البداية. إذ لم تتوانَ منضدةُ تصميماته عن إنجاز النماذج بلا هوادة، حتّى عُيِّنَ البراغيُّ كبيرَ مهندسي التخطيط والتطوير في المعمل.

وبعد شهر، وُضِعَت موهبةُ كولڤينيك الشابّ على المحكّ، جرَّاء حادثٍ مؤسفٍ ورهيبٍ تعرَّضَ له ابنُ مؤسِّس الشركة في المعمل: المكبسُ الهيدروليكيُّ، الشبيهُ بفكّ التنِّين، قطع يديه كلتيها. عمل كولڤينيك طوال أسبوعٍ بلا توقُّف لصناعة يدين جديدتين، من الخشب والحديد والخزف، على أن تستجيبَ الأصابعُ لتحكُّم عضلات وأوتار الساعد. كان الحلُّ الذي فكَّرَ فيه كولڤينيك يقوم على الإفادة من الإشارات الكهربائيَّة التي تُولِّدُها الإثاراتُ العصبيَّةُ في الذراع لتحريك المفصل. وبعد أربعة أشهرٍ من الحادث، خرجت الضحيَّةُ بيدين آليَّتين، تكفل له إمساكَ أشياء، وإشعالَ سيجارة، وتزريرَ قميصه بمفرده. اتَّفق الجميع على الجزم بأنَّ كولڤينيك تخطَّى حدودَ الخيال. حتّى هو نفسه، وكان يعفُّ عن المديح والثناء، أكَّدَ أنَّه بصدد نشوء عِلم جديد. كافأه مؤسِّسُ البيلو-غراني على عمله المُتقَن، بأن عيَّنَهُ مديرًا عامًّا للشركة، وتبرَّعَ له بحصَّةٍ كبيرةٍ من الأسهم تجعله أحدَ مُلَّاكها افتراضيًّا، بجانب الرجل الذي أمدَّهُ الجهازُ المُبتَكَرُ بيدين جديدتين.

اتَّخذت البيلو-غراني تحت إدارة كولڤينيك نهجًا جديدًا. وسَّعَت سوقَها ونوَّعَت خطوطَ إنتاجها. واعتمدت رمزًا من فراشةٍ سوداء مبسوطة الجناحين، وهذا ما لم يُفسِّر كولڤينيك معناه قطّ. كما وُسِّعَ المعملُ بغية إصدار مُستَلزَماتٍ اصطناعيَّةٍ جديدة:

أطرافٌ مفصليَّة، صمَّاماتٌ للدورة الدمويَّة، أليافٌ عظميَّة، وما لا يُعدُّ أو يُحصى من أجهزةٍ أخرى. اكتظَّت ملاهي التيبيدابو بآلاتٍ ابتكرها كولڤينيك لتزجية الوقت ولغاياتٍ تجريبيَّة. وصارت البيلو-غراني تُصدِّرُ إلى أوروبا كلِّها، وأميركا وآسيا. فصعدت قيمةُ الأسهم وثروتُهُ الشخصيَّةُ إلى النجوم، لكنَّه أبى مرارًا أن يهجرَ الشقَّةَ المتواضعةَ بشارع البرنسيسة. لا داعيَ لذلك، على حدّ قوله. فهو رجلٌ وحيد، يعيش حياةً بسيطة، وهذا البيت يكفيه هو وكتبه.

تغيَّرَ هذا المشهدُ جذريًّا بنزول بيدقٍ آخر على الرقعة. إيڤا إيرينوڤا، بطلةُ عرضٍ جديدٍ وناجحٍ في المسرح الملكيّ. كانت الشابَّةُ، ذات الأصول الروسيَّة، قد أتمَّت أعوامها التسعة عشر توًّا. ويُشاعُ أنَّ جمالَها سببٌ في انتحار عددٍ كبيرٍ من نبلاء باريس وفيينا وعواصمَ أوروبيَّةٍ أخرى. إيڤا إيرينوڤا، يرافقها على الدوام حارسان غريبا الأطوار: التوأم سيرغي وتاتيانا غلازونوف. كان الأخوان غلازونوف يتصرَّفان على أنَّهما وكيلا إيڤا إيرينوڤا ووصيَّان عليها. قيل إنَّ سيرغي والنجمةَ الشابَّةَ كانا على علاقةٍ غراميَّة، وأنَّ تاتيانا المخيفة تنام في تابوتٍ في حفرة أوركسترا المسرح الملكيّ، وأنَّ سيرغي أحد قتلة آل رومانوف، وأنَّ بمستطاع إيڤا التحدُّث إلى أرواح الموتى... شائعاتٌ من العجائب والغرائب، تليق بشخصيَّة روكامبول الخياليَّة، ويتقوَّلُها روَّادُ عالَم الترفيه لتعزيز شهرة إيرينوڤا الحسناء، التي أمسكت برشلونة بقبضتها.

وصلت أسطورتُها إلى مسمع كولڤينيك، فدفعه فضولُهُ إلى

الذهاب ذات مساءٍ إلى المسرح ليتحقَّقَ شخصيًّا من سبب ذلك الجدل الكبير. افتُتِنَ بها في ذلك المساء تمامًا. وتحوَّلت غرفةُ تبديل ملابس إيڤا إيرينوڤا منذئذٍ إلى سريرٍ ورديٍّ حرفيًّا. وبعد شهرين من الاكتشاف، قرَّرَ كولڤينيك أن يستأجر شرفةً في المسرح، حيث كان يتوجَّهُ كلَّ مساءٍ ليتأمَّلَ معبودتَهُ مبهورًا. ومن نافل القول أنَّه أصبح حديثَ الساعة وأضحوكةَ المدينة برمَّتها. ففي أحد الأيَّام استدعى محاميه، وأوعز إليهم بتقديم عرضٍ مُغرٍ لرجل الأعمال دانيال ميستريس. كان يريد الاستحواذَ على ذلك المسرح القديم، وتحمُّلَ كافَّة ديونه. إذ نوى أن يُعيدَ إعماره من أساساته، لتحويله إلى أهمّ منصَّةٍ في أوروبا كلِّها: مسرحٍ مُدهِشٍ مُزوَّدٍ بالتكنولوجيا المُتطوِّرة ومُكرَّسٍ لحبيبته إيڤا إيرينوڤا. استسلمت إدارةُ المسرح أمام عرضه السخيّ. وسُمِّيَ المشروعُ الجديد بـ«المسرح الملكيّ الكبير». وفي اليوم التالي، اقترح كولڤينيك، بلغته الروسيَّة التي لا يُشَقُّ لها غبار، على إيڤا إيرينوڤا بأن تتزوَّجَه. فوافقت.

*

خطَّطَ الاثنان للانتقال بعد الزفاف إلى دارٍ خياليَّة، كان كولڤينيك قد أمر ببنائها بجانب منتزه غويل. سلَّمَ بنفسه مُسوَّدةً عن تصميم القصر المنيف للإستديو المعماريّ سونيير بالسيس اي بارو. قيل إنَّه لم تُنفَقْ أموالٌ بهذا القدْر على بناء مسكنٍ خاصّ في تاريخ برشلونة كلِّه، وهذه بحدّ ذاتها مبالغة. ولكن لم يُذهَلِ الجميعُ بهذه الخرافة. فشريكُ كولڤينيك في البيلو-غراني

مثلًا، لم يرَ هذا الهوسَ بعين الرضا. كان يخشى أنَّه يختلس من ميزانيَّة الشركة لتمويل مشروعه المجنون بجعل المسرح الملكيّ الأعجوبةَ الثامنة للعالَم الحديث. ولم يكن بعيدًا عن الحقيقة كثيرًا. إذ شاعت في المدينة أقاويلُ مُتَّصِلةٌ بممارساتٍ مشبوهة من جانب كولڤينيك. أُثيرَت شكوكٌ حول ماضيه، وصورة «الرجل العصاميّ» التي ما انفكَّ يُضفيها على نفسه. وكانت معظمُ تلك الشائعات تتلاشى حتّى قبل أن تصل إلى صفحات الجرائد، بفضل شراسة المكتب القانونيّ لشركة بيلو-غراني. فلطالما ردَّدَ كولڤينيك أنَّ المالَ لا يشتري السعادة، لكنَّه يشتري كلَّ ما تبقَّى.

وحتّى سيرغي وتاتيانا غلازونوف، مُرافِقا إيڤا إيرينوڤا المُرعِبَان، اعتبرا أنَّ مستقبلهما يتهدَّد. إذ لا مكان مُخصَّصًا لهما في المسكن الجديد. استبق كولڤينيك نشوبَ أزمةٍ مع التوأم، وعرض عليهما مبلغًا سخيًّا لفسخ العقد المزعوم مع إيڤا إيرينوڤا. وفي المقابل، تعيَّنَ عليهما مغادرةُ البلاد، والتزامُهما بعدم العودة يومًا، وعدم محاولة التواصل مع الفتاة مطلقًا. جُنَّ جنونُ سيرغي، رفض العرضَ رفضًا قاطعًا، وأقسم أنَّه لن يتركه وشأنه أبدًا.

وفي فجر ذاك اليوم نفسه، وبينما كان سيرغي وتاتيانا خارجين من إحدى بنايات شارع سانت باو، انهالت عليهما رشقةٌ ناريَّةٌ من مركبة وكادت تقضي عليهما. نُسِبَت محاولةُ الاغتيال إلى الأناركيِّين. وبعد أسبوع، وقَّعَ التوأمُ وثيقةً تنصُّ على تعهُّدهما بفسخ العقد مع إيڤا إيرينوڤا والاختفاء إلى الأبد. وحُدِّدَ موعدُ

زواج ميخائيل كولڤينيك بإيڤا إيرينوڤا في ٢٤ يونيو ١٩٣٥.
الموقع: كاتدرائيَّةُ برشلونة.

*

أُقيِمَ الحفلُ، الذي قُورِنَ بتتويج الملك ألفونسو الثالث عشر، في صباحٍ مُشرِق. تجمَّعَت الحشودُ على امتداد جادّة الكاتدرائيَّة ليستمتعوا بأبَّهة المشهد وفخامته. لم تكن إيڤا إيرينوڤا ساطعةَ الجمال كما كانت عليه يومئذ. عزفت أوركسترا المعهد أنغامَ مارش الزفاف، من تأليف فاغنر، على أعتاب الكاتدرائيَّة، ونزل العروسان نحو عربةٍ تجرُّها خيولٌ بيضاء، كانت بانتظارهما. وقبل أن يصلا إليهما بمترين، اجتاز شخصٌ مّا الشريطَ الأمنيَّ وانقضَّ على العروسين. صاح أحدهم ليُحذِّرَهما. التفت ميخائيل كولڤينيك، فاصطدم بعينَي سيرغي غلازونوف المُحتَقِنَتين بالدماء. لم يستطع أيٌّ من الحضور أن ينسى ما وقع في تلك اللحظة. أخرج غلازونوف قارورةً زجاجيَّة وألقى محتواها على وجه إيڤا إيرينوڤا. أحرق الأسيدُ طرحةَ العروس وأحالها إلى غيمةٍ من بخار. ودوَّتْ صرخةٌ مزَّقَتِ السماء. اندلعت الفوضى العارمةُ في الحشد، واستطاع المعتدي بلمح البصر أن يتوارى بين الناس.

جثم كولڤينيك بجانب زوجته وأخذها بين ذراعيه. كانت ملامحُ إيڤا إيرينوڤا الجميلةُ تذوب جرَّاء الأسيد كألوانٍ مائيَّة في الماء. تقشَّرَت البشرةُ المُتلظِّيةُ كأنَّها من رقٍّ مُشتَعِل، وفاضت رائحةُ اللحم المحترق في الأجواء. وفَرَ الأسيدُ عيني الشابَّة،

اللتين ما فتئتا تبثّان الروعَ والألم. وفي محاولةٍ منه لإنقاذ وجه زوجته، غطّاه كولڤينيك بيديه، لكنَّه لم يتمكَّن إلّا من انتزاع أشلاء اللحم الميّت فيما كان الأسيدُ يحرق قفّازيه. وعندما غابت إيڤا عن الوعي في النهاية، استحال وجهُها إلى قناعٍ بشعٍ من عظمٍ ولحمٍ حيّ.

*

لم تُفتَتَح أبوابُ المسرح الملكيّ المُحدَّث إطلاقًا. فبعد المأساة، أخذ كولڤينيك زوجتَهُ إلى القصر، ما إن أُنجِزَ بناؤه، قرب منتزه غويل. ولم تطأ إيڤا قدمًا خارج البيت بعد. فقد شوَّهَ الأسيدُ وجهَها كلّيًا، وشرَّخَ حبالها الصوتيَّة. قيل إنَّها باتت تتواصل عن طريق الكتابة على دفتر ملاحظات، وأنَّها تمضي أسابيعَ كاملة دون الخروج من جناحها.

وفي تلك الفترة، اتَّضحَ أنَّ أزماتِ البيلو-غراني الماليَّةَ أخطرُ ممّا كان يُخشى. شعر كولڤينيك أنَّه مُحاصَرٌ، وما لبث أن كفَّ عن الظهور في الشركة. وكانوا يُبرِّرون ذلك بأنَّه أُصيبَ بمرضٍ غريبٍ أجبره على البقاء في البيت وقتًا أطول. طفت على السطح خروقاتٌ إداريَّةٌ وصفقاتٌ مشبوهةٌ ارتكبها كولڤينيك بنفسه في الماضي. وتوالت الشائعاتُ المُغرِضةُ والتُّهمُ المُبيَّتةُ بشدَّةٍ رهيبة. فصار كولڤينيك، المُنعَزِلُ في مخبأه رفقة حبيبته إيڤا، بطلًا في أسطورةٍ سوداء. منبوذ. استولَت الحكومةُ على أصول الشركة، وباشرت السلطاتُ القضائيَّةُ تحقيقًا في القضيَّة، التي تجاوزت الألف صفحة ما إن فُتِحَت.

خسر كولڤينيك ثروته خلال السنوات اللاحقة. وتحوَّلَ قصرُهُ إلى أطلال قلعةٍ مُظلِمة. وهجرهما الخدمُ بعد أشهرٍ بلا راتب. ولم يبق له مُخلِصٌ سوى سائقه الشخصيّ. وانتشرت شائعاتٌ مُفزِعةٌ من كلّ نوع. قيل إنَّ كولڤينيك وزوجته يعيشان وسط الجرذان، ويتسكَّعان في ممرَّات ذلك القبر الذي انغلقا فيه وهما حيَّان بملء إرادتهما.

وفي ديسمبر ١٩٤٨، شبَّ حريقٌ هائلٌ ليُدمِّرَ قصرَ كولڤينيك. كتبت صحيفةُ إل بروسي أنَّ النيرانَ رُصِدَت من ماتارو، وهي مسافةٌ كبيرة. ومَن يتذكَّر الحريقَ يؤكِّد أنَّ سماءَ برشلونة تحوَّلت إلى لوحٍ قرمزيّ، وأنَّ سُحُبًا من رمادٍ اجتاحت المدينةَ فجرًا، بينما كانت الحشودُ تراقب الأنقاضَ المشتعلة. عُثِرَ على جثّتَي كولڤينيك وإيڤا مُتفحِّمتين، ومتشابكتين في عناقٍ أخير، في العُلِّيَّة. تلك هي الصورةُ التي ظهرت على الصفحة الأولى من جريدة الطليعة تحت عنوان: «نهاية حقبة».

وما إن أطلَّ العامُ ١٩٤٩ حتّى نسيت برشلونةُ حكايةَ ميخائيل كولڤينيك وإيڤا إيرينوڤا. كانت المدينةُ العظيمةُ تتغيَّرُ بلا رجعة، وبات لغزُ البيلو-غراني جزءًا من ماضٍ أسطوريّ، ومُدانًا بنسيانٍ محتوم.

١١

طاردتني حكايةُ بنخامين سينتيس طوال الأسبوع كأنَّها ظلٌّ خفيّ. وكلَّما فكَّرتُ فيها مليًّا راودني انطباعٌ أنَّ فيها قطعًا ناقصة. ما هي؟ هذه قضيَّةٌ أخرى. عذَّبتني هذه الخواطرُ ليلًا نهارًا وأنا أنتظر عودة خيرمان ومارينا بفارغ الصبر.

ففي العصر، بعد انتهاء الدروس، كنتُ أذهب إلى دارهما لأتأكَّدَ من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام. كافكا ينتظرني دائمًا عند باب المدخل، وفي بعض الأحيان يكون خارجًا بغنيمة صيدٍ يحملها بين فكَّيه. فأسكب له الحليبَ في القصعة وندردش قليلًا؛ بمعنى أنّي أُحدِّثُ نفسي خلال شربه الحليب. وكم فكَّرتُ في انتهاز غياب أصحاب البيت لاستكشاف ما فيه، لكنّي صمدتُ. إذ إنَّ صدى حضورهما كان ماثلًا في كلّ زاوية. اعتدتُ انتظارَ الغروب في تلك الدار الخالية، على دفء صحبتهما المُستَتِرة. أجلس في صالة اللوحات وأتمعَّنُ لساعاتٍ في بورتريهات زوجة خيرمان بلاو التي رسمها منذ خمسة عشر عامًا. فألمح فيها شَبَهًا من مارينا وهي ناضجة، من المرأة التي ستكون عليها، وأتساءل

عمّا إذا كنتُ أنا كذلك قادرًا، يومًا مّا، على إبداع شيءٍ من هذه القيمة. أو من أيّ قيمةٍ تكن.

*

وفي يوم الأحد، انغرستُ في محطَّة فرنسا كمسمار. ما زالت هنالك ساعتان على وصول القطار السريع قادمًا من مدريد. فخادعتُ الزمنَ بالتجوُّل في أرجاء المبنى. القطاراتُ والأشخاصُ المجهولون يتجمَّعون تحت طاق المحطَّة كالحجيج. ولطالما فكَّرتُ أنَّ محطَّاتِ السكك الحديديَّة القديمةَ هي من بين الأماكن السحريَّة النادرة التي ما تزال ماثلةً في العالَم. حيث تمتزج أشباحُ الذكريات وكلمات الوداع ببداية مئات الرحلات صوب وجهاتٍ بعيدة، بلا رجعة. «إن كنتُ سأضيع ذات يوم، فليبحثوا عنّي في محطَّة قطارات» قلتُ في نفسي.

انتشلتني صافرةُ القطار السريع من تأمُّلاتي الشاعريَّة. اقتحم القطارُ المحطَّةَ بأقصى سرعة. اتَّجه نحو رصيفه وصدحت مكابحُهُ. وتوقَّفَ ببطءٍ يتناسب مع وزنه الهائل. وبدأ المسافرون ينزلون، كوجوهٍ بلا أسماء. مسحتُ الرصيفَ بأنظاري، وقلبي يخفق بشدَّة. وسارت عشراتُ الوجوه المجهولة أمامي. حتّى شككتُ لوهلةٍ بأنّي أخطأتُ اليومَ، أو القطارَ، أو المحطَّةَ، أو المدينةَ، أو ربّما الكوكب بأسره. فإذا أنا أسمع صوتًا من خلفي لا تُخطِئُهُ الأذن.

- إنَّها لَمفاجأةٌ رائعة، يا عزيزي أوسكار. كم افتقدناك.

- وأنا أيضًا. - أجبتُ مُصافِحًا الرسَّامَ العجوز.

كانت مارينا تنزل من المقصورة. ترتدي الثوبَ الأبيضَ الذي سافرت به. ابتسمت لي بصمت، بعينين لامعتين.

- كيف هي مدريد؟ - ارتجلتُ، وحملتُ حقيبةَ خيرمان.

- بديعة الجمال. وأكبر بسبعة أضعافٍ ممّا كانت عليه في آخر مرَّةٍ زرتُها فيها. - قال خيرمان - إن لم تتوقَّف تلك المدينةُ عن الاتِّساع، فستطفح خارج حدود الهضبة عاجلًا أم آجلًا.

أدركتُ من طبقة صوته أنَّه في مزاج جيِّد وأنَّه مُفعَمٌ بحيويَّةٍ غير معهودة. فأملتُ أن يكون ذلك مُتعلِّقًا بأخبارٍ طيِّبة تلقَّاها من الطبيب في مستشفى السلام. وبينما كان خيرمان مُتَّجهًا نحو المخرج، ومُندَمِجًا مع حمَّال الحقائب المذهول في محادثةٍ عن مدى تطوُّر علوم السكك الحديديَّة، بقيتُ أنا ومارينا بمفردنا. كانت تشدُّ على يدي.

- كيف جرت الأمور؟ - همستُ - يبدو خيرمان مُبتَهِجًا.

- جرت بشكلٍ جيِّد. جيِّدٍ جدًّا. شكرًا على مجيئك لاصطحابنا.

- بل الشكر لكِ على عودتكِ. - قلتُ - برشلونة بدت مُقفِرَةً في الأيَّام الماضية... لديَّ كثيرٌ من المستجدَّات أُطلِعَكِ عليها.

أوقفنا سيَّارةَ أجرة قبالة المحطَّة، سيَّارة دودج قديمة الطراز، ضجيجُها يضاهي القطارَ السريع القادم من مدريد. وفي طريقنا من لاس رامبلاس، نظر خيرمان إلى الناس، والأسواق، وبسطات الأزهار، وابتسم بسرور.

- فليقولوا ما أرادوا، لكنَّ شارعًا كهذا لا وجودَ لمثيله في

أيّ مدينةٍ أخرى في العالَم يا أوسكار العزيز. ولا حتّى في نيويورك.

كانت مارينا تتَّفِقُ مع تعليقات أبيها، الذي بدا أنَّه وُلِدَ من جديد واستعاد شبابَهُ بعد تلك الرحلة.

- أليس الغد عطلة؟ - سأل خيرمان في لحظةٍ مّا.

- بلى. - أجبتُ.

- أي لن يكون لديك دروس.

- من الناحية التقنيّة، لا.

انفجر خيرمان ضاحكًا، وتراءى لي لوهلةٍ ما كان عليه في أيَّام شبابه، قبل أعوامٍ بعيدة.

- قل لي يا أوسكار العزيز، هل لديك التزامات؟

*

وصلتُ إلى دارهما في الثامنة صباحًا، كما طلب منّي خيرمان. وكنتُ في الليلة الماضية قد تعهَّدتُ لمُوجِّهي أنَّني سأُكرِّسُ ضِعفَ الوقت في الأسبوع اللاحق للدراسة، إن سمح لي بالخروج يوم الاثنين، الذي كان يوم عطلة.

- لا أدري ما الذي تُخفيه مُؤخَّرًا. هذا ليس فندقًا، لكنَّه أيضًا ليس بسجن. أنت مسؤولٌ عن تصرُّفاتك... - شدَّدَ الأب سيغي مُتشكِّكًا - آمل أنَّك تعي ما تفعل يا أوسكار.

وجدتُ مارينا في المطبخ. كانت تُحضِّرُ سلَّةً فيها شطائر وحافظةٌ حراريَّة للمشروبات. وكان كافكا يتابع كلَّ حركةٍ من حركاتها بإمعان، وهو يلعق شاربيه.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ - سألتُها بفضول.

- مفاجأة. - أجابت مارينا.

ظهر خيرمان بعد قليل، فَرِحًا ومَرِحًا. كان يرتدي بزَّةَ سائقِ سباق سيَّاراتٍ من عقد العشرينات. صافحني وطلب منّي أن أساعده في المرأب. أومأتُ موافقًا. لم أعرف بوجود مرأبٍ إلّا حينذاك. وفي الواقع كان هنالك ثلاثة، بحسب ما تحقَّقتُ منه في دوراني حول الدار رفقة خيرمان.

- يسعدني أنَّك انضممتَ إلينا يا أوسكار.

توقَّفَ عند المرأب الثالث، وكان عبارة عن سقيفةٍ بحجم منزلٍ صغيرٍ يعتليه اللبلاب. قرقع مزلاجُ الباب، ففاضت في الداخل المظلم غيمةٌ من رماد. كان المكانُ يبدو مغلقًا منذ عشرين عامًا على الأقلّ. بقايا درَّاجةٍ ناريَّةٍ قديمة، أدواتٌ صدئة، علبٌ مُكدَّسةٌ تحت رداءٍ غباريٍّ كثيف كسجَّادةٍ فارسيَّة. تراءى لي ستارٌ رماديٌّ ضخم يُغطّي ما ينبغي أن تكون سيَّارة. أمسك خيرمان طرفَ الستار وأشار إليَّ بتقليده.

- واحد... اثنان... ثلاثة!

سحبنا الستارَ بقوَّةٍ معًا فارتفع كطرحة العروس. وعندما تلاشت غيمةُ الغبار في الهواء، كشف لي الضوءُ الواهنُ، المُتسرِّبُ من بين الأشجار، عن رؤيةٍ عجيبة. سيَّارةٌ تاكر تخطفُ الأنظار، مصنوعةٌ في الخمسينات، خمريَّةُ اللون، بإطاراتٍ كروميَّة على العجلات، غافيةٌ وسط ذلك الكهف. نظرتُ إلى خيرمان، مذهولًا. فابتسم فخورًا.

- لم يعد لمثل هذه السيَّارات وجود، يا أوسكار العزيز.

- هل تنطلق؟ - سألتُ وعيناي تعانقان تلك التحفة.

- أنت في حضرة تاكر يا أوسكار. هذه السيَّارة لا تنطلق، بل تُقلِع.

*

وبعد ساعة، كنّا نمضي على منعطفات طريق الساحل. خيرمان على المقود، مُدجَّجًا ببزَّته التي تليق برائدٍ في سباق السيَّارات، وابتسامة مَن فاز باليانصيب. وكنّا أنا ومارينا نسافر بجانبه على المقعد الأماميّ، بينما ينام كافكا بطمأنينةٍ في المقعد الخلفيّ، المحجوز كلّيًّا لحضرته. وكانت كلُّ السيَّارات تسبقنا، لكنَّ مَن فيها يلتفت لينظرَ إلى التاكر بمزيجٍ من الدهشة والإعجاب.

- عندما تتفوَّقُ بالمكانة، تغدو السرعةُ أمرًا ثانويًّا. - أوضح خيرمان.

اجتزنا منطقة بلانيس ولم أفهم بعد إلى أين وجهتُنا. إذ كان خيرمان مُركِّزًا على المقود، ولم أرغب في تشويشه. كان يقود بالفروسيَّة نفسها التي يفعل فيها كلَّ شيء، مُفسِحًا الطريق حتّى للنمل، ومُحيِّيًا الدرَّاجين، والخيَّالة والراجلين من الحرس الوطنيّ. وبعد بلانيس، أشارت لافتةٌ طرقيَّة إلى البلدة الساحليَّة توسا دي مار. التفتُّ نحو مارينا، فغمزت لي بعين. تصوَّرتُ أنَّنا ذاهبون ربّما إلى قلعة توسا، لكنَّ التاكر لم تنعطف نحو البلدة، بل دلفت في طريقٍ ضيِّقٍ يتابع نحو الشمال. أقلُّ من طريق، شريطٌ إسفلتيٌّ مُعلَّقٌ بين السماء والجروف، يتلوَّى بسلسلةٍ من

المنعرجات الحادَّة. تبدَّى اتِّساعُ البحر ذي الزرقة الساطعة من بين أغصان الصنوبر التي تعانق المنحدرات الوعرة. وتحتنا بمئة مترٍ تقريبًا، تشكَّلَ مسارٌ سرّيٌّ من عشرات الخلجانِ والتعرُّجات الصعبة الوصول، يربط بين توسا دي مار وبونتا بريما، بجانب مرفأ سانت فيليو ذي غيشولس، على بُعد عشرين كيلومترًا.

وبعد عشرين دقيقة، ركن خيرمان التاكر على طرف الطريق. نظرت مارينا إليَّ، وأشارت بما ينمُّ أنَّنا وصلنا. نزلنا من السيَّارة واختفى كافكا بين أشجار الصنوبر، كأنَّه يعرف المكان. وبينما كان خيرمان يتحقَّقُ من المكبح اليدويّ، وأنَّ التاكر لن تنزلق إلى المنحدر، اقتربت مارينا من الجرف البحريّ. بلغتُها وتأمَّلتُ المنظر. ثمّة خليجٌ صغير على هيئة هلال، تحت أقدامنا، يعانق لسانًا من البحر الأخضر الصافي. وفي البعيد، تتعاقب الشطآنُ والأجرافُ بما يرسم قوسًا يصل حتّى بونتا بريما، حيث تعتلي قمَّتَهُ صومعةُ سانت إيلم، شامخةً كالرقيب.

- هيَّا بنا. - شجَّعتني مارينا.

تبعتُها داخل غابة الصنوبر. كان الدربُ يجتاز نطاقَ بيتٍ قديمٍ ومهجور، غزتْهُ الأجمات. ثمَّ يؤدّي إلى عتباتٍ محفورةٍ في الحجر، تفضي إلى شاطئٍ من حصىً ذهبيَّة اللون. نهض سربٌ من النوارس عاليًا عند مرورنا، بحثًا عن ملاذٍ على الجرف الذي يُتوِّجُ الشاطئ، ليُشكِّلَ ما يُشبِهُ كنيسةً مبنيَّةً من صخورٍ وبحرٍ وضوء. الماء صافيةٌ لدرجة اتِّضاح كلّ تجاعيد الرمل تحت السطح. وهناك مسلَّةٌ صخريَّة، ناتئةٌ في وسط الخليج، كأنَّها حيزومُ سفينةٍ جانحة. كان عطرُ البحر كثيفًا، ونسائمُهُ المُشبَعَةُ

بالملح تعانق الساحل. تاهت نظراتُ مارينا في المدى الفضّيّ المُتَّشِح بالضباب.

- هذا مكاني المُفضَّل في العالَم. - قالت.

*

أرادت مارينا أن تُطلِعَني على خبايا الجرف وتجاويفه. وسرعان ما أحسستُ أنَّ عظمةَ رقبتي ستنكسر أو أنّي سأهوي في الماء.

- تمهَّلي، فأنا لستُ عنزة. - أوضحتُ، أملًا بإضفاء الحسّ السليم على هذا التسلُّق الجبليّ بلا حبال.

تجاهلت مارينا توسُّلاتي، وتسلَّقت على جدران البحر الملساء، وانزلقت بين ثغرات الصخور حيث يتنفَّسُ المدُّ البحريُّ كحوتٍ مُتحجِّر. وذلك في حين كنتُ أخاطر بفقدان كرامتي، وأنتظر أن يُطبِّقَ القدرُ بين لحظةٍ وأخرى كلَّ بنود قانون الجاذبيَّة. وما لبثت أن تحقَّقَت توقُّعاتي بالفعل. قفزت مارينا فوق جزيرةٍ صغيرةٍ لتتفحَّصَ مغارةً بين صخور الجرف. فقلتُ في نفسي لا مانع من التجربة إن كانت مارينا قد نجحت فيها. لكنّي وجدتُ نفسي غارقًا حتّى الخصر في مياه البحر المتوسِّط. ارتجفتُ بردًا وخزيًا. نظرت إليَّ مارينا قلقةً، من موقعها في الأعلى.

- أنا بخير. - تأوَّهتُ - لم أتأذَّ.

- هل هي باردة؟

- إطلاقًا. - تعلثمتُ - إنَّها حساء.

ابتسمت مارينا، ونزعت ثوبها الأبيض على مرأى عينيَّ المبهورتين، وغطست في الماء. ظهرت بجانبي وهي تضحك. فهذا ضربٌ من الجنون، في ذلك الفصل من السنة خاصَّةً. لكنّي قرَّرتُ أن أجاريها. فسبحنا حتّى الشطّ بتجديفٍ ذراعيٍّ قويّ، ثمَّ استلقينا تحت الشمس على الحصى الدافئ. أحسستُ أنَّ قلبي ينبض في صدغيَّ، لستُ أدري أَبسبب الماء البارد أم بسبب ما تسنَّى لي رؤيته من خلال ملابسها الداخليَّة المبلَّلة. فطنت مارينا إلى نظراتي فسارعت لاستعادة ثوبها الذي تركتْهُ على الصخور. راقبتُها تمشي على الحصى، عضلاتُ جسمها مشدودةٌ تحت جلدها الرطب. مرَّرتُ لساني على شفتيَّ وشعرتُ بجوع ذئب.

*

أمضينا بقيَّة الظهيرة أمام ذلك الخليج المنعزل عن العالَم، نلتهم شطائرَ السلَّة بينما تروي لي مارينا الحكايةَ الفريدةَ لذلك البيت المهجور بين أشجار الصنوبر.

كان البيتُ مُلكًا لكاتبةٍ هولنديَّةٍ أصابها مرضٌ غريبٌ يجعلها عمياءَ شيئًا فشيئًا. أدركت الكاتبةُ مصيرَها، فقرَّرت أن تبني هذا المأوى على الجرف لتقضي فيه أيَّامَ بصرها الأخيرة، جالسةً قبالة الشاطئ ترنو إلى البحر.

- عاشت هنا صحبة ساشا، كلبٍ من سلالة الراعي الألمانيّ، وكتبها المُفضَّلة. - أوضحت لي مارينا - وعندما فقدت بصرها كلّيًّا، متأكِّدةً من عدم قدرتها بعدُ على مشاهدة بزوغ الضوء على البحر، طلبت من مجموعة صيَّادين يرسون عند

الخليج أن يهتمُّوا بساشا. وبعد أيَّام، ركبت قارب تجديفٍ عند الفجر، واندفعت به إلى عرض البحر. ولم يرها أحدٌ بعدئذ.

ظننتُ، لسببٍ مّا، أن حكايةَ الكاتبة الهولنديَّة كانت من وحي خيال مارينا، وألمحتُ لها بظنّي.

- الأحداثُ الحقيقيَّةُ غالبًا ما تقع في الخيال حصرًا يا أوسكار. - قالت - نحن لا نتذكَّرُ إلّا الأشياءَ التي لم تقع.

كان خيرمان غافيًا، قبَّعتُهُ تحجب وجهَه، وكافكا عند قدميه. نظرت مارينا إلى أبيها بحزن. فاغتنمتْ نومَهُ، وأمسكت يدي واتَّجهنا إلى أبعد نقطةٍ على الشاطئ. جلسنا هناك على سريرٍ من صخورٍ صقلتْها الأمواج، ورويتُ لها عن كلّ ما حدث في غيابها. لم أُغفِل أيَّ تفصيل، من الظهور المريب للمرأة التي ترتدي السواد في المحطَّة، ولغاية قصَّة ميخائيل كولڤينيك والبيلو-غراني التي حدَّثني بها بنخامين سينتيس، دون أن أنسى الحضورَ المشؤومَ للشبح في دارها خلال ذلك المساء العاصف. أصغت إليَّ صامتةً وسارحةَ البال، ونظراتُها تهيم في المياه التي تُشكِّلُ دوَّاماتٍ صغيرةً أسفل قدميها. وبقينا ساكتين هكذا، لم ننطق بكلمة، نتأمَّلُ في البعيد صومعةَ سانت إيلم.

- ماذا قال الطبيبُ في مستشفى السلام؟ - سألتُ في النهاية.

رفعت مارينا أنظارها. كانت الشمسُ تهبط، فكشف لي شعاعُها الذهبيُّ عن عينيها المغرورقتين بالدموع.

- قال إنّه لم يتبقَّ كثيرٌ من الوقت...

التفتُّ فرأيتُ خيرمان يُحيِّينا بيده. شعرتُ بغصَّةٍ في القلب، وبعقدةٍ عسيرةٍ تتكوَّنُ في حلقي.

- لكنَّه لا يُصدِّقُ ذلك. - قالت مارينا - وهذا أفضل.

نظرتُ إليها ثانيةً: مسحت دموعَها بسرعة، واستبدلتها بتعبيرٍ متفائل. فوجئتُ بنفسي أُحدِّقُ إليها، إذ راودتني شجاعةٌ مجهولةُ المصدر، فانحنيتُ على وجهها بحثًا عن شفتيها. حطَّت مارينا أصابعها على شفتيَّ وداعبت وجههي، وصدَّتني عنها برفق. ثمَّ نهضت وابتعدت. فتنهَّدتُ.

نهضتُ كذلك وذهبتُ إلى خيرمان، الذي كان يرسم على دفتر ملاحظاتٍ صغير. تذكَّرتُ أنَّه لم يمسك بيده قلمَ رصاصٍ أو فرشاةً منذ سنوات. رفع عينيه وابتسم لي.

- فلنرَ رأيك بالشَّبَه يا أوسكار. - قال بهدوء، وأراني الدفتر.

استحضرت لمساتُ قلم الرصاص وجهَ مارينا بإتقانٍ صادم.

- عظيم. - غمغمتُ.

- هل أعجبتك؟ هذا يسعدني.

كان ظلُّ مارينا يتبدَّى عند الطرف الآخر من الشاطئ، مُتسمِّرًا في وجه البحر. نظر خيرمان إليها ثمَّ إليَّ. انتزع الصفحةَ وأعطانيها.

- هذه لك يا أوسكار العزيز، كي لا تنسى ابنتي مارينا.

*

على طريق العودة، حوَّلَ الغروبُ البحرَ إلى لوحةٍ من نحاسٍ

مصهور. كان خيرمان يقود مبتسمًا، وما انفكَّ يروي القصصَ من سنواته التي أمضاها على مقود تلك التاكر القديمة. ومارينا تصغي إليه، وتضحك على طرائفه، وتحافظ على سير المحادثة بخيوطٍ خفيَّةٍ كالساحرة. أمّا أنا فكنتُ ألوذ بالصمت، وجبيني مسنودٌ إلى النافذة، ومزاجي في الحضيض. أمسكت مارينا يدي في منتصف الرحلة، وغمرتها بيديها بصمت.

وصلنا إلى برشلونة مع حلول الظلام. أصرَّ خيرمان على توصيلي إلى المدرسة الداخليَّة. ركن التاكر أمام البوَّابة وصافحني. ونزلت مارينا من السيَّارة ودخلت معي. كان حضورُها يُلهِبُني ولم أعرف كيف أخرج من ذلك الوضع.

- أوسكار، إن كان لديك ما...

- لا.

- اسمعني، هنالك أشياء لا يمكنك فهمها، ولكن...

- هذا واضح. - قاطعتُها - ليلة سعيدة.

استدرتُ لأهربَ عبر الحديقة.

- مهلًا. - قالت مارينا من عند البوَّابة.

توقَّفتُ بجانب البِركة.

- أريد منك أن تعلمَ أنَّ اليومَ كان واحدًا من أجمل الأيَّام في حياتي. - قالت.

التفتُّ لكي أجيب، لكنَّ مارينا كانت قد انصرفت.

*

صعدتُ السلالمَ كأنَّني أنتعل جزمةً من فولاذ. صادفتُ بعضَ الزملاء الذين نظروا إليَّ شزرًا، كما لو كنتُ دخيلًا. وكانت المدرسةُ برمَّتها تتهامس حول غياباتي الغامضة. ولم أكن أهتمّ. أخذتُ صحيفةً من على طاولة المستراح والتجأتُ إلى غرفتي. استلقيتُ على السرير، والصحيفةُ على صدري. سمعتُ أصواتًا في الممرّ. أضأتُ مصباحَ الدُّرج وانغمستُ في عالَم الصحيفة الذي اعتبرتُهُ عالَمًا يُنافي الواقع. بدا لي أنَّني أستقرأ اسمَ مارينا في كلّ سطر. «ستنقضي» قلتُ في نفسي. هدأ خاطري على تسلسل الأخبار. لا شيء أفضل للمرء من الاطلاع على مشكلات الآخرين لتناسي مشكلاته. حروب، احتيالات، جرائم، عمليَّات نصب، أناشيد، استعراضات، ومباريات كرة قدم. العالَمُ على ما هو عليه. تابعتُ القراءة، بهدوءٍ أكبر. فلمحتُ الخبرَ عندئذ. كان في فقرةٍ جانبيَّة، خبرٌ موجزٌ لملء الفراغ. طويتُ الصحيفة وقرَّبتُها إلى الضوء.

العثور على جثَّة في أحد أنفاق شبكة الصرف الصحّيّ بالحيّ القوطيّ

(برشلونة) غوستابو فيرثيو، فريق التحرير

عُثِرَ على جثَّة المواطن البرشلونيّ بنخامين سينتيس (ثلاثة وثمانون عامًا)، في فجر يوم الجمعة، عند فتحة المجرور الرابع من شبكة الصرف الصحّيّ بالبلدة القديمة. لا معلومات عن كيفيَّة وصول الجثَّة إلى ذلك المكان، المغلق منذ العام ١٩٤١. سبب الوفاة ذبحة قلبيَّة. غير أنَّ مصادرنا

أفادت أنَّ كلتا اليدين مبتورة من جسد المتوفَّى. وكان للمتقاعد بنخامين سينتيس سمعة سيِّئة في الأربعينات، وذلك لتورُّطه في فضيحة شركة بيلو-غراني، التي كان فيها شريكًا وصاحب أسهم. عاش سنواته الأخيرة منعزلًا في شقَّةٍ صغيرة بشارع البرنسيسة، ومُفلِسًا، وبلا أقارب.

١٢

لم يغمض لي جفنٌ في تلك الليلة، أمضيتُها أتفكَّرُ في الحكاية التي رواها لي سينتيس. قرأتُ نبأ وفاته مرارًا، على أمل استكشاف مفتاحٍ سرّيٍّ بين النقاط والفواصل. لقد أخفى عليَّ العجوزُ أنَّه كان شريكًا لكولڤينيك في البيلو-غراني. وإذا كانت بقيَّةُ حكايته مُتماسِكة، فهذا يعني أنَّه قد يكون ابنَ مؤسِّس الشركة، الابنَ الذي ورث خمسين بالمئة من الأسهم حين عُيِّنَ كولڤينيك مديرًا عامًّا. خلط هذا الاكتشافُ الأوراقَ على الطاولة. فإن كذب عليَّ سينتيس حول هذه النقطة، فلا بدَّ أنَّه كذب حول كلّ ما تبقَّى. فاجأني ضوءُ الصباح بينما كنتُ أبحث عن تفسيرٍ لمعنى هذه القصَّة وخاتمتها.

وفي يوم الثلاثاء نفسه، هربتُ خلال استراحة منتصف النهار لألتقي مارينا.

كانت كما في كلّ مرَّةٍ تبدو أنَّها استقرأت أفكاري، إذ وجدتُها بانتظاري في الحديقة مع نسخةٍ من صحيفة اليوم السابق بين يديها. اكتفيتُ بنظرةٍ بسيطة لأفهمَ أنَّها قرأت خبرَ وفاة سينتيس.

- لقد كذب عليك ذلك الرجل. . .

- وقد مات الآن.

ألقت مارينا نظرةً سريعةً إلى الدار، كأنَّها تخشى أن يسمعنا خيرمان.

- حبَّذا لو قمنا بجولة. - اقترحتْ.

وافقتُ، مع أنَّي كنتُ مضطرًّا إلى العودة إلى المدرسة بعد أقلّ من نصف ساعة. ساقتنا خطواتُنا نحو منتزه سانتا أميليا، عند مشارف حيّ بيذرالبيس. ثمّة عمارةٌ رُمِّمَت مؤخَّرًا، لتصبح مركز فعاليّات مدنيَّة، في وسط المنتزه. وكانت إحدى صالاتُها القديمةُ تضمُّ مقهى. جلسنا إلى طاولةٍ بجانب نافذة كبيرة. قرأت مارينا الخبرَ بصوتٍ مرتفع، وكنتُ قد حفظتُهُ عن ظهر قلب تقريبًا.

- الخبر لا يشير البتَّة إلى احتماليَّة جريمة قتل. - ارتجلت في النهاية، بما لا ينمُّ عن يقينٍ كامل.

- لا حاجة إلى الإشارة. رجلٌ عاش طوال عشرين سنة منعزلًا في شقَّة، عُثِرَ عليه جثَّةً في مجاري الصرف، ناهيك بأنَّ أحدهم استمتع بانتزاع يديه من جسمه قبل أن ينصرف عنه. . .

- موافقة. جريمةُ قتل.

- وأكثر من جريمة قتل. - قلتُ بأعصابٍ مشدودة - ما الذي كان سينتيس يفعله، في قلب الليل، داخل نفقٍ مهجورٍ من شبكة الصرف الصحّيّ؟

كان هناك نادلٌ ملولٌ يُنشِّفُ الكؤوس خلف المشرب، ويسترق السمع إلينا.

- أخفِضْ صوتك. - همست مارينا.

أومأتُ وحاولتُ أن أهدأ.

- لعلَّه يجدر بنا الذهاب إلى الشرطة، لنروي لهم ما نعرفه.

- اقترحت مارينا.

- لكنَّنا لا نعرف شيئًا. - اعترضتُ.

- ربّما نعرف أكثر منهم. فمنذ أسبوع، تُوصِلُ إليك امرأةٌ غامضةٌ بطاقةً تحتوي على رمز الفراشة السوداء وعنوان سينتيس. فتذهب أنت لتلاقيه، فيدَّعي أنَّه ليس على درايةٍ بشيء، لكنَّه يحكي لك قصَّةً عجيبةً عن ميخائيل كولڤينيك وشركة بيلو-غراني، المُتورِّطة في أعمالٍ مشبوهةٍ قبل أربعين عامًا. ولسببٍ مجهول، ينسى أن يخبرك بأنَّه كان من جانبه ضالعًا بتلك القصَّة، بصفته ابنَ الشريك المؤسِّس، الرجلَ الذي ابتكر كولڤينيك من أجله يدين اصطناعيَّتين عقب حادثٍ في المعمل... ثمَّ بعد سبعة أيَّام، يُعثَرُ على جثَّة سينتيس في المجاري...

- من دون اليدين المُركَّبتين... - أضفتُ، وتذكَّرتُ أنَّ سينتيس تجنَّبَ مصافحتي حين التقينا.

اقشعرَّ بدني على فكرة تلك اليد الجامدة.

- لسببٍ نجهله، كان دخولُنا إلى تلك الدفيئة يعني فعليًّا أنَّنا تدخَّلنا في مُخطَّطات أحدهم. - قلتُ محاولًا أن أُرتِّبَ الأفكارَ في ذهني - والآن، نحن كذلك مُتورِّطان. السيِّدةُ ذات السواد بحثت عنّي لتعطيني تلك البطاقة...

- أوسكار، لسنا متأكِّدين أنَّها كانت تبحث عنك تحديدًا، وخاصَّةً أنَّنا لا نعرف أسبابَها. لا نعرف حتّى مَن هي...

- لكنَّها تعرف مَن نكون وأين تجدنا. وإن كانت على علمٍ بكلّ هذا...

تنهَّدت مارينا.

- فلنتواصل مع الشرطة فورًا، ولننسَ هذا الأمرَ بأسرع وقت. - قالت - لا يعجبني، ثمَّ إنَّه ليس شأننا.

- شأنُنا، بلى. منذ أن قرَّرنا اللحاقَ بالمرأة في المقبرة.

أشاحت مارينا أنظارها نحو المنتزه. هنالك طفلان يلعبان بطائرةٍ ورقيَّة، ويحاولان تسييرها باتِّجاه الريح. فغمغمت بنبرةٍ متثاقلة، دون أن تحيدَ عينيها عنهما:

- ما الذي تقترحه إذًا؟

كانت تعلم بالضبط ما الذي يدور في خُلدي.

*

غابت الشمسُ خلف كنيسة ساحة ساريّا عندما دلفنا أنا ومارينا في جادَّة بونانوبا باتِّجاه الدفيئة. تزوَّدنا بمصباحٍ يدويٍّ وعلبةٍ من أعواد الثقاب. انعطفنا إلى شارع إراديير وتوغَّلنا في الأزقَّة المنعزلة والمحاذية للسكك الحديديَّة. تناهى إلى مسمعنا، من بين الأشجار، صدى القطارات التي تصعد التلَّة نحو بايبيذريرا. وسرعان ما وجدنا الزقاقَ الذي فقدنا فيه أثرَ السيِّدة ذات السواد، والبوَّابة التي تحجب الدفيئة.

كان الطريقُ الحجريُّ مفروشًا بسجَّادةٍ من أوراقٍ يابسة. ظلالٌ هلاميَّةٌ تتمدَّدُ حولنا بينما نشقُّ طريقنا بين الحشائش. الأجماتُ تتمايل مع الريح، ووجهُ القمر يبتسم من بين فجوات

السحاب. وإذ هبط الظلامُ، ذكَّرني اللبلابُ الذي يغطّي الدفيئةَ بحشد ثعابين. درنا حول المبنى ووجدنا البابَ في الخلف. أنار ضياءُ عود ثقابٍ رمزَ كولڤينيك والبيلو-غراني، محجوبًا بالطحالب. ابتلعتُ ريقي ونظرتُ إلى مارينا: كانت شاحبةً كجثَّة.

- أنت مَن اقترح فكرةَ المجيء إلى هنا... - قالت.

أضأتُ المصباح، فثقب نورُهُ الورديُّ ظلامَ الدفيئة. ألقيتُ نظرةً إلى الداخل قبل أن نلجَ فيه. بدا لي ذلك المكانُ في النهار مشؤومًا؛ أمّا آنذاك، في الليل، فكان مشهدًا كابوسيًّا. كانت حزمةُ الضوء تكشف عن جوانبَ مُتعرِّجة بين الأنقاض. تقدَّمتُ متبوعًا بمارينا، والمصباحُ مُوجَّهٌ أمامي. وكم قرقعت الأرضيَّةُ الرطبةُ تحت أقدامنا. فاستقبلنا صوتٌ مُرعِب، صادرٌ عن تلامس الدمى بعضها ببعض. توقَّفتُ لأستمعَ إلى كفن الظلال في قلب الدفيئة. لم أستطع أن أتذكَّرَ حينذاك، إن كنّا في المرَّة السابقة قد رفعنا منظومةَ الأجسام الخشبيَّة عاليًا، أم أخفضناها، إبّان خروجنا. نظرتُ إلى مارينا، ففهمتُ أنَّها تُفكِّرُ في الأمر ذاته.

- دخل أحدهم إلى هنا في الأثناء... - قالت وهي تشير إلى الدمى المتدلّية من السقف على ارتفاعٍ متوسِّط.

ثمّة بحرٌ من أقدامٍ تتأرجح قبالتنا. شعرتُ برعشة ذعرٍ أسفل رقبتي حين أدركتُ أنَّ أحدًا مّا أخفضها من جديد. ركضتُ نحو المكتب كسبًا للوقت، وناولتُ المصباحَ لمارينا.

- عمَّ نبحث؟ - همست.

أشرتُ إلى الألبوم ذي الصور القديمة على الطاولة. أمسكتُهُ ووضعتُهُ في الحقيبة التي كنتُ أحملها على كتفي.

- هذا الألبوم ليس لنا، أوسكار، لا أدري إن كان من حقِّنا أن...

تجاهلتُ احتجاجها وجثوتُ لأتحرَّى في أدراج المكتب. كان الأوَّلُ يحتوي على أدواتٍ صدئة من شتّى الأنواع: سكاكين، أشواك، مناشير بأسنانٍ مُستَهلَكة. والدُّرج الثاني فارغ. هنالك مستعمرةٌ من عناكب سوداء صغيرة تتراكض في العمق بحثًا عن ملجأ بين شقوق الخشب. أغلقتُهُ وجرَّبتُ حظّي مع الدُّرج الثالث. كان مُقفَلًا.

- ما الذي يحدث؟ - همست مارينا، بصوتٍ مشحونٍ بالتوتُّر.

أخذتُ سكِّينًا من الدُّرج الأوَّل وحاولتُ خلعَ القفل. كانت مارينا، خلفي، تحمل المصباح، وتراقب الظلال المتراقصة التي تنزلق على جدران الدفيئة.

- هل ستستغرق وقتًا طويلًا؟

- اطمئنّي. دقيقة واحدة.

استشعرتُ لسانَ القفل بنصل السكّين. استتبعتُ أطرافَهُ، وحفرتُ حوله. كان الخشبُ اليابسُ، الغثُّ، يتراخى بسهولةٍ على ضغطي، ويُصدِرُ فرقعةً عالية. جلست مارينا القرفصاء بجانبي ووضعت المصباح على الأرض.

- ما هذا الصوت؟ - سألتني فجأة.

- لا شيء. إنَّه خشبُ الدُّرج، يتراخى...

حطَّت يدًا على يديَّ لتُوقِفَ حركتي. غمرنا الصمتُ لوهلة.

أحسستُ بنبض مارينا المتسارع على يدي. وحينذاك سمعتُ الصوتَ أنا أيضًا. كانت الدعائمُ في الأعلى تقرقع. شيءٌ مّا يتحرَّكُ بين الدمى المُعلَّقة في الظلام. فتحتُ عينيَّ على وسعهما، فأسعفني الوقتُ لألمحَ حوافَّ ذراعٍ تتلوَّى، أو هذا ما ظننتُ أنّي رأيتُهُ. انفصلت إحدى تلك العرائس من الدعامة، وزحفت كأفعى على أغصان. ثمَّ تحرَّكت عرائسُ أخرى في الآن ذاته. شددتُ بقبضتي على السكّين ونهضتُ، مرتجفًا. وفي تلك اللحظة تمامًا، دفع أحدهم أو شيءٌ مّا المصباحَ بعيدًا عن أقدامنا. فتدحرج إلى زاوية، وغرقنا في ظلامٍ دامس. وحينذاك سمعنا فحيحًا يدنو.

أمسكتُ يدَ صديقتي وهُرِعنا نحو المخرج بينما كانت المنظومةُ الآليَّةُ تتساقط ببطء، وأذرعٌ وسيقانٌ لا تُعدُّ تلمس رأسينا، وتحاول التشبُّثَ بثيابنا. أحسستُ بأصابع حديديَّةٍ على رقبتي، في حين كانت مارينا إلى جانبي تصيح. دفعتُها أمامي، محاولًا عبورَ ذلك النفق الذي تشكَّلَ من مخلوقاتٍ تهبط من الظلمات. وكان ضوءُ القمر المتسرِّبُ من بين فراغات لبلاب الدفيئة يكشف عن رؤىً لوجوهٍ نازفة، وعيونٍ زجاجيَّة، وأطقم أسنانٍ مصقولة.

لوحَّتُ بالسكّين يمينًا شِمالًا. شعرتُ أنّي أصبتُ جسدًا صلبًا. بلَّلَ سائلٌ كثيفٌ أصابعي. سحبتُ يدي؛ كان شيءٌ مّا يجرُّ مارينا نحو الظلمة، وهي تصرخ مذعورةً. استطعتُ أن ألمحَ وجهًا بلا نظرات، محاجر فارغة وسوداء، وجهَ الراقصة الخشبيَّة. كانت تخنق مارينا بأصابع حادَّة كموس الحلاقة. وجهُها مطموسٌ بقناعٍ من جلدٍ ميِّت. انقضضتُ عليها بكلّ قوَّتي

ورميتُها أرضًا. ركضتُ ومارينا نحو الباب بينما كان جسمُ الراقصة المقطوعُ الرأسَ ينهض ثانيةً، دميةٌ تُحرِّكُها خيوطٌ خفيَّةٌ، وتُلوِّحُ بمخالب تصطكُّ كالمقصّ.

وحين خرجنا رأيتُ عدَّة أطيافٍ قاتمةٍ تتتبَّعُ خطانا نحو المخرج. فركضنا في الاتِّجاه المعاكس ووصلنا إلى مرأبٍ ملتصقٍ بجدارٍ يفصل المكانَ عن سكك القطار. كانت أبوابُهُ الزجاجيَّةُ مكسوَّةً بوسخٍ متراكمٍ منذ عقود. ومغلق. كسرتُ الزجاجَ بمرفقي وتلمَّستُ القفل. تراخى المقبضُ وانفتح البابُ إلى الداخل. فدخلنا بعجالة. كانت النوافذُ الخلفيَّةُ ترسم بقعتين من ضياءٍ حليبيّ، وخلفها تتبدَّى شبكةُ الخطّ الكهربائيّ للقطار. التفتت مارينا لحظةً لتتقصَّى. فرأت جسمين عند باب المرأب.

- بسرعة! - صرخت.

نظرتُ حولي، يائسًا، أبحث عن شيءٍ أكسر به زجاجَ النافذة. ثمّة هيكلٌ صدئٌ لسيَّارةٍ قديمة يتهالك في الظلام. ذراعُ المحرِّك في مكانه. أمسكتُهُ وضربتُ به النافذةَ غير مرَّة، متحاميًا من وابل الشظايا الزجاجيَّة. نفحت نسائمُ الليل وجهي وأحسستُ بهواءٍ كريهٍ ينبعث من منفذ النفق.

- من هذه الجهة!

تسلَّقت مارينا على النافذة، في حين كنت أراقب الأجسامَ التي كانت تزحف ببطءٍ نحو داخل المرأب. لوَّحتُ بذراع المُحرِّك بكلتا اليدين. فتوقَّفت الدمى فجأةً وتراجعت خطوة. نظرتُ إليها ولم أفهم، وعندئذٍ سمعتُ صوتًا آليًّا فوقي تمامًا. قفزتُ فطريًّا نحو النافذة، في اللحظة التي سقط فيها جسمٌ من

السقف. عرفتُهُ: الشرطيُّ المبتورُ الذراع. بدا لي وجهُهُ محجوبًا بقناعٍ ثخينٍ من جلدٍ ميِّت. وكانت الغُرَزُ تنزف.

- أوسكار! - صاحت مارينا من الجانب الآخر للنافذة.

ألقيتُ نفسي بين براثن الزجاج المُتشظّي. خدش أحدُ نصالها الحادُّ قماشةَ بنطلوني، وشعرتُ به يُمزِّقُ لحمي. وحين هبطتُ، انتابني ألمٌ شديد. كان سيلٌ من دمٍ فاترٍ يسيل على ساقي، من تحت البنطلون. ساعدتني مارينا للنهوض واندفعنا نحو سكك القطار. وفي تلك اللحظة، أمسك شيءٌ مّا بكاحلي. فهويتُ على قضبان السكّة. التفتُّ مذهولًا. كانت يدُ دميةٍ مرعبةٍ تقبض قدمي. استندتُ إلى السكّة فأحسستُ بارتجاج الحديد. انعكس ضوءُ قطارٍ من البعيد على الجدران. وكانت القضبانُ تصطكُّ والأرضُ تهتزُّ تحتي.

كبتت مارينا صرخةً حين أدركت أنَّ قطارًا يقترب بسرعةٍ قصوى. فجلست القرفصاء عند قدميَّ وخاضت معركةً طاحنةً ضدَّ الأصابع الخشبيَّة التي تحتجزني. أنارت أضواءُ القطار وجهها. وسمعتُ صفير قاطرة المُحرِّك. كانت الدميةُ ثابتةً في مكانها، رابضةً على فريستها، لا تتزعزع. صارعت مارينا بيديها الاثنتين لكي تُخلِّصَني. وفي النهاية، تراخت إحدى الأصابع. فتنهَّدَت. ثمَّ نهضت الدميةُ وأمسكت بيدها الأخرى ذراعَ مارينا. فضربتُ بذراع المُحرِّك، التي ما تزال في يدي، وجهَ ذلك الجسم الجامد، بكلّ ما أوتيتُ من قوَّة، حتّى حطَّمتُ جمجمته. فلاحظتُ بخوفٍ أنَّ ما ظننتُهُ خشبًا كان عظمًا. كان في ذلك المخلوق حياة.

دوَّى هديرُ القطار وطغى على صرخاتنا. ارتجَّت الحصى بين

قضبان السكَّة. وغمرتنا حزمةُ الضوء الآتيةُ من قاطرة المُحرِّك. أغمضتُ عينيَّ وتابعتُ ضربَ تلك الدمية المشؤومة بكلّ روحي حتّى أحسستُ أنَّ رأسها انفصل عن جسمها. وحينذاك تراخت براثنُها. تدحرجنا على الحجارة، وقد أعشانا الضوء. مرَّت أطنانٌ من الفولاذ على بُعد سنتمتراتٍ عنّا، وأبهرتنا شراراتُ احتكاكها بالسكَّة. وتناثرت أشلاءُ ذلك الوحش في كلّ الجهات، وفرقعت كجمر نارٍ موقدة.

فتحنا أعيننا بعد أن مرَّ القطار. التفتُّ نحو مارينا وأومأتُ لها لتفهمَ أنَّني بخير. نهضنا برفق. وأحسستُ حينها بصعقة ألمٍ في الساق. وضعت مارينا ذراعي على كتفها، فاستطعتُ بذلكَ أن أعبرَ السكك. وحين التفتنا لننظر إلى الخلف، كان شيءٌ مّا يتحرَّكُ هناك، يومض تحت ضوء القمر. يدٌ خشبيَّة، قطعتها عجلاتُ القطار. كانت ترتعش بتشنُّجاتٍ مُتباعِدة، إلى أن همدت كلّيًا. عدنا إلى وسط الحشائش، دون أن ننطق بكلمة، ودخلنا في زقاقٍ يؤدّي إلى شارع آنغلي. وكانت أجراسُ الكنيسة تُقرَعُ في البعيد.

ومن حسن حظِّنا أنَّ خيرمان كان نائمًا في المكتب عندما عدنا إلى الدار. أخذتني مارينا، دون أن نُحدِثَ ضجَّة، إلى أحد الحمَّامات لتُعقِّمَ جرحي على ضوء الشموع. الجدرانُ والأرضيَّةُ مُلبَّسةٌ ببلاطٍ أملس تنعكس عليه الشعلات. وثمّة حوضُ استحمامٍ أثريٌّ بأربع أرجلٍ حديديَّةٍ في الوسط.

- انزع بنطلونك. - قالت مارينا موليةً إليَّ ظهرها، تُفتِّشُ عن شيءٍ في خزانة الأدوية.

- ماذا؟

- سمعتَني.

فعلتُ ما أمرتني به ومددتُ ساقي على حافّة الحوض. كان الخدشُ أعمقَ ممّا تخيَّلتُ، وحوافُّ الجرح غامقة اللون. انتابني الغثيان. جثت مارينا بجانبي وعاينت الخدش جيِّدًا.

- هل يؤلمك؟

- حين أنظر إليه حصرًا.

أمسكت ممرِّضتي الارتجاليَّةُ القطنَ المشبَّعَ بالكحول وقرَّبته إلى ساقي.

- سيحرقك قليلًا...

وحين عضَّ الكحولُ جرحي تمسَّكتُ بحافّة الحوض بقوَّةٍ حتّى تركتُ عليها بصمات أصابعي.

- يؤسفني. - همست مارينا، وهي تنفخ على الجرح.

- يؤسفني أكثر.

تنفَّستُ بعمق وأغمضتُ عينيَّ، بينما كانت تتابع تعقيمَ الجرح بدقَّة. وفي النهاية، أخرجت ضمادةً من الخزانة، ولفَّتها على الخدش. وثبَّتَت اللاصقَ بيدٍ خبيرة، دون أن تحيدَ عينيها عمّا كانت تفعله.

- لم يستهدفونا نحن. - قالت مارينا.

لم أفهم إلى ماذا تشير.

- دمى الدفيئة. - أضافت دون أن تنظرَ إليَّ - كانوا يريدون الألبوم. ما كان ينبغي لنا أن نأخذه...

وضعت ضمادةً نظيفةً أخرى، فشعرتُ بأنفاسها على جلدي.

- بخصوص ما جرى في الأمس، على الشاطئ... - بادرتُ.

توقَّفت مارينا ورفعت أنظارها.

- لا شيء.

ثبَّتَت اللاصقَ الأخيرَ ورمقتني بصمت. خِلتُ أنَّها ستُخبِرني بشيء، لكنَّها نهضت وخرجت من الحمَّام.

بقيتُ وحيدًا، رفقة الشموع وبنطلونٍ لم يعد صالحًا للاستخدام.

١٣

عندما عدتُ إلى المدرسة، بعد منتصف الليل، كان جميعُ رفاقي نائمين، رغم خطوط الضوء المتُسرِّبة من الأقفال لتضيءَ الممرّ. تسلَّلتُ إلى غرفتي على رؤوس أصابعي. أغلقتُ البابَ بهدوءٍ شديد ونظرتُ إلى المُنبِّه الذي على الدُّرج. الساعة الواحدة تقريبًا. أضأتُ المصباحَ وأخرجتُ من حقيبتي الألبومَ الذي أخذناه من الدفيئة.

فتحتُهُ وغرقتُ مجدَّدًا في معرض الرعب ذاك. ثمّة صورةٌ تُظهِرُ يدًا كانت أصابعُها مُتَّصِلةً بأغشية، تشبه أصابعَ البرمائيَّات. وبجانبها، طفلةٌ بجدائل شقراء، وثوبٍ أبيض، وابتسامةٍ شيطانيَّةٍ أو تكاد، وأنيابٍ حيوانيَّة تنتأ من بين شفتيها. كانت عيناي تستعرضان في تلك الصفحات أقسى النظريَّات عن نزوات الطبيعة. شقيقان أمهقان، ببشرةٍ ناصعةٍ لدرجة أنَّها قد تحترق بلهيب شمعة. توأمٌ سياميٌّ متَّحدُ الجمجمة، مُجبَران على أن ينظرَ أحدهما إلى الآخر مدى الحياة. جسدٌ عارٍ لامرأةٍ عمودُها الفقريُّ ملتوٍ كغصنٍ يابس... كُتُرٌ كانوا أطفالًا أو مراهقين، كُتُرٌ كانوا يبدون أصغر منّي سنًّا. لا وجود تقريبًا لأيّ ناضجٍ أو شيخ. كان

من الواضح أنَّ أملَ الحياة لدى هؤلاء التعساء ضئيل.

تذكَّرتُ كلمات مارينا: هذا الألبوم ليس لنا، ما كان ينبغي أن نستولي عليه. وبعد أن هبطت نسبةُ الأدرينالين، اتَّخذت تلك الفكرةُ معنىً جديدًا. كنتُ أنتهك ذكرياتٍ لا تخصُّني. استشعرتُ أنَّ هذه البلايا المُكثَّفةَ كانت ألبومًا عائليًّا، على طريقتها. تصفَّحتُهُ مرارًا، ظنًّا منّي أنّي أستنتج رابطًا بين الصور بمعزلٍ عن المكان والزمان. ثمَّ أغلقتُهُ وأعدتُهُ إلى الحقيبة. وحين أطفأتُ المصباحَ عادت إلى ذهني صورةُ مارينا وهي تمشي على الشاطئ المُقفِر. رأيتُها تبتعد على امتداد الشطّ حتّى أسكتَ النعاسُ صوتَ المدّ.

*

سئم المطرُ من برشلونة يومًا واحدًا وانتقل إلى الشمال. وهربتُ من المدرسة الداخليَّة كاللصّ، مُتغيِّبًا عن الدرس الأخير بعد الظهر، لألاقي مارينا. انفتحت الغيومُ في ستارةٍ زرقاء. وكان لسانُ الشمس يلعق الطرقات. ومارينا تنتظرني في الحديقة، بكامل تركيزها على دفترها السرّيّ. وما إن رأتني حتّى سارعت إلى إغلاقه. فتساءلتُ ما إذا كانت تكتب عنّي أم عمّا حدث في الدفيئة.

- كيف حال ساقك؟ - سألتني وهي تضمُّ الدفترَ بين ذراعيها.

- سأنجو. تعالي، أريد أن أريكِ هذا.

أمسكتُ الألبوم وجلستُ بجانبها على حافّة النافورة. فتحتُهُ وقلَّبتُ صفحاته. زفرت مارينا، مضطربةً من تلك الصور.

- ها هي ذي! - قلت مُتوقِّفًا على واحدةٍ من الصور الأخيرة - خطرت على بالي مذ استيقظتُ في الصباح. لم أنتبه إليها طوال الوقت، ولكن اليوم...

أمعنت مارينا النظرَ في الصورة التي أظهرتُها عليها. كانت بالأبيض والأسود، مسحورةً بصفاءٍ عجيبٍ لا يتوفَّرُ إلّا في الصور القديمة المُلتَقَطة في الإستديو. رجلٌ مُشوَّهُ الرأس بشكلٍ بشع، وعمودُهُ الفقريُّ بالكاد يقوى على إسناده. مُتَّكِئٌ على شابٍّ بمئزرٍ أبيض، ونظَّارةٍ مستديرة وربطة عنقٍ صغيرة ومتناسقة مع شاربه المُشذَّب بعناية. طبيب. كان الطبيبُ يُحدِّقُ إلى العدسة. والمريض يحجب عينيه بيده، كأنَّه يخجل من وضعه. ويتبدَّى خلفهما حاجزُ تبديل الملابس في ما يبدو أنَّه عيادةٌ طبّيَّة. في إحدى زواياها بابٌ موارب. ومن الباب تطلُّ طفلةٌ برأسها وهي تحتضن دميةً وتراقب المشهدَ بحياء. بدت الصورةُ وثيقةً لا أرشيفًا طبّيًّا.

- تمعَّني جيِّدًا. - ألححتُ.

- لا أرى سوى بائسٍ تعيس...

- لا تنظري إليه. انظري إلى ما يوجد خلفه.

- نافذة...

- وماذا ترين من النافذة؟

قطَّبت مارينا جبينها.

- هل عرفتِهِ؟ - سألتُها مشيرًا إلى تمثال التنّين الذي يُزيِّنُ واجهةَ قصر، على الرصيف المقابل للغرفة التي التُقِطَت فيها الصورة.

- لقد رأيتُهُ في مكانٍ مّا. . .

- وهذا ما بدا لي أيضًا. - أكَّدتُ - هنا في برشلونة. في لاس رامبلاس، قبالة مسرح المعهد. رأيتُ الصورَ كلَّها مرارًا، وهذه هي الوحيدة المُلتَقَطةُ في برشلونة.

انتزعتُها من الألبوم وأعطيتُها لمارينا. ثمّة كلماتٌ مطبوعة، بحروفٍ شبه ممحوَّة، على الخلفيَّة:

إستديو تصوير مارتوري-بوراس - ١٩٥١

نسخة - الدكتور جون شيلي

رامبلا دي لوس إستديانتس ٤٦-٤٨، ١° برشلونة

رفعت كارينا كتفيها وأعادت لي الصورة.

- هذه الصورةُ مُلتَقَطةٌ منذ ما يقارب الثلاثين عامًا يا أوسكار. . . لا تعني أيَّ شيء.

- في هذا الصباح تحقَّقتُ من دليل الهاتف. ذلك الرجل، الدكتور شيلي، ما زال يسكن في الطابق الأوَّل من البناية ٤٦-٤٨ في رامبلا دي لوس إستديانتس. أوحى لي اسمُهُ بشيء. ثمَّ تذكَّرتُ كلام سينتيس: الدكتور شيلي هو أوَّلُ صديقٍ لميخائيل كولڤينيك في برشلونة. . .

رمقتني مارينا.

- وبطبيعة الحال لم تكتفِ حضرتك بالتحقُّق من دليل الهاتف لتحتفل باكتشافك. . .

- اتَّصلتُ. - اعترفتُ - أجابتني ابنةُ الدكتور شيلي، ماريّا. قلتُ لها إنَّنا نودُّ التحدُّثَ إلى أبيها في مسألةٍ بغاية الأهمّيَّة.

- وهل أخذتك على محمل الجِدّ؟

- ليس في البداية. لكن حين ذكرتُ اسمَ ميخائيل كولڤينيك، تغيَّرَ صوتُها. ووافق أبوها على لقائنا.

- متى؟

نظرتُ إلى ساعتي.

- بعد أربعين دقيقة تقريبًا.

*

ركبنا المترو حتّى ساحة كاتالونيا. وقد خيَّمَ الظلامُ أو يكاد حين صعدنا السلالمَ إلى الشارع، عند مدخل لاس رامبلاس. كان الميلادُ على الأبواب، والمدينةُ تزدان بأكاليل الضوء التي ترسم أطيافًا مُتعدِّدة الألوان فوق الممشى. رفرفرت أسرابُ الحمام بين المقاهي وأكشاك الأزهار، واتَّسع المكانُ للعازفين الجوَّالين والبهلوانيِّين، والسيَّاح والأهالي المحلّيّين، ورجال الشرطة والنشَّالين، والمواطنين وأشباح الأزمنة الماضية. خيرمان مُحِقّ: لا يوجد شارعٌ كهذا في العالم كلِّه.

تبدَّى هيكلُ مسرح المعهد الكبير أمامنا. هنالك أمسيةٌ أوبراليَّة، لذا رأينا أضواءَ مظلَّة المدخل تومض كتاجٍ من الألماس. حدَّدَنا التنِّينَ الأخضرَ، الذي ظهر في الصورة، على الرصيف المقابل، يتأمَّلُ حشودَ الناس من إحدى زوايا الواجهة. ففكَّرت أنَّ التاريخَ خصَّصَ للقدِّيس جرجس مذابحَ الكنائس والصورَ الأيقونيَّة، في حين كان نصيبُ التنِّين مدينةَ برشلونة أبد الدهر.

كانت عيادةُ الطبيب جون شيلي في الطابق الأوَّل من بنايةٍ قديمةٍ ذات طابعٍ أرستقراطيٍّ وإضاءةٍ جنائزيَّة. عبرنا بهوًا جوفيًّا يؤدّي إلى معراجٍ لولبيٍّ فخم. تاهت خطواتُنا في أصداء السلالم. ولاحظتُ أنَّ مقابضَ الأبواب على شكل وجوه ملائكة. وفي الأعلى زجاجٌ كاتدرائيٌّ مُعشَّقٌ يُزيِّنُ المنور، ليُحوِّلَ البنايةَ إلى أكبر مشكالٍ في العالم. وكان الطابقُ الأوَّلُ هو الثالثَ فعليًّا، على غرار كافّة الأبنية في الحقبة الماضية. فبعد المَشْرَفِ والمستوى الأساسيّ، وجدنا أنفسنا أمام بابٍ عُلِّقَتْ عليه لافتةٌ عتيقةٌ وبرونزيَّة: د. **جون شيلي**. نظرتُ إلى ساعتي. تبقَّى على موعدنا دقيقتان، فإذا مارينا تطرق الباب.

*

بدت المرأةُ التي فتحت لنا البابَ خارجةً من أيقونةٍ دينيَّة. مُرهَفَة، عُذريَّة، مُتوَّجةٌ بهالةٍ نورانيَّة. بشرتُها ناصعة، شفيفةٌ أو تكاد؛ عيناها صافيتان كأنَّهما بلا لون. ملاكٌ من دون أجنحة.

- السيِّدة شيلي؟ - سألتُ بإجلال.

أكَّدت المرأةُ، والتمع بريقُ الفضول في نظراتها.

- مساء الخير. - بادرتُ - اسمي أوسكار. اتَّصلتُ بحضرتك هذا الصباح...

- أذكر ذلك. تفضَّلا، هيّا...

أدخلتنا. كانت ماريّا شيلي تتحرَّكُ كراقصةٍ تتمايل بين الغيوم. ناعمةُ القوام، تتضوَّعُ بعبق ماء الورد. تكهَّنتُ أنَّها في الثلاثينات من عمرها، رغم أنَّها بدت أصغر سنًّا من ذلك. أحدُ

معصميها مُضمَّد، وتضع وشاحًا على عنقها البجعيّ. وكان المدخلُ غرفةً معتمة، مُكوَّنةً من مخمليَّاتٍ ومرايا مُسوَّدة، كما لو أنَّ الهواء انحبس فيها لعقود.

- نحن ممتنَّان على استقبالكِ لنا. أُعرِّفكِ على صديقتي مارينا.

حطَّت ماريّا نظرتَها على مارينا. لطالما أدهشني التمعُّنُ في كيف تتفحَّصُ النساءُ بعضُهنَّ بعضًا. ولم تكن تلك المرَّةُ استثناءً.

- تشرَّفنا. - قالت ماريّا شيلي في النهاية، على مضض - أبي رجلٌ مُتقدِّمٌ في السنّ، مُتقلِّبُ المزاج. أرجوكما ألّا تُتعِباه.

- اطمئنّي. - قالت مارينا.

أشارت لنا بأن نتبعها. كانت ماريّا شيلي تخطو بمرونةٍ بخاريَّةٍ حقًّا.

- قلتَ لي إنَّك حصلتَ على غرضٍ يعود للسيِّد المرحوم كولڤينيك؟ - سألتْ ماريّا.

- هل عرفتِهِ حضرتك؟ - سألتُ بدوري.

تألَّقَ وجهُها على ذكرى تلك الأيَّام.

- لا في الحقيقة... لكنّي سمعتُ أبي يتحدَّثُ عنه كثيرًا. في طفولتي. - قالت كأنَّها تخاطب نفسها.

كانت الجدرانُ المغطَّاةُ بالمخمل تعرض صورَ قدِّيسين، ورسومًا للعذراء، والشهداء في الرمق الأخير. والسّجَّادُ غامقُ اللون، يمتصُّ الضوءَ الخافتَ المتسرِّبَ من دفَّات النوافذ المغلقة. وبينما كنّا نتبع صاحبةَ البيت على امتداد الممرّ، تساءلتُ منذ متى تعيش هناك، وحيدةً مع أبيها. هل تزوَّجَت، أو عاشت،

أو أحبَّت، أو عرفت شيئًا آخر بعيدًا عن الأجواء الخانقة ما بين تلك الحيطان؟

توقَّفت ماريّا عند بابٍ جرَّار ودقَّت ببراجم يدها.

- أبتِ؟

*

كان الطبيبُ جون شيلي، أو ما تبقَّى منه، جالسًا على أريكةٍ بجوار النار، تحت طبقاتٍ من الأغطية. تركتنا ابنتُهُ معه. حاولتُ أن أشيحَ نظري عن خصرها النحيل والمنحوت وهي تخرج من الغرفة. أوغل الطبيبُ العجوزُ نظراته فينا صامتًا، وكان من الصعب مطابقتُهُ مع الرجل الذي يظهر في الصورة. عيناه تقطران ريبةً. يده ترتجف قليلًا على ذراع الأريكة. ورائحةُ عطره تُغطّي عطنَ المرض بمشقَّة. ولا تخفي ابتسامتُهُ الاشمئزازَ الذي ألهمتْهُ له الدنيا وأوضاعُهُ الصحّيَّة.

- الزمنُ يفعل بالجسد ما تفعله الغباوةُ بالروح. - قال، وأشار إلى نفسه - تُفسِدُهُ. ماذا تريدان؟

- كنّا نتساءل ما إذا بوسع حضرتك أن تُحدِّثَنا عن ميخائيل كولڤينيك.

- بوسعي؛ لكن لا أرى سببًا يدفعني إلى ذلك. - قاطعني الطبيب - لقد تحدَّثوا عنه أكثر من اللازم في زمانه، وتناقلوا ما لا يُعدُّ من الأكاذيب. لو كان الناسُ يُفكِّرون برُبع ما يتكلَّمون، لأصبح هذا العالَمُ جنَّة.

- نعم، لكنَّنا مهتمَّان بالحقيقة. - حدَّدتُ.

عبَّرَ العجوزُ بتكشيرةٍ ساخرة.

- الحقيقةُ لا يُعثَرُ عليها يا ولد. إنّما هي التي تعثر علينا.

جاهدتُ لأبتسمَ بوداعة، لكنّي بدأتُ أشعر أنَّ هذا الرجل لا ينوي أن يفتحَ فمه. تلقَّفت مارينا هواجسي، فبادرت.

- دكتور شيلي - قالت بنبرةٍ عذبة - لقد حصلنا بمحض الصدفة على ألبوم صورٍ قد يعود للسيِّد ميخائيل كولڤينيك. وفي إحدى تلك الصور، تظهر حضرتك إلى جانب مريض. هذا هو السبب الذي سمح لنا بإزعاجك، على أمل إعادة الألبوم إلى صاحبه الشرعيّ أو مَن في حُكمه.

لم يردّ شيلي هذه المرَّة بعبارةٍ مأتميَّة. بل رمق مارينا، ولم يُخفِ دهشتَهُ. تساءلتُ لماذا لم يخطر في ذهني تكتيكٌ كهذا. وقرَّرتُ أنَّه من الأسلم أن أتركَ لمارينا عبءَ المحادثة.

- لستُ أدري عن أيّ صورٍ تتحدَّثين يا آنسة...

- عن مجموعة صورٍ يظهر فيها مرضى مصابون بتشوُّهاتٍ خطيرة... - أوضحت مارينا.

لمعت عينا الطبيب. لمسنا عصبًا مكشوفًا. ففي نهاية المطاف، ما زال هناك حياةٌ تحت تلك الأغطية.

- ما الذي يجعلكِ تظنّين أنَّ الألبوم لميخائيل كولڤينيك؟ - سأل مُتظاهِرًا بالحياد - أو أنَّ لي شأنًا في هذا؟

- قالت لنا ابنتك إنَّكما كنتما صديقين. - غيَّرَت مارينا الموضوع.

- لماريّا فضيلةُ البراءة. - ردَّ شيلي بنبرةٍ قاسية.

أومأت مارينا، وقفت على قدميها وأشارت بأن أفعلَ مثلها.

- مُتفهِّمة. - قالت باحترام - أرى أنَّنا أخطأنا. يؤسفنا أنَّنا أزعجناك أيُّها الطبيب. هيّا، أوسكار. سنجد أحدًا نُسلِّمُهُ الألبوم...

- لحظة. - قاطعها شيلي.

نحنح وأشار إلى الكراسي.

- هل الألبوم ما يزال معكما؟

أومأت مارينا، وواجهت نظرةَ العجوز. انفجر فجأةً بما تُسمَّى ضحكة. كان صوتُهُ مثل تجعُّد جريدةٍ مهترئة.

- كيف لي أن أتأكَّدَ من أنَّكما تقولان الحقيقة؟

رمتني مارينا بأمرٍ صامت. أخرجتُ الصورةَ من جيبي وأعطيتُها للدكتور شيلي. فأخذها بيدٍ مرتجفة وعاينها. تفحَّصَها طويلًا. وفي النهاية، وبعينين تُحدِّقان إلى ألسنة اللهب، بدأ بالكلام.

*

حكى لنا الطبيبُ شيلي أنَّه كان ابنًا لأبٍ بريطانيّ وأمٍّ كاتالانيَّة. تخصَّصَ في طبّ الرضوح بمستشفى بورنموث. وعندما انتقل إلى برشلونة، أُوصِدَت في وجهه أبوابُ المنتديات الاجتماعيَّة، التي تتشكَّلُ فيها الوظائفُ الواعدة، لمجرَّد أنَّه أجنبيّ. وما استطاع أن يحظى إلّا بعملٍ في مستوصف السجن. وهكذا اعتنى بميخائيل كولڤينيك حين أمسى ضحيَّة اعتداءٍ شرسٍ في الزنزانة. لم يكن كولڤينيك في تلك الأيَّام يتكلَّمُ القشتاليَّة أو الكاتالانيَّة. وكان محظوظًا إذ صادف شيلي الذي يتدبَّرُ أمره

بالألمانيَّة. أدانه الطبيبُ مالًا ليشتري ثيابًا، واستضافه في بيته وساعده في العثور على عملٍ في شركة بيلو-غراني. فأحبَّهُ كولڤينيك كثيرًا ولم ينسَ كرمَهُ يومًا. ونشأت بينهما صداقةٌ عميقة.

تطوَّرت الصداقةُ لاحقًا إلى علاقةٍ مهنيَّةٍ أيضًا. فالكثير من مرضى شيلي كانوا في حاجةٍ إلى مُستَلزمات تجبير وأطرافٍ اصطناعيَّة. وكانت شركةُ البيلو-غراني رائدةً في المجال، وميخائيل كولڤينيك أمهر مُصمِّميها وأكثرهم موهبةً. ومع مرور الوقت، أصبح شيلي طبيبَهُ الشخصيّ. وحين ابتسم الحظُّ لكولڤينيك، قرَّرَ أن يساعدَ صديقَهُ بتمويلٍ لإنشاء مركزٍ طبّيٍّ مُتخصِّصٍ بدراسة الأمراض التنكُّسيَّة والتشوُّهات الخلقيَّة.

وكان اهتمامُ كولڤينيك بهذا الفرع من الطبّ يعود إلى طفولته في براغ. شرح لنا شيلي أنَّ أمَّ صديقه أنجبت توأمًا. أحدهما ميخائيل، وقد وُلِدَ سليمًا مُعافى. أمّا الثاني، أندريه، فجاء إلى العالم بتشوُّهٍ عظميٍّ وعضليٍّ لا علاج له، ساقه إلى الموت فعلًا وهو في ربيعه السابع. أثَّرَ هذا الحدثُ في وجدان الفتى ميخائيل عميقًا، وفي شغفه المهنيّ بطريقةٍ أو أخرى. فلطالما أيقن كولڤينيك أنَّ رعايةً طبّيَّةً مناسبة وتقنيَّاتٍ مُتطوِّرةً تُعوِّضُ نواقصَ الطبيعة، كان من شأنها أن تساعد شقيقَهُ على عيش حياةٍ زاخرة. دفعه هذا اليقينُ لتكريس موهبته لتصميم أجهزةٍ «تُكمِّلُ» - على حدّ تعبيره - الأجسادَ التي أغفلتْها العنايةُ الإلهيَّة.

«الطبيعةُ كطفلٍ يلهو بحياتنا. حين يملُّ من ألعابه المُحطَّمة، يتركها ويستبدلها بأخرى. - كان كولڤينيك يقول - مسؤوليَّتُنا أن نجمعَ القِطَع وأن نعيدَ تركيبها».

رأى بعضُهم في هذه الكلمات غرورًا أقربَ إلى الكفر، وآخرون لمحوا فيها بصيصَ أملٍ ليس إلّا. لم يفارق ظلُّ أندريه أخاه ميخائيل البتَّة. كان يؤمن أنَّ قدرًا قاسيًا ومزاجيًّا ضَمِنَ له الحياة وحرم منها شقيقَهُ. شرح لنا شيلي أنَّ مشاعرَ الذنب ذبحت كولڤينيك، وأنَّه يشعر في صميم قلبه بالامتنان تجاه أندريه وتجاه كلّ الذين مثله، الموصومين بالنقصان. بدأ كولڤينيك في تلك الفترة بجمع صورٍ عن ظواهر لأناسٍ مُشوَّهين من كلّ أنحاء العالم. فهؤلاء التعساءُ الذين أهملهم القدر كانوا في رأيه إخوةً منسيِّين لأندريه. عائلته.

*

- كان كولڤينيك رجلًا متألِّقًا. - تابع الطبيب - ولطالما أثار الأشخاصُ الذين مثله توجُّساتِ مَن يشعر بنفسه أقلَّ شانًا منهم. الحسدُ كالأعمى الذي يريد أن ينزعَ عينيك. قيلت أشياء عن كولڤينيك، في أعوامه الأخيرة، وبعد وفاته أيضًا، وهي كلُّها افتراءات... ذلك المُفتِّش اللعين... فلوريان. لم يعِ أنَّهم كانوا يُحرِّكونه كدميةٍ للنيل من ميخائيل...

- فلوريان؟ - تدخَّلت مارينا.

- كان فلوريان رئيسَ المُفتِّشين في الشرطة القضائيَّة. - قال شيلي، مُعبِّرًا عن كلّ الازدراء الذي تتيحه له حبالُهُ الصوتيَّة - رجلٌ وصوليّ، دودةٌ تسعى للمكانة على حساب البيلو-غراني، مُتسلِّقٌ على أكتاف ميخائيل كولڤينيك. عزائي الوحيدُ أنَّه لم يفلح

في إثبات شيءٍ على الإطلاق. عنادُهُ قضى على مسيرته المهنيَّة. وكان هو الذي أثار فضيحةَ الأجساد...

- أجساد؟

غاص شيلي في صمتٍ عميق. نظر إلينا واستعاد ابتسامته الساخرة.

- والمُفتِّشُ فلوريان هذا... - سألتْ مارينا - هل تعرف حضرتك أين يمكننا العثورُ عليه؟

- في السيرك، مع بقيَّة المُهرِّجين. - ردَّ شيلي.

- هل عرفتَ بنخامين سينتيس أيُّها الطبيب؟ - سألتُهُ محاولًا العودة إلى موضوع حديثنا.

- بالتأكيد. - أجاب شيلي - كنّا على تواصلٍ مُستمرّ. كان سينتيس، بصفته شريكًا لكولڤينيك، معنيًّا بإدارة البيلو-غراني. رجلٌ جَشِعٌ وضالٌّ، برأيي. حاسدٌ فاسد.

- هل تعلم أنَّهم عثروا على جثَّة السيِّد سينتيس في مجارير الصرف منذ أسبوع؟ - سألتُ.

- أقرأ الصحف. - أجاب بلهجةٍ جامدة.

- ألم يبدُ لك الأمرُ غريبًا؟

- ليس أكثر من الأخبار الأخرى. - ردَّ شيلي - العالَمُ مريض. وبدأ التعبُ يراودني. هل لديكما أسئلةٌ أخرى؟

كدتُ أسأله عن السيِّدة ذات السواد، فإذا مارينا تسبقني، وتهزُّ رأسها نافيةً بابتسامة. مدَّ شيلي يده وسحب حبلَ الجرس. فظهرت ماريّا شيلي، وعيناها تُحملِقان إلى الأرض.

- سينصرف هذان الصبيَّان يا ماريّا.

- أجل يا أبتِ.

نهضنا. هممتُ لاستعادة الصورة، لكنَّ يدَ الطبيب المرتجفة سبقتني.

- سأحتفظ بهذه الصورة، من بعد إذنكما...

ثمَّ أولى إلينا ظهره وأشار لابنته أن ترافقنا إلى الباب. وقبل أن نخرج من تلك المكتبة، التفتُّ لألقي نظرةً أخيرة. فرأيتُهُ يرمي الصورةَ في المدفأة. وكانت عيناه الزجاجيَّتان تراقبانها وهي تحترق بين ألسنة اللهب.

*

صحبتنا ماريّا شيلي إلى المدخل وهي ساكتة، وهناك ابتسمت لنا كمن يريد أن يعتذر.

- أبي رجلٌ صعب المراس، لكنَّه طيِّبُ القلب... - برَّرَت - مُنِيَ في حياته بكثيرٍ من الخيبات، لذا فإنَّ طبعَهُ يخذله أحيانًا...

فتحت لنا الباب وأنارت ضوء السلالم. استقرأتُ في نظرتها ارتباكًا، كأنَّها تودُّ إخبارنا بشيءٍ مّا غير أنَّها تخشى ذلك. راود مارينا انطباعي نفسُهُ، ومدَّت يدها لتشكرها. فصافحتها ماريّا. كانت الوحدةُ ترشح من مسام تلك المرأة.

- لا أدري ما الذي أخبركما به أبي... - غمغمت، وقد أخفضت صوتَها ونظرت حولها مُتوجِّسة.

- ماريّا؟ - بلغنا صوتُ الطبيب من الداخل - مع مَن تتحدَّثين.

فأظلم وجهُها.

- ها أنا قادمة يا أبي، ها أنا قادمة.

رمتنا بنظرةٍ مؤسفةٍ أخيرة وعادت إلى البيت. وبينما كانت تستدير، لاحظتُ قلادةً صغيرةً تتدلَّى من عنقها. وكدتُ أُقسِمُ أنَّها فراشةٌ بجناحين أسودين مبسوطين. انغلق البابُ قبل أن يسعفَني الوقتُ للجزم. وبقينا عند المستراح نصغي إلى صوت الطبيب المُدوّي وهو يصبُّ جامَ غضبه على ابنته. انطفأ ضوءُ السلالم. خِلتُ لوهلةٍ أنّي أشمُّ رائحةَ لحم في طور التفسُّخ. كانت تنبعث من إحدى زوايا السلالم، كأنَّ في الظلام جيفةَ حيوان. وتهيَّأ لي أنّي سمعتُ خطواتٍ تبتعد نحو الأعلى، وأنَّ ذلك العفن، أو ذلك الانطباع، يختفي.

- فلنغادر من هنا. - قلتُ لمارينا.

١٤

وعلى طريق العودة، انتبهتُ أنَّ مارينا تنظر إليَّ بطرف العين.

- ألن تقضي أعيادَ الميلاد مع العائلة؟

هززتُ رأسي نافيًا، ونظراتي هائمةٌ في الزحام.

- لِمَ لا؟

- والداي على سفرٍ دائم. لم نقضِ الميلادَ معًا منذ سنوات.

كان صوتي حادًّا وعدائيًّا، من دون قصد. تابعنا ما تبقّى من رحلة العودة بصمت. أوصلتُ مارينا إلى بوّابة الدار وودَّعتُها.

*

انهمر المطرُ خلال عودتي إلى المدرسة. نظرتُ من البعيد إلى سلسلة نوافذ الطابق الرابع. نافذتان مضاءتان فقط. كان معظمُ التلاميذ قد غادروا من أجل أعياد الميلاد، ولن يعودوا قبل ثلاثة أسابيع. يتكرَّرُ الأمرُ ذاته في كلّ عام. تفرغ المدرسةُ الداخليَّةُ ولا يبقى سوى قلَّةٍ من البائسين، تحت رعاية مُوجِّهيهم. كانت السنواتُ الأخيرةُ سيِّئةً للغاية، لكنّي حينذاك لم أكن مهتمًّا

بشيء. وهذا أفضل، في الواقع. إذ بدت لي فكرةُ الابتعاد عن مارينا وخيرمان مستحيلة. ما كنتُ لأشعرَ بالوحدة بجانبهما.

صعدتُ السلالمَ المؤدّيةَ إلى غرفتي. كان الممرُّ هادئًا، مهجورًا، وذلك الجناح من مبنى المدرسة مُقفِر. ومن الوارد أن ليس فيه أحد، ما عدا السيدة باولا، الأرملة التي تُنظِّفُ المكان، وتعيش في شقَّةٍ صغيرةٍ من الطابق الثالث، حيث تصدر ضجَّةُ التلفاز بلا انقطاع. اجتزتُ غرفًا خاويةً كثيرة قبل الوصول إلى غرفتي. فتحتُ الباب. دوَّى الرعدُ في سماء المدينة فاهتزَّ على إثره المبنى برمَّته. وتسلَّلَ ومضُ البرق من بين الدفَّات المغلقة. ارتميتُ على السرير دون أن أنزع ثيابي. كانت العاصفةُ تعربد في الظلام. فتحتُ الدُّرجَ وأخرجتُ منه الرسمَ الذي أنجزه خيرمان عن مارينا في ذلك اليوم على الشاطئ. تأمَّلتُهُ في العتمة إلى أن غلبني النعاسُ والتعب. غفوتُ وأنا أحتضنه كأنَّه تميمة. وحين صحوتُ، لم أجد الرسم.

*

فتحتُ عينيَّ بغتة. كنتُ أشعر بالبرد، هبَّت ريحٌ جامدةٌ على وجهي. النافذة مفتوحة، والمطرُ يُدنِّسُ غرفتي. عدَّلتُ جلستي على السرير مذهولًا. تلمَّستُ الدُّرجَ للوصول إلى المصباح، كبستُ الزرّ، ولكن عبثًا. الكهرباء منقطعة. وانتبهتُ حينها أنَّ الرسمَ لم يعد بين يديَّ مثلما كان حين غفوتُ. ليس على السرير، ليس على الأرض. فركْتُ عينيَّ، ولم أفهم. شممتُ الرائحة آنذاك. كثيفةً وثاقبة. رائحةُ الجيفة. في الهواء. في

الغرفة. على ثيابي، كما لو أنَّ أحدهم غافل نومتي ومسح جثَّةَ حيوانٍ مُتفسِّخ على جلدي. كبتُّ نوبةَ قيء، ووقعتُ فريسةَ الفزع فورًا. لم أكن وحيدًا. دخل أحدٌ مّا، أو شيءٌ مّا، من تلك النافذة وأنا نائم.

تحسَّستُ الأثاثَ ببطءٍ حتّى وصلتُ إلى الباب. حاولتُ أن أشعلَ ضوءَ الغرفة المركزيّ. لا شيء. أطللتُ على الممرّ: ظلامٌ دامس. شممتُ تلك الرائحةَ النتنةَ ثانيةً، صارت أشدَّ كثافة. رائحةُ حيوانٍ برّيّ. ثمَّ خُيِّلَ إليَّ أنَّني ألمح طيفًا يتسلَّلُ إلى الغرفة الأخيرة.

- سيِّدة باولا؟ - قلتُ، بما تبقَّى لي من صوت.

انغلق البابُ برفق. سحبتُ نفسًا عميقًا وتقدَّمتُ في الممرّ، مُشتَّتَ الذهن. توقَّفتُ فجأةً حين سمعتُ فحيحَ حيوانٍ زاحفٍ ينطق بكلمة. اسمي. والصوتُ صادرٌ من الغرفة المغلقة.

- سيِّدة باولا، أهذه أنتِ؟ - تلعثمتُ، محاولًا السيطرة على رجفة يديَّ.

تقدَّمتُ تحت الظلام. ردَّدَ الصوتُ اسمي. لم أسمع صوتًا كهذا من قبل. صوتٌ مُتفتِّت، شرس، ينزف شرًّا. صوتٌ كابوسيّ. تحجَّرتُ في الممرّ المظلم، عاجزًا عن تحريك عضلةٍ واحدة. ثمَّ انفرج البابُ على حين غرَّة، بقوَّةٍ عنيفة. وفي غضون ثانيةٍ لا تنتهي، بدا الممرُّ يضيق ويتقلَّصُ تحت قدميَّ، ليجذبني نحو ذلك الباب.

رأت عيناي، في وسط الغرفة، بكلّ وضوح، غرضًا يلتمع على السرير: رسمُ مارينا. كان بقبضة يدين خشبيَّتين، يدي دمية.

وهنالك خيوطٌ داميةٌ تنتأ من المعصمين. أدركتُ حينذاك أنَّهما اليدان المُقتَلعتان من بنخامين سينتيس في أعماق المجارير. مُنتَزعتان من جذرهما. فأحسستُ أنَّ أنفاسي تنقطع.

أصبحت النتانةُ لاذعةً لا تُطاق. ونبَّهني وعيي بالرعب إلى الظلّ الذي على الجدار، مُعلَّقًا هناك، جامدًا، ككائنٍ يرتدي ثوبًا أسود، مكتوف الذراعين على الصدر. يحجب شعرُهُ الأشعثُ وجهَه. رأيتُ ذلك الوجه، من مكاني على العتبة، ينهض ببطءٍ شديد، ليكشف عن أنيابٍ تسطع في العتمة. استأنفت مخالبُهُ الحركة، من تحت القفَّاز، كأنَّهما ثعابين متشابكة. تراجعتُ خطوةً وسمعتُ اسمي من جديد، يهمس به ذلك الصوت. زحف الظلُّ نحوي كعنكبوتٍ عملاق.

أطلقتُ صرخةً لاإراديَّة وصفقتُ البابَ في وجهه. حاولتُ أن أعيقَ خروجه، لكنّي سمعتُ ارتطامًا فظًّا. عشرة أظافر حادَّة كالسكاكين، تخترق الخشب. هُرِعتُ نحو الطرف الآخر من الممرّ بينما كان البابُ يتحطَّم. وأصبح الممرُّ نفقًا لا ينتهي. التفتُّ على بُعد أمتارٍ عن السلالم لأنظرَ خلفي. فرأيتُ المخلوقَ الجهنَّميَّ آتيًا باتِّجاهي. وكان شررُ عينيه يثقب الظلام. كنتُ مُحاصَرًا.

هربتُ على امتداد الممرّ المؤدّي إلى المطابخ، مُعتَمِدًا على معرفتي التامّة بكلّ زوايا المدرسة. أغلقتُ البابَ خلف ظهري. ولكن بلا جدوى. فقد هاجمه المخلوقُ وخلعه، ليُسقِطني أرضًا. تدحرجتُ على البِلاط واختبأتُ تحت الطاولة. رأيتُ ساقين. وكانت عشراتُ الأطباق والكؤوس تتهشَّمُ من حولي، فامتلأت

الأرضُ بقشرةٍ من شظايا الزجاج. لمحتُ نصلَ سكّينٍ بين الحطام، فأمسكتُهُ يائسًا. جلس الظلُّ القرفصاء قبالتي، كذئبٍ عند منفذ جُحر. لوَّحتُ بالسكّين على وجهه، فكأنّما غاص النصلُ في الوحل. ورغم هذا تراجع نصفَ متر، بحيث أُفسِحَ لي المجالُ للهرب إلى الطرف الآخر للمطبخ. وبحثتُ عن شيءٍ أدافع به عن نفسي وأنا أتراجع خطوةً تلو خطوة. فوجدتُ دُرجًا. فتحتُهُ. ملاعق، أدوات طبخ، شموع، ولّاعة بنزين... خردة عديمة الفائدة. أمسكتُ الولّاعةَ لاإراديًّا وحاولتُ إشعالها. فرأيتُ ظلَّ المخلوق على بُعد خطواتٍ عنّي. شممتُ أنفاسَهُ المُقزِّزة. قرَّبَ أحدَ مخالبه إلى عنقي. فأشعلتُ الولّاعةَ حينئذٍ فأضاءت ذلك الكائنَ الذي يبعد عنّي بالكاد عشرين سنتمترًا. أغمضتُ عينيَّ وحبستُ أنفاسي، موقنًا بأنّي رأيتُ وجهَ الموت وأنّي لم أعد قادرًا إلّا على الانتظار. فأصبح الانتظارُ أبديًّا.

وحين فتحتُ عينيَّ، كان قد انصرف. أحسستُ بخطاه تبتعد. لحقتُ به نحو غرفتي، وتهيَّأ لي أنّي سمعتُ أنينًا. من الألم، أو ربّما من الغضب. أطللتُ برأسي، فرأيتُ المخلوقَ يُفتِّشُ في حقيبتي ويمسك ألبومَ الصور الذي أخذتُهُ من الدفيئة. استدار نحوي وتبادلنا النظرات. أنار ضوءُ الليل الطيفيُّ ذلك الدخيلَ عُشرًا من الثانية. أردتُ أن أخبره بشيء، لكنَّه ألقى بنفسه من النافذة.

ركضتُ إلى هناك وتطلَّعتُ منها، موقنًا أنّي سأرى جسمه يهوي في الفراغ. غير أنَّ الظلَّ كان يهبط عبر أنابيب الصرف بسرعةٍ لا تُصدَّق. وكان رداؤه الأسودُ يتموَّجُ مع الريح. ثمَّ قفز

على أسطح الجناح الشرقيّ ومضى في مجاهل غابةٍ من الغراغيل والأبراج. صُعِقتُ برؤية ذلك الشبح الجهنَّميّ يختفي تحت العاصفة بشقلباتٍ مستحيلة، كالفهد، كما لو أنَّ أسطحَ برشلونة أمست دغلًا. انتبهتُ أنَّ إطارَ النافذة مُلطَّخٌ بالدم. تتبَّعتُ آثاره إلى الممرّ ولم أفهم إلّا حينذاك أنَّه ليس دمي. لقد جرحتُ كائنًا بشريًّا. استندتُ إلى الجدار. كانت ركبتاي ترتعشان. فانكمشتُ على نفسي، منهكًا.

لا أدري كم بقيتُ من الوقت بتلك الوضعيَّة. حين استطعتُ النهوض، قرَّرتُ أن ألوذَ بالمكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان.

١٥

وصلتُ إلى دار مارينا وقطعتُ الحديقةَ مُتلمِّسًا دربي. درتُ حول المبنى وبلغتُ مدخلَ المطبخ. ثمّة نورٌ دافئٌ يتراقص بين الدفَّات الخشبيَّة. فتنفَّستُ الصعداء. طرقتُ ببراجم يدي ودخلتُ. كان البابُ مفتوحًا. ورغم الساعة المتأخِّرة، وجدتُ مارينا تكتب على دفترها إلى طاولة المطبخ، على ضوء الشموع، وكافكا في حضنها. سقط القلمُ من أصابعها ما إن رأتني.

- أوسكار، يا إلهي! ما الذي...؟ - هتفت، وهي تتفحَّصُ ثيابي المتَّسخة والمهترئة، وتتحسَّسُ الخدوش التي على وجهي - ما الذي حدث لك؟

*

وبعد فنجانين من الشاي الساخن، استطعتُ أن أروي لمارينا ما حدث، أو ما أذكره بالأحرى، لأنّي بتُّ أشكُّ في حواسّي نفسها. أصغت إليَّ وهي تضمُّ يدي بين يديها لتُهدِّئَ من روعي. لا بدَّ أنَّ مظهري كان أسوأ ممّا توقَّعتُ.

- هل تمانعين إن نمتُ الليلةَ هنا؟ لا أعرف إلى أين أذهب. ولا أريد العودة إلى المدرسة.

- وما كنتُ لأسمحَ لك بالعودة أصلًا. بوسعك أن تبقى عندنا ما تشاء من الوقت.

- شكرًا.

استقرأت في عينيَّ القلقَ نفسَهُ الذي كان ينهشني. فبعد كلّ ما وقع في تلك الليلة، كانت دارُها آمنةً بقدر المدرسة الداخليَّة، أو أيّ مكانٍ آخر. فذلك الشخصُ الذي يلاحقنا، يعرف تمامًا أين يجدنا.

- وماذا سنفعل الآن يا أوسكار؟

- بوسعنا أن نبحثَ عن المُفتِّش الذي تحدَّثَ عنه شيلي... فلوريان. وأن نحاولَ اكتشاف ما حدث حقًّا...

تنهَّدت مارينا.

- اسمعي، ربّما من الأفضل أن أنصرف... - ارتجلتُ.

- لا يخطرنَّ هذا في بالك. سأُعِدُّ لك غرفةً في الأعلى، بقرب غرفتي. تعال.

- وماذا... ماذا سيقول خيرمان؟

- سيكون مبتهجًا بحضورك. سنخبره أنَّك ستقضي أعيادَ الميلاد معنا.

تبعتُها على السلالم. لم أصعد إلى الطابق العلويّ يومًا. أنار ضوءُ الشمعدان ممرًّا على جانبيه أبوابٌ من السنديان المُرصَّع. غرفتي هي الأخيرة، محاذيةٌ لغرفة مارينا. ورغم أنَّ الأثاثَ يبدو متحفيًّا، فإنَّه أنيقٌ ومُرتَّب.

- الأغطية نظيفة. - قالت مارينا وكشفت السرير - وفي الخزانة أغطيةٌ أخرى، إن شعرتَ بالبرد. والمناشفُ هنا. سأبحث لك عن ثوبٍ للنوم من ألبسة خيرمان.

- سيظهر عليَّ كخيمة معسكر. - مازحتُها.

- من الأفضل أن يكونَ فضفاضًا على أن يكونَ ضيِّقًا. سأعود فورًا.

سمعتُ خطواتها تبتعد في الممرّ. تركتُ ثيابي على كرسيٍّ وانزلقتُ بين الأغطية النظيفة والمُنشَّاة. لم أشعر بتعبٍ كذاك في حياتي. بات جفناي كألواح الرصاص. عادت مارينا بقميصٍ عرضه متران، بدا مسروقًا من خزانة أميرة.

- مستحيل. - اعترضتُ - لن أنام بهذا الفستان قطعًا.

- لم أجد غيره. سيُناسِبُك تمامًا. ثمَّ إنَّ خيرمان لن يسمحَ للفتية العراة بالنوم في هذه الدار. إنَّها القواعد.

رمت إليَّ القميصَ وتركت شمعةً على الدُّرج.

- إن احتجتَ إلى شيء، اضربْ على الجدار. أنا في الجانب الآخر.

تبادلنا نظرةً صامتة. وحادت مارينا عينيها في النهاية.

- ليلة هانئة يا أوسكار. - همست.

- ليلة هانئة.

*

استيقظتُ في غرفةٍ يفيض فيها الضوء. كانت تشرف على الشرق، والنافذةُ تُؤطِّرُ شمسًا ساطعةً تنهض فوق المدينة. نزلتُ

من السرير، ولاحظتُ أنَّ ثيابي لم تعد على الكرسيّ الذي وضعتُها عليه في الليلة السابقة. فاستوعبتُ ما الذي يعنيه هذا، ولعنتُ اللطافة، موقنًا أنَّ مارينا فعلت ذلك عمدًا. تسرَّبت رائحةُ خبزٍ ساخنٍ وقهوةٍ طازجةٍ من تحت الباب. تخلَّيتُ عن كلّ أملٍ بالحفاظ على كرامتي، وتهيَّأتُ للنزول إلى المطبخ بذلك القميص المضحك. خرجتُ إلى الممرّ، ورأيتُ أنَّ البيتَ كلَّهُ غارقٌ في ضياءٍ سحريّ. سمعتُ صوتَ مُضيفيَّ يدردشان في المطبخ. فتسلَّحتُ بالشجاعة ونزلتُ السلالم. توقَّفتُ عند الباب ونحنحتُ. فرفعت مارينا عينيها، وكانت تصبُّ القهوة لخيرمان.

- صباح الخير، أيَّتها الحسناء النائمة. - قالت.

التفت خيرمان نحوي ونهض ليصافحني ويدعوني للانضمام، باحترامه المعهود.

- صباح الخير يا صديقي أوسكار! - هتف مُتحمِّسًا - يسعدنا أن تكونَ معنا. قالت لي مارينا عن الأشغال في المدرسة. فاعلمْ أنَّه بوسعك البقاء عندنا ما شئتَ من الوقت، بلا أيّ إحراج. فهذه دارُك.

- ألف شكر...

ابتسمت مارينا بمكر، وصبَّت لي فنجانَ قهوة وأشارت إلى القميص.

- يليق بك جدًّا. - قالت.

- جدًّا، جدًّا. أبدو كزهرة مانتوفا. أين ثيابي؟

- غسلتُها ونشرتُها.

ناولني خيرمان طبقَ المُعجَّنات التي خرجت من أفران

حلويَّات فويكس توًّا. فسال لعابي في فمي لمُجرَّد رؤيتها.

- جرِّبْ واحدةً يا أوسكار. - شجَّعني - هذه مرسيديس الحلويَّات. إيَّاك والظنَّ أنَّها مُربَّى فقط؛ فهي أعجوبة.

التهمتُ كلَّ ما وضعاه أمامي بشهيَّة الناجين من الغرق. وكان خيرمان يتصفَّحُ الجريدةَ شاردًا. من الواضح أنَّه معتدل المزاج، فبالرغم من أنَّه أنهى فطوره، لم ينهض عن الطاولة إلى أن أتيتُ على كلّ شيءٍ ما عدا المناديل. ثمَّ نظر إلى ساعته.

- ستتأخَّرُ عن موعدك مع القسّ يا أبتِ. - ذكَّرتْهُ مارينا.

أومأ خيرمان بانزعاج.

- أتساءل لماذا أهدر وقتي معه... - قال - هذا الوغدُ غشَّاشٌ كبير.

- إنَّه ثوب الرهبنة. - أوضحت مارينا - يظنُّ أنَّه قادرٌ على فعل ما يشاء...

نظرتُ إليهما مُشوَّشًا. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمّا يتحادثان.

- شطرنج. - أوضحت لي مارينا - خيرمان والقسّ يتباريان منذ أعوام.

- لا تلعب الشطرنج مع يسوعيٍّ يا أوسكار. خذ النصحَ منّي. أستأذنكما... - قال خيرمان ونهض.

- لا أُفكِّرُ في هذا أبدًا. بالتوفيق.

أخذ خيرمان معطفه، وقبَّعته، وعكّازة الأبنوس، ومضى إلى موعده مع القسّ ذي الخطط الاستراتيجيَّة. وما إن خرج، ذهبت مارينا إلى الحديقة وعادت بثيابي.

- يؤسفني أن أخبرك أنَّ كافكا نام عليها.

كانت الثيابُ ناشفة، لكنَّ رائحةَ الهرّ لن تزول عنها وإن بخمس غسلات.

- هذا الصباح، عندما خرجتُ لشراء المعجَّنات، اتَّصلتُ بالمخفر من مقهى الساحة. المُفتِّش فيكتور فلوريان متقاعد، يسكن في بايبيذريرا. ليس عنده هاتف، لكنَّهم أعطوني عنوانه.

- سأرتدي ثيابي بدقيقة.

*

لا تبعد محطَّةُ بايبيذريرا الجبليَّةُ كثيرًا عن دار مارينا. مشينا سريعًا، ووصلنا في غضون عشر دقائق، واشترينا تذكرتين. كان حيُّ بايبيذريرا، إذا رأيتَهُ من المحطَّة، من أسفل التلَّة، يبدو شرفةً تطلُّ على المدينة. البيوتُ مُعلَّقةٌ بين الغيوم بحبالٍ خفيَّة. جلسنا في آخر المقصورة نتأمَّلُ برشلونة التي تتمدَّدُ تحت أقدامنا بينما يتسلَّقُ الترامُ الجبليُّ ببطء.

- لا بدَّ أنَّ هذه مهنةٌ رائعة. - قلتُ - سائقُ ترام جبليّ. مُشغِّلُ مصعد السماء.

نظرت إليَّ مارينا مُتشكِّكة.

- هل قلتُ ما يُسيء؟ - سألتُها.

- لا، إن كان هذا أقصى طموحاتك.

- لا أدري ما طموحاتي. لا يعرف الجميع ماذا يريدون. مارينا بلاو، الحاصلة على جائزة نوبل للآداب، وصاحبة أجمل مجموعة قمصان فضفاضة من أزياء عائلة بوربون الملكيَّة.

احتدَّت ملامحُ مارينا لدرجةٍ ندمتُ فيها على أنّي فتحتُ فمي.

- مَن يجهل وجهته، لن يصل إلى أيّ مكان. - ردَّت بفتور.

أريتُها تذكرتي.

- أنا أعرف وجهتي.

أشاحت أنظارها. صعدنا ببطءٍ مدَّة دقيقتين، وتبدَّى هيكلُ مدرستي الداخليَّة في البعيد.

- معماريّ. - همستُ.

- ماذا؟

- أريد أن أصبح معماريًّا. هذا هو طموحي. لم أخبر به أحدًا.

ابتسمت لي أخيرًا. وكان الترامُ الجبليُّ يصل إلى ذروة التلَّة ويقرقع مثل غسَّالةٍ قديمة.

- لطالما رغبتُ في امتلاك كاتدرائيَّةٍ لي وحدي. - قالت مارينا - هل لديك اقتراحات؟

- قوطيَّة، على سبيل المثال. أعطني بعض الوقت لأبنيها لكِ.

أنارت الشمسُ وجهَها، فلمعت عيناها اللتان تُحدِّقان إليَّ.

- هل تعدني بذلك؟ - سألت ومدَّت يدها المفتوحة نحوي.

صافحتُها بقوَّة.

- أعدكِ.

*

توافَقَ العنوانُ الذي تدبَّرتْهُ مارينا مع بيتٍ قديمٍ على حافّة الهاوية فعليًّا. استولت عليه حشائشُ الحديقة، وكان صندوقُ البريد الصدئُ يبرز من بين الأجمات كأنَّه من مُخلَّفات الحقبة الصناعيَّة. تسلَّلنا إلى باب البيت. وكان الطريقُ إليه محفوفًا بعلبٍ ممتلئةٍ بصحفٍ قديمةٍ مربوطةٍ بالخيط. أمّا طلاءُ الواجهة، الذي أنهكته الريحُ والرطوبة، فكان يتقشَّرُ عن الجدار كجلدٍ مُتيبِّس. لا يُنفِقُ المُفتِّشُ فيكتور فلوريان شيئًا على مظاهر الفخامة.

- هذا المكانُ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى مهندسٍ معماريٍّ بالفعل.

- قالت مارينا - أو إلى كتيبة هدم...

طرقتُ البابَ بخفَّة. خشيتُ لو أنّي طرقتُ بقوَّةٍ أكبر، لتدحرَجَ البيتُ إلى الوادي.

- وماذا لو جرَّبتَ الجرس؟

كان الزرُّ مُعطَّلًا، وأسلاكُهُ الخارجةُ من الإطار الكهربائيّ تعود إلى زمن إديسون.

- لن أغامرَ بلمسها. - أجبتُ وطرقتُ مجدَّدًا.

انفتح البابُ فجأةً، بمسافة عشرة سنتمترات. لمعت سلسلةُ الأمان أمام عينين لهما وميضٌ معدنيّ.

- مَن الطارق؟

- فيكتور فلوريان؟

- هذا أنا. لكنّي سألتُ مَن الطارق.

كانت نبرةُ الصوت سلطويَّةً ونافدةَ الصبر. صوتٌ معتادٌ على إطلاق الأوامر.

- لدينا معلومات حول ميخائيل كولڤينيك. . . - أجابت مارينا مُمهِّدةً.

انفرج البابُ كلّيًّا. كان فيكتور فلوريان رجلًا عريض المنكبين، مفتول العضلات. يرتدي الثيابَ نفسَها التي أُحيلَ بها إلى التقاعد، أو هذا ما بدا لي على الأقلّ. تشي تعابيرُهُ بأنَّه عقيدٌ عجوزٌ بات بلا حروبٍ يخوضها أو فيالقَ يقودها. تضغط شفتاه على سيجارٍ مُطفأ. وحاجباه كثيفان حتّى فاقت كمّيَّةُ الزغب في أحدهما شَعرَ معظم الناس على رؤوسهم.

- ما الذي تعرفانه عن كولڤينيك؟ مَن أنتما؟ مَن أعطاكما هذا العنوان؟

لا يطرح فلوريان الأسئلةَ طرحًا، بل يرشقها بالرشَّاش. أدخلنا بعد أن ألقى نظرةً في المكان، كأنَّه يخشى أنَّ ثمّة مَن يلاحقنا. وكان بيتُهُ من الداخل كمرتع الخنازير، تفوح منه روائحُ المستودعات الخلفيَّة. وفيه أوراقٌ أكثر ممّا في مكتبة الإسكندريَّة، لكنَّ جميعها مبعثرة، كأنَّ مروحةً رتَّبتها على هواها.

- إلى الجانب الخلفيّ.

مررنا أمام غرفةٍ تشبَّعَت جدرانُها بالأسلحة. ريفولفر، مُسدَّساتٌ آليَّة، بنادق ماوزر، حِراب. . . اندلعت كثيرٌ من الثورات بأقلّ من ذلك العدد من الأسلحة.

- يا أمَّنا العذراء. . . - غمغمتُ.

- اصمت، فهذا ليس بمُصلًّى. - قاطعني فلوريان وأغلق بابَ مخزن الأسلحة ذاك.

وكان الجانبُ الخلفيُّ، الذي ذكره، صالةَ طعامٍ صغيرةً تطلُّ

على كافّة أرجاء برشلونة. ما زال المُفتِّشُ، رغم تقاعده، يراقب المدينة من الأعلى. أشار لنا إلى أريكةٍ مُثقَّبة. وعلى الطاولة عبوةُ فاصوليا نصفُ ممتلئة، وقنِّينةُ بيرة من ماركة النجمة الذهبيَّة، ولا وجود لكؤوس. «تقاعُدُ ضابط، شيخوخةُ صعلوك» قلتُ في سرّي. استرخى فلوريان على كرسيٍّ قبالة الأريكة وأمسك مُنبِّهًا رخيصًا اشتراه من سوق الأغراض المستعملة. وجَّهَهُ نحونا وخبطه على الطاولة.

- خمس عشرة دقيقة. إن تخطَّيتما ربع ساعةٍ من دون أن تخبراني بجديدٍ لا أعرفه مسبقًا، طردتكما ركلًا.

استغرقنا أكثر من ربع ساعةٍ لنروي له كلَّ ما وقع. وكلَّما انغمس في الإصغاء إلى حكايتنا، تشقَّقت سحنتُهُ الضارية. تراءى لي من بين تلك الشقوق رجلٌ متعبٌ ومذعورٌ يلوذ بذلك الجُحر مع جرائده القديمة ومجموعة أسلحته. وعندما انتهينا، أخذ فلوريان سيجاره، وعاينه قرابة الدقيقة صامتًا، وأشعله.

ثمَّ سرحت نظرتُهُ في سراب المدينة المُسجَّاة بالضباب، وبادر بالكلام.

١٦

- في العام ١٩٤٥، كنتُ مُفتِّشًا في الشرطة القضائيَّة ببرشلونة. - قال فلوريان - وكنتُ أُفكِّرُ في الانتقال إلى مدريد، ولكنَّهم كلَّفوني بقضيَّة البيلو-غراني. وكانت الشرطةُ القضائيَّةُ قبلها بثلاث سنواتٍ تتحرَّى بخصوص ميخائيل كولڤينيك، الرجل الأجنبيّ الذي لم يحظَ باستلطافٍ في أوساط النظام، لكنَّها لم تُفلِح في الإمساك بأيّ دليلٍ عليه. ورفض سلفي بالمنصب المهمَّة. إذ إنَّ الشركة كانت محميَّةً بسورٍ من المحامين، وبمتاهةٍ من الشراكات الماليَّة حيث تختلط الأوراقُ وتضيع المُستَمسَكات. وقد أقنعني مدرائي بأنَّها الفرصةُ الوحيدةُ لنجاحي المهنيّ. قالوا لي إنَّ قضايا كهذه تكفل مكتبًا في الوزارة مباشرةً، ناهيك بسيَّارةٍ وسائق، ودوامٍ يليق بالأمراء. إنَّ الطموحَ مرادفُ الحماقة...

صمت فلوريان قليلًا، ليتذوَّقَ وقْعَ كلماته، ويبتسمَ ساخرًا من نفسه. كان يعضُّ السيجار كأنَّه عودٌ من عرق السوس.

- وعندما درستُ القضيَّة - تابع - أدركتُ أنَّ ما كان تحقيقًا روتينيًّا حول سلسلةٍ من المُخالَفات الماليَّة، أو اشتباهٍ باحتيال،

غدا مُعقَّدًا لدرجة أنَّه من الصعب تكليفُهُ لجهاز شرطة مُعيَّن. ابتزاز. سرقة. محاولة اغتيال... وهنالك المزيد... واعلما أنَّ خبرتي، في تلك الفترة، كانت تقتصر على مجال اختلاس الأموال، والتهرُّب الضريبيّ، والاحتيال، واستغلال النفوذ الوظيفيّ... هذا لا يعني أنَّ مُرتَكِبَ تلك الجنايات كان ينال جزاءه دومًا، فذاك زمانٌ مُختَلِف، لكنَّنا كنّا نعلم كلَّ شيء.

اختفى فلوريان خلف سحابة دخانٍ أزرق، مضطربًا.

- فلماذا وافقتَ على تسلُّم القضيَّة إذًا؟ - سألتْ مارينا.

- بسبب الغرور. بسبب الطموح والطمع. - أجاب فلوريان، مُستَخدِمًا بحقّ نفسه ما تصوَّرتُ أنَّها نبرةٌ مُخصَّصةٌ للحديث عن أسوأ المجرمين.

- وربّما من أجل اكتشاف الحقيقة أيضًا. - ارتجلتُ - لإحقاق العدالة.

ابتسم لي فلوريان بحزن. وتراءت في تلك النظرة ثلاثون سنةً من مشاعر الندم.

- في نهايات العام ١٩٤٥، كانت البيلو-غراني من الناحية التقنيَّة قد أفلست تمامًا. - تابع - أوقفت كبرياتُ مصارف برشلونة الثلاثُ خطوطَ ائتمان الشركة، كما خرجت أسهمُها من تداولات البورصة. وما لبث الأساسُ الماليُّ يختلُّ، حتّى انهارت أسوارُها القانونيَّةُ وتفكَّكت شراكاتُها الوهميَّةُ كقلعةٍ من ورق. ولَّت أيَّامُ العزّ. وتحوَّلَ المسرحُ الملكيُّ الكبيرُ إلى كومة أنقاض، بعدما ظلَّ مُغلَقًا منذ يوم المأساة التي شوَّهَت إيڤا إيرينوڤا. أُغلِقَ المعملُ وورشاتُه. وصُودِرَت ممتلكاتُ الشركة. وانتشرت

الشائعاتُ كالغنغرينا. حافظ كولڤينيك على برودة أعصابه، وعزم على تنظيم حفل كوكتيل فاخر في قلب بورصة برشلونة، للإيحاء بأنَّ وضعَهُ طبيعيٌّ ومستقرّ. في حين سقط شريكُهُ سينتيس فريسةً للهلع. لم يعد هناك أموالٌ حتّى لدفع تكاليف الجزء العاشر من طعام تلك الأمسية. أُرسِلَت دعواتٌ إلى جميع كبار أصحاب الأسهم، وعوائل برشلونة المرموقة... وكان المطر ينهمر بغزارةٍ في ذلك المساء. ومبنى البورصة في أزهى حلله، كقصرٍ خرافيّ. وبدءًا بالساعة التاسعة، توافد خدمُ أثرياء المدينة الذين كان لكولڤينيك فضلٌ عليهم، يحملون له رسائلَ اعتذارٍ عن حضور الحفل. وحين وصلتُ إلى المكان، بعد منتصف الليل بقليل، وجدتُ كولڤينيك وحيدًا في الصالة الكبرى، ببدلته الأنيقة والغالية، يُدخِّنُ سيجارةً من التبغ الذي يستورده من فيينا. حيَّاني وقدَّمَ لي كأس شمبانيا. «كُلْ شيئًا يا حضرة المُفتِّش، فمن المؤسف إهدارُ كلّ هذا الطعام» قال لي. لم نلتقِ وجهًا لوجهٍ يومًا. تحادثنا طوال ساعة. وحدَّثَني عن الكتب التي قرأها في مراهقته، والرحلات التي تسنَّى له القيام بها... كولڤينيك رجلٌ ذو جاذبيَّة. يشعُّ الذكاءُ من عينيه. استلطفتُهُ رغم كلّ جهودي لتجنُّب ذلك. بل وأكثر: أشفقتُ عليه، رغم أنّي الصيَّادُ وهو الطريدة. لاحظتُ أنَّه يعرج ويتَّكئ على عكَّازٍ من عاجٍ مُرصَّع. «لا أعتقد أنَّ أحدًا خسر أصدقاء كُثُرًا في ليلةٍ واحدة» قلت له. فابتسم لي واستنكر فكرتي باطمئنان. «تُخطِئُ يا حضرة المُفتِّش. إذ لا يُدعى الأصدقاءُ إلى مناسباتٍ كهذه». وسألني باحترامٍ كبيرٍ إن كنتُ أنوي ملاحقته بعد كلّ هذا. فأجبتُهُ أنَّني لن أتوقَّفَ ما لم

أتمكَّن من إخضاعه للقضاء. وأذكر أنَّه سألني: «ما الذي يسعني فعلُهُ لأثنيك عن هذه الغاية يا صديقي فلوريان؟». «أن تقتلني» أجبتُه. «لكلّ شيءٍ أوانُهُ يا حضرة المُفتِّش» قال لي مبتسمًا. وابتعد وهو يعرج. ولم أره بعدها قطّ... لكنّي ما أزال حيًّا. لم يُنفِّذ كولڤينيك تهديده الأخير.

صمت فلوريان قليلًا وارتشف قطرة ماء، وتلذَّذَ بها كما لو كانت آخر قطرةٍ يشربها في حياته. لعق شفتيه واستأنف الحكاية.

– عاش كولڤينيك مُنعَزِلًا ومنبوذًا من الجميع منذ ذلك اليوم، ومحبوسًا مع زوجته في حصنه العجيب الذي كان قد أمر ببنائه. ولم يعد أحدٌ يراه في الأعوام اللاحقة. باستثناء شخصين، كانا يستطيعان الوصول إليه. سائقُهُ القديم، ويدعى لويس كلاريت، وهو فقيرٌ بائس يعزُّ كولڤينيك كثيرًا، وقد رفض أن يتخلَّى عنه حتّى عندما لم يعد يستطيع أن يدفعَ راتبه؛ وطبيبُهُ الشخصيّ، الدكتور شيلي، الذي كنّا نُحقِّقُ في شأنه أيضًا. لم يكن أحدٌ غيرهما يراه. وقد أكَّدَ لنا شيلي أنَّ كولڤينيك في قصره بمنتزه غويل، أصابه مرضٌ لم يتمكَّن من شرحه لنا. لكنَّ شهادته لم تقنعنا، خاصَّةً بعدما تفحَّصنا الأرشيف وملفَّات المحاسبة. ظننَّا لوقتٍ طويل أنَّ كولڤينيك مات أو هرب إلى الخارج، وأنَّ انعزاله كان مهزلة. وما انفكَّ شيلي يدَّعي أنَّ صديقَهُ مصابٌ بمرضٍ غريبٍ يحجره في بيته. لا يمكنه استقبال أحد، ولا الخروج من ملجأه مهما كان السبب؛ هذه كانت إجابته. لم نُصدِّقه نحن، ولم يُصدِّقه القاضي. وفي اليوم الأخير من عام ١٩٤٨، حصلنا على مُذكِّرة تفتيش لمقرّ إقامة كولڤينيك، وعلى أمرٍ بالقبض عليه.

كانت معظمُ الوثائق السّرّيَّة للشركة مختفية، فشككنا بأنَّه أخفاها في قصره. وقد راكمنا عددًا لا بأس به من الأدلَّة لاتِّهام كولڤينيك بالاحتيال والتهرُّب الضريبيّ. لم يعد هناك معنى للتمهُّل. سيكون الحادي والثلاثون من شهر ديسمبر عام ١٩٤٨ آخرَ يوم يقضيه حُرًّا؛ إذ تأهَّبت فرقةٌ خاصَّةٌ لمداهمة القصر في صباح اليوم اللاحق. يحدث أحيانًا أنَّنا نضطرُّ إلى الإيقاع بأكبر المجرمين على أتفه الأسباب...

انطفأ سيجار فلوريان ثانيةً. ألقى عليه المُفتِّشُ نظرةً أخيرةً ثمَّ أسقطه في إناءٍ فارغ. كان فيه بقايا أخرى من لفائف التبغ، بما يشبه مقبرةً جماعيّةً لأعقاب السجائر.

- في تلك الليلة نفسها، اندلع حريقٌ مُرعِبٌ في القصر، فدمَّرَهُ ووضع حدًّا لحياة كولڤينيك وزوجته إيڤا. عُثِرَ على جثَّتيهما في الفجر، مُتعانِقتين ومُتفحِّمتين في العُلِّيَة... وهكذا احترقت آمالُنا في إغلاق القضيَّة معهما. ولم أشكّ يومًا في أنَّ الحادثَ مُتعمَّد. بل فكَّرتُ في اللحظات الأولى أنَّ بنخامين سينتيس وأعضاء آخرين من مجلس إدارة الشركة وراء ذلك الحريق.

- سينتيس؟ - قاطعتُهُ.

- لم يكن خافيًا على أحد أنَّ سينتيس يكره كولڤينيك لأنَّه استولى على شركة أبيه، ولكن لم يكن لأحدٍ مصلحةٌ في وصول القضيَّة إلى المحكمة، سينتيس والآخرون على حدٍّ سواء. فما إن ينفق الكلب، يتلاشى الغضب. ومن دون كولڤينيك لا معنى للأحجية كلِّها. قيل إنَّ كثيرًا من الأيدي المُلطَّخة بالدماء تطهَّرَت بالنار في تلك الليلة. ولكن لم يكن من الممكن إثبات شيء،

مثلما هي الحال في هذه الفضيحة منذ بدايتها. انتهى كلُّ شيءٍ إلى رماد. وحتّى يومنا هذا، تبقى قضيَّةُ البيلو-غراني اللغزَ الأعقدَ في تاريخ شرطة برشلونة، والفشلَ الأكبرَ في حياتي...

- لكنَّ الحريقَ لم يكن ذنبك. - تدخَّلتُ.

- أجل ولكنَّ مسيرتي المهنيَّةَ تدمَّرت. عيَّنوني في فرقة مكافحة التمرُّد. هل تعلمان ما هي؟ صيَّادو الأشباح. هكذا يُسمُّونهم في المديريَّة. وددتُ أن أُقدِّمَ استقالتي، لكنَّ وضعي كان صعبًا، وكنتُ براتبي أُعيل أخي وأسرته. ثمَّ مَن كان ليُوظِّفَ ضابط شرطة مُستقيل! بدأت الناسُ تملُّ من الجواسيس والمخبرين. لهذا بقيتُ. كان عملي الجديدُ يكمن في اقتحام شققٍ بائسةٍ في منتصف الليل، يتردَّدُ إليها عُجَّزٌ ومُعوَّقو الحرب، بحثًا عن نسخةٍ من «رأس المال» أو منشوراتٍ اشتراكيَّةٍ مُخبَّأةٍ في أنبوب المرحاض بأكياسٍ بلاستيكيَّة، أو شيءٍ من هذا النوع... وفي مطلع العام ١٩٤٩، ظننتُ أنّي لامستُ القاع. فكلُّ ما كانت عواقبُهُ وخيمة، جاءت نهاياتُهُ أسوأ. أو هكذا تهيَّأ لي على الأقلّ. ولكن، في فجر الثالث عشر من ديسمبر ١٩٤٩، بعد قرابة العام على الحريق الذي أودى بحياة كولڤينيك وزوجته، عُثِرَ على جثَّتين مُهشَّمتين لاثنين من المُفتِّشين زملائي في الفرقة القديمة، وذلك عند أبواب المستوع القديم للشركة، في سوق البورني. كانا قد وصلا إلى هناك للتحقيق بناء على إخباريَّةٍ مجهولة المصدر مُتعلِّقة بالقضيَّة. كمين. لا أتمنَّى مِيتَةً كهذه لألدّ أعدائي. فحتّى عجلات القطار لا تُحيلُ الجسدَ هكذا إلى أشلاء. رأيتُهما في المشرحة... كانا من خيرة ضبَّاط الشرطة. بكامل

سلاحهما، وخبرتهما. فبحسب التقرير، كثيرٌ من أهالي الحيّ سمعوا صوتَ أعيرةٍ ناريَّة. وعُثِرَ في منطقة الحدث على أربعة عشر خرطوشًا من عيار تسعة ملمتر، خرجت كلُّها من أسلحة المُفتِّشَين. فيما لم يجدوا على الحيطان أيَّ ثقبٍ أو رصاصة.

- وكيف تُفسِّرُ الأمر؟ - سألته مارينا.

- ليس لديَّ تفسير. الأمر مستحيل، بكلّ بساطة. لكنَّه وقع... رأيتُ الخراطيشَ بأمّ عيني، وفتَّشتُ المنطقة بنفسي.

تبادلتُ ومارينا النظرات.

- أليس من الممكن أنَّهما أطلقا النار على شيءٍ مّا، سيَّارة أو مركبة مثلًا، وأنَّ هذا الشيء أُصيبَ ثمَّ اختفى دون أن يتركَ أثرًا؟ - سألتْ مارينا.

- صديقتك شرطيَّةٌ بارعة. إنَّها الفرضيَّة التي تبنَّيناها في تلك الفترة، مع عدم وجود أيّ دليلٍ يُؤيِّدُها. لكنَّ الرصاصَ الذي من ذلك العيار يرتدُّ عن الأسطح المعدنيَّة ويترك أثرًا على الدوام، أو بقايا شظايا عمومًا. إلّا أنَّنا لم نجد شيئًا.

*

- بعدها بأيَّام، رأيتُ سينتيس في جنَّاز زميليَّ. - تابع فلوريان - كان مصدومًا، كمن لم يغمض له جفنٌ منذ عدَّة ليالي. ثيابُهُ متَّسخة، ورائحةُ الخمر تفوح منه. اعترف لي بأنَّه ليس شجاعًا بما يكفي ليعودَ إلى بيته، لذا كان يتسكَّعُ في طرقات المدينة منذ أيَّام، وينام حيثما تسنَّى له النوم. «لم يعد لحياتي قيمةٌ يا فلوريان - قال لي - إنَّني ميِّتٌ لا محالة». عرضتُ عليه

حمايةَ الشرطة. فانفجر ضاحكًا. اقترحتُ عليه أن يلتجئ إلى بيتي دفعةً واحدة. «لا أريد أن يُثقِلَ موتُك على ضميري يا فلوريان» قال واختفى بين الزحام. وفي الأشهر اللاحقة، مات جميعُ أعضاء مجلس إدارة البيلو-غراني القدامى، لأسبابٍ طبيعيَّةٍ في ظاهر الأمر. نوبة قلبيَّة، هذا ما أفادت به التقاريرُ الطبّيَّةُ لكافَّة الحالات. تشابهت ظروفُ موتهم. في غرف نومهم، وهم بمفردهم، حوالي منتصف الليل دومًا، وقد عُثِرَ عليهم دومًا في ما يُظَنُّ أنَّه زحفٌ على الأرض... هربًا من موتٍ لا يترك أثرًا. جميعُهم ما عدا بنخامين سينتيس. لم نتواصل طوال ثلاثين عامًا، حتى بضعة أسابيع مضت.

- قبل موته بقليل... - حدَّدتُ.

أومأ فلوريان.

- اتَّصل بالمخفر وسأل عنّي. قال إنَّ لديه معلوماتٍ حول الاغتيالات بجانب المعمل وحول قضيَّة البيلو-غراني إجمالًا. فاتَّصلتُ به وتحادثنا. بدا لي أنَّه يهذي، لكنّي وافقتُ على تحديد موعد. من باب التعاطف. اتَّفقنا أن نلتقي في اليوم التالي بمطعمٍ في شارع البرنسيسة. لكنَّ سينتيس لم يحضر. وبعدها بيومين، أبلغني أحدُ أصدقائي القدامى في المخفر أنَّهم عثروا على جثَّته في مجرورٍ مهجورٍ من شبكة الصرف في البلدة القديمة. بُتِرَت اليدان الاصطناعيَّتان اللتان صنعهما له كولڤينيك. لكنَّ هذا ظهر على صفحات الجرائد. أمّا الذي أغفله الجميعُ فهو أنَّ الشرطةَ اكتشفت كلمةً مكتوبةً بالدم على جدران المجرور: *Teufel*

- *Teufel*؟

- كلمة ألمانيَّة. - قالت مارينا - تعني «الشيطان».
- وهو اسمُ رمز كولڤينيك أيضًا. - باح لنا فلوريان.
- الفراشة السوداء؟
هزَّ رأسه مؤكِّدًا.
- ولماذا تُسمَّى كذلك؟ - سألتْ مارينا.
- لستُ عالِمَ حشرات. ما أعرفه هو أنَّ كولڤينيك كان يجمعها.

*

اقتربنا من منتصف النهار، فدعانا فلوريان للغداء في مقهى قريبٍ من المحطَّة. وكنّا مُتلهِّفين للخروج من ذلك البيت.

وكان صاحبُ المقهى صديقًا لفلوريان على ما يبدو. أجلَسَنا إلى طاولةٍ منعزلة بجانب النافذة.

- جولة مع الأحفاد يا مُعلِّم؟ - سأله مبتسمًا.

فأومأ مُتجنِّبًا الإدلاء بتفسيرات. قدَّمَ لنا أحدُ النُّدُل وجبة تورتيا وطماطم بالخبز المُحمَّص. وجلب للضابط السابق علبةَ سجائر دوكادوس أيضًا. وبينما كان يتذوَّقُ طعامَ المقهى اللذيذ، استأنف فلوريان حكايته.

- عندما بدأتُ بالتحقيق في قضيَّة البيلو-غراني، اكتشفتُ أنَّ ماضي ميخائيل كولڤينيك لم يكن مشرقًا... اسمه لا يظهر في سجلَّات النفوس ببراغ. وربّما لا يُدعى ميخائيل حقًّا.

- فمَن هو إذًا؟ - سألتُ.

- إنَّني أطرح على نفسي هذا السؤال منذ ثلاثين عامًا. حين

تواصلتُ مع شرطة براغ، علمتُ أنَّ ميخائيل كولڤينيك موجود، لكنَّه كان نزيلًا في فولفترهاوس.

- وما هذا؟ - سألتُ.

- مستشفى الأمراض النفسيَّة. لكنّي لا أعتقد أنَّ كولڤينيك نزل فيه. إنّما اتَّخذ اسمَ أحد المرضى. لم يكن كولڤينيك مجنونًا.

- ولماذا ينتحل هويَّةَ مريضٍ نفسيّ؟ - سألتْ مارينا.

- لم يكن هذا الأمرُ مُستَغرَبًا في تلك الفترة. - أوضح فلوريان - ففي زمن الحرب، قد يعني تغييرُ الهويَّة ولادةً جديدة، وتخطّي ماضٍ غير مرغوبٍ فيه. أنتما صغيران ولا تعرفان ما الحرب. لا يمكن للناس أن يتعرَّفَ بعضُهم على حقيقة بعضٍ إلّا بعد أن يعيشوا حربًا...

- هل كان لدى كولڤينيك ما يُخفيه؟ - سألتُ - إن كانت شرطةُ براغ تتوَّفَرُ على معلوماتٍ عنه، فلا بدَّ من وجود سبب...

- محض تشابه أسماء. بيروقراطيَّة. صدِّقاني، فأنا أعلم ما أقول. - قال فلوريان - إذا افترضنا أنَّ كولڤينيك الموجودَ في أرشيفهم هو نفسه كولڤينيك الذي نتحدَّثُ عنه، فقد ترك هذا الرجلُ أثرًا طفيفًا. يظهر اسمُهُ في تحقيقٍ بشأن موت طبيبٍ جرَّاحٍ من براغ، يُدعى أنطونين كولڤينيك. أُغلِقَت القضيَّةُ ونُسِبَ الموتُ إلى أسبابٍ طبيعيَّة.

- فلماذا زجّوا بكولڤينيك الآخر في مستشفى الأمراض النفسيَّة؟ - ألحَّت مارينا.

تردَّدَ فلوريان قليلًا، كما لو تنقصه الشجاعةُ للردّ.

- يُشتَبَهُ في أنَّه فعل شيئًا مّا بالجثَّة. . .

- شيءٌ مّا؟

- لم تُوضِّح شرطةُ براغ ماهيَّةَ هذا الشيء. - أجاب فلوريان مُحتدًّا، وأشعل سيجارةً أخرى.

سادنا صمتٌ طويل.

- ما الذي يمكنك أن تفيدنا به عن الدكتور شيلي؟ عن توأم كولڤينيك، والمرض التنكُّسيّ و. . .

- هذا ما أخبر كولڤينيك به صديقَه. كان ذلك الرجلُ يكذب بسهولةٍ تضاهي تنفُّسَهُ. وكان لشيلي أسبابٌ منطقيَّةٌ لتصديقه وعدم الإكثار من الأسئلة. - قال فلوريان - لقد موَّلَ كولڤينيك مركزَهُ الطبّيَّ وبحوثَهَ حتّى الفلس الأخير. شيلي أحدُ المُستَخدَمين من قِبَل البيلو-غراني فعليًّا. إمَّعة. . .

- أهذا يعني أنَّ توأمَ كولڤينيك من اختلاقه؟ - سألتُهُ مذهولًا - قد يُسوِّغُ وجودُهُ هوسَ كولڤينيك بالكائنات المُشوَّهة و. . .

- لا أعتقد أنَّ أخاه من اختلاقه. - قاطعني فلوريان.

- فماذا إذًا؟

- أعتقد أنَّ الطفلَ الذي كان يتحدَّثُ عنه، هو نفسُهُ في الحقيقة.

- سؤالٌ آخر، حضرة المُفتِّش. . .

- لم أعد مُفتِّشًا يا ابنتي. . .

- فيكتور إذًا. ما زال اسمُك فيكتور، أليس كذلك؟

رأيتُهُ يبتسم منشرحًا للمرَّة الأولى.

- ما السؤال؟

- حضرتك قلتَ إنَّك أثناء التحقيق حول جرائم احتيال البيلو-غراني اكتشفتم شيئًا آخر. . .

- نعم. ظننَّا في البداية أنَّها الحِيَلُ المعتادة: إدراجُ فواتير نفقات ودفعات وهميَّة للتهرُّب من الضرائب، تبرُّعات لمستشفيات ومراكز إيواء مُشرَّدين إلخ. إلى أن استغرب أحدُ رجالي أنَّ فئةً مُعيَّنةً من الفواتير، المُصدَّقة والممضيَّة من قِبَلِ الدكتور شيلي كلّيًّا، صادرةٌ عن مكاتب التشريح في عدَّة مستشفياتٍ ببرشلونة. أي من المشرحة. - أوضح الضابطُ السابق - مستودع الجثث.

- هل كان كولڤينيك يبيع الجثث؟ - ارتجلت مارينا.

- لا. بل كان يشتريها. بالعشرات. جثثُ مُعدَمين. أشخاصٌ بلا أهلٍ أو معارف. مُنتحِرون، غرقى، عُجَّزٌ مهجورون. . . منسيّو المدينة.

كانت همهمةُ الراديو في الخلفيَّة مثل صدى لمحادثتنا.

- وما الذي كان يفعله بتلك الجثث؟

- لا أحد يدري. - أجاب فلوريان - لم نعثر يومًا على أيٍّ منها.

- لكنَّ حضرتك مُطَّلعٌ بالخصوص، أليس كذلك؟ - ألحَّت مارينا.

حدَّقَ فلوريان إلينا ساكتًا.

- لا.

لم يكن الكذبُ يليق بضابطٍ متقاعدٍ مثله. كفَّت مارينا عن إلحاحها. وبدت علاماتُ التعب على المُفتِّش، وقد أنكهته

الظلالُ التي تسكن ذكرياته. تفتَّتَت شراسته. وكانت السيجارة بين أصابعه المرتجفة تستنزفه.

- بخصوص الدفيئة التي حدَّثتماني عنها... لا تعودا إليها. انسيا أمرَ هذه المسألة. انسيا ألبومَ الصور ذاك، والقبرَ المجهول والمرأةَ التي تزوره. انسيا سينتيس، وشيلي، والداعي، المُسنَّ البائس الذي لم يعد يعرف شيئًا. فلقد دمَّرت هذه المسألةُ حياةَ كثيرٍ من الأشخاص. انسياها.

أشار إلى النادل ليأتيه بالحساب واختتم كلامه:

- عداني بأنَّكما ستعملان بنصيحتي.

تساءلتُ كيف سنستطيع نسيان الأمر في حين كان الأمرُ بذاته يتعقَّبنا. فبعد كلّ ما جرى في الليلة السابقة، بدت لي نصائحه خرافيَّة.

- سنحاول. - أجابت مارينا باسمي واسمها.

- الطريق إلى الجحيم محفوفةٌ بالنوايا الحسنة. - ردَّ فلوريان.

*

رافقنا المُفتِّشُ إلى محطَّة الترام الجبليّ وأعطانا رقمَ هاتف المقهى.

- هنا يعرفونني. إذا احتجما إلى أيّ شيء، اتِّصلا بالرقم وسيُوصِلون إليَّ الرسالة. في أيّ ساعةٍ من النهار أو الليل. مانو، صاحب المقهى، يعاني أرقًا مزمنًا، ويقضي الليالي بالاستماع إلى البي بي سي، لعلَّه يتعلَّمُ الإنكليزيَّة. لذا لا تتردَّدا...

- لا أعرف كيف نشكرك...

- بأن تعملا بنصيحتي وأن تبقيا بعيدًا عن المشاكل. - قاطعني فلوريان.

أومأنا. وانفتحت أبوابُ الترام.

- وحضرتك، يا فيكتور؟ - سألته مارينا - ماذا ستفعل؟

- ما يفعله جميعُ المُسنِّين: أتذكَّرُ وأتساءل ما الذي كان سيقع لو أنّي فعلتُ عكس ما فعلتُه حقًّا. هيّا، اذهبا الآن...

ركبنا المقصورة وجلسنا بجانب النافذة. كانت الشمسُ تغيب. دوَّى صفيرٌ وانغلقت على إثره الأبواب. وبدأ الترامُ الجبليُّ يهبط بارتجاجات. تركنا أضواءَ بايبيذريرا خلفنا شيئًا فشيئًا، وفلوريان المُتحجِّرَ على الرصيف.

*

كان خيرمان قد أعدَّ طبقًا إيطاليًّا لذيذًا، يبدو اسمُهُ عملًا أوبراليًّا. تعشَّينا في المطبخ، بينما كان يقصُّ علينا عن مباراة الشطرنج مع القسّ الذي هزمه كالمعتاد. التزمت مارينا الصمتَ على غير عادتها، لتترك لي ولأبيها عبءَ المحادثة. حتّى إنّي تساءلتُ ما إذا قلتُ أو فعلتُ شيئًا أزعجها. وبعد العشاء، تحدَّاني خيرمان على الشطرنج.

- هذا يُسعِدني، ولكن أعتقد أنَّه دوري في غسل الأطباق.

- اعتذرتُ.

- سأغسلها بنفسي. - غمغمت مارينا من خلف ظهري.

- لا. أنا جادٌّ بكلامي... - اعترضتُ.

غير أنَّ خيرمان كان قد انتقل إلى الغرفة الأخرى، وهو يدمدم ويُوزِّعُ القِطَعَ على الرقعة. التفتُّ نحو مارينا التي تجنَّبت نظراتي وباشرت التنظيف.

- دعيني أساعدكِ...

- كلّا... اذهب لدى خيرمان. أسعِدْهُ.

- ها يا أوسكار... هل ستأتي؟ - وصلني صوتُهُ من الصالة.

رمقتُ مارينا على ضوء الشموع المُشتَعِلة على أحد الرفوف. بدت لي شاحبةً متعبة.

- هل أنتِ بخير؟

التفتت وابتسمت لي. كانت طريقتُها في الابتسام تُشعِرُني بأنّي صغيرٌ وتافه.

- اذهب، هيّا. دعه يَفُزْ.

- لا أسهل من ذلك.

تركتُها بمفردها وبلغتُ أباها في الصالة. جلستُ أمام الرقعة، المضاءة بشمعدانٍ من الكوارتز، وتأهَّبتُ لأُسلِّيه قليلًا، بناءً على طلب مارينا.

- فلتبدأ حضرتك يا أوسكار.

حرَّكتُ بيدقًا. فنحنح قائلًا:

- أُذكِّرك بأنَّ البيادقَ لا تقفز بهذا الشكل يا أوسكار.

- المعذرة.

- لا عليك. إنَّها جذوة الشباب. واعلمْ أنَّني أغبطك عليها. الشبابُ مثل خطيبةٍ مُتقلِّبة. لا نتفهَّمها ونُقدِّرها إلّا حين تتركنا من

أجل رجلٍ آخر ولا تعود... آه!... لا أعلم ما شأن هذا بالموضوع... سنرى... بيدق...

*

انتزعني صوتٌ مُباغِتٌ من حلمي في منتصف الليل. كانت الدارُ غارقةً في الظلمة. جلستُ على السرير وسمعتُ الصوتَ ثانيةً. نوباتُ سعال، مكبوتةٌ وبعيدة. نهضتُ قَلِقًا وخرجتُ إلى الممرّ. كان الصوتُ صادرًا من الطابق السفليّ. مررتُ بجانب غرفة مارينا. بابُها مفتوحٌ وسريرُها خالٍ. أحسستُ بصعقة خوف.

- مارينا؟

لا جواب. نزلتُ العتبات الباردة على رؤوس أصابعي. كانت عينا كافكا تلمعان عند أسفل السلالم. ماءَ القطُّ مواءً خفيضًا واقتادتني إلى ممرٍّ مظلم. ثمّة ضوءٌ خافتٌ يتسرَّبُ من أحد الأبواب المغلقة في نهايته. السعالُ صادرٌ من الداخل. سعالٌ أليم. مُختَنِق. اقترب كافكا من الباب وتوقَّفَ وهو يموء. ناديتُ همسًا.

- مارينا؟

أطبق الصمت.

- انصرف من هنا يا أوسكار.

كان صوتُها أنينًا. انتظرتُ قليلًا ثمَّ فتحتُ الباب. رأيتُ شمعةً على الأرض بالكاد تُنيرُ بِلاطَ الحمَّام الأبيض. وكانت مارينا جاثيةً على ركبتيها، وجبينُها مسنودٌ إلى المغسلة. ترتجف كلّيًّا، تتصبَّبُ عرقًا حتّى التصقت منامتُها بجسدها، كأنَّها كفن.

أخفت وجهها، لكنّي استطعتُ أن أرى نزيفَ الدم من أنفها، ناهيك ببقعٍ حمراء كثيرة على صدرها. شُلَّت حركتي، وعجزتُ عن التصرُّف.

- ما الذي حدث لكِ؟... - غمغمتُ.

- أغلق الباب. - قالت بحزم - أغلقْه.

فعلتُ ما أمرتني به واقتربتُ منها. كانت حرارتُها مرتفعة. وشعُرها دَبِقٌ على وجهها المنقوع بعرقٍ بارد. نهضتُ مذعورًا لأنادي خيرمان، لكنَّ يدَ مارينا أمسكتني بقوَّةٍ غير مُتوقَّعة.

- كلا!

- ولكن...

- أنا بخير.

- أنتِ لستِ بخير!

- أوسكار، أُحلِّفك بأغلى ما لديك، لا تُنادِ خيرمان. لن يقوى على فعل شيء. سينقضي الأمر. سأتحسَّنُ فورًا.

بدا لي صفاءُ صوتها مرعبًا. بحثت عيناها عن عينيَّ. أجبرني شيءٌ مّا في تلك النظرة على الانصياع لها. داعبت وجهي حينذاك.

- لا تقلق. أنا أتحسَّن.

- أنتِ شاحبةٌ كجثَّة. - تلعثمتُ.

أمسكت يدي ووضعتْها على صدرها. فأحسستُ بنبض قلبها تحت أضلاعها. سحبتُ يدي حائرًا.

- سالمةٌ معافاة، أترى؟ عليك أن تُقسِمَ بأنَّك لن تقولَ شيئًا لخيرمان.

- لماذا؟ - اعترضتُ - ما بكِ؟

أخفضت أنظارها، مغلوبةً من تعبٍ هائل. فالتزمتُ الصمت.

- عِدني.

- ينبغي أن يعاينكِ طبيب.

- عِدني يا أوسكار.

- إن وعدتِني أنتِ بالذهاب إلى طبيب.

- اتَّفقنا. أعدك بذلك.

رطَّبت إحدى المناشف، وبدأت تمسح وجهها من الدم. شعرتُ أنّي بلا جدوى.

- لن تُعجَبَ بي بعد الآن وقد رأيتني على هذه الحال.

- نكتةٌ سمجة.

تابعت مسح وجهها بصمت، ولم تحد أنظارها عنّي. كان جسمُها الحبيسُ في ذلك النسيج الرطب، يبدو شفيفًا، وهشًّا ورهيفًا. فوجئتُ بنفسي لا أشعر بالارتباك من النظر إليها هكذا، ولا هي أبدت ارتباكًا من حضوري. ارتجفت يداها وهي تُجفِّفُ العرقَ وتمسح الدم. ثمّة بُرنُسٌ نظيفٌ ومُعلَّقٌ خلف الباب، فناولتُهُ لها. وضعتْهُ على كتفيها وتنهَّدت مُنهَكَة.

- ماذا أفعل من أجلكِ؟

- ابقَ معي هنا.

جلست أمام المرآة. حاولت بالمشط أن تُسرِّحَ شعرها المتشابك والمنثور على كتفيها، ولكن عبثًا. كانت خائرة القوى.

- دعيها لي. - قلتُ وأخذتُ المشطَ من يدها.

مشَّطتُ شعرها بهدوء، بينما كانت نظراتنا تتلاقى في المرآة. شدَّت مارينا على يدي ولامست بها إحدى وجنتيها. فتبلَّلت أصابعي بالدموع، ولم تتسنَّ لي الشجاعةُ لأسألها عن سبب بكائها.

*

رافقتُ مارينا إلى غرفتها وأعنتُها على الاستلقاء على السرير. اختفت الرجفةُ واستعاد وجهُها بعضًا من ألقه.

- شكرًا... - همست.

فكَّرتُ بأنَّه من الأفضل أن أتركها تستريح، فرجعتُ إلى غرفتي. استلقيتُ على السرير وحاولتُ أن أغفو فلم أنجح. وبقيتُ هكذا، تحت الظلام، قَلِقًا، أصغي إلى قرقعات تلك الدار الكبيرة بينما تعبث الريحُ بقمم الأشجار. افترسني هلعٌ أعمى. أشياء كثيرةٌ تحدث، وبسرعةٍ هائلة. لم يتمكَّن عقلي من استيعابها جميعًا معًا. فبدا كلُّ شيءٍ في ظلام تلك الليلة أنَّه يتعقَّدُ أكثر فأكثر. غير أنَّ أكبرَ مخاوفي كان عجزي عن فهم مشاعري تجاه مارينا. فلم أنم إلّا وقد بزغ الفجر أخيرًا.

وجدتُني في الحلم أجتاز غرفَ قصرٍ رخاميٍّ أبيض، مُقفِرٍ وغارقٍ في العتمة. وكان القصرُ مسكونًا بمئات التماثيل التي تفتح عيونَها الحجريَّةَ عند مروري وتتهامس بكلماتٍ لا أفهمها. حتّى تهيَّأ لي أنّي ألمح مارينا في البعيد، فركضتُ لملاقاتها. وكان طيفٌ نورانيٌّ أبيض، على شكل ملاك، يمسك يدها على امتداد ممرٍّ تنزف جدرانُهُ دماءً غزيرة. حاولتُ الوصولَ إليهما لكنَّ بابًا

في الممرّ انفرج لتخرج منه ماريّا شيلي، وهي تطفو في الهواء وتجرجر كفنًا مهترئًا. كانت تبكي، لكنَّ دموعها لا تمسُّ الأرض. مدَّت ذراعيها نحوي، وحين لمستني تذرَّى جسمُها كالرماد. كنتُ أصرخ مناديًا مارينا، وأُحلِّفُها بأن تعود، لكنَّها لم تكن تسمعني. فأركض وأركض، في حين بدا أنَّ الممرَّ يزداد طولًا كلَّما تقدَّمتُ خطوة. التفت الملاكُ النورانيُّ إليَّ عندئذٍ وكشف لي عن وجهه الحقيقيّ. كانت عيناه جوفين فارغين، وشعرُهُ الأفعوانيُّ أبيض. وكان يضحك ضحكةً فظَّة. بسط الملاكُ الجهنَّميُّ جناحيه الأبيضين على مارينا، ثمَّ مضى. وكنتُ في الحلم أحسُّ بأنفاسٍ نتنةٍ تلفح رقبتي. همست رائحةُ الموت الجليَّةُ باسمي. التفتُّ فرأيتُ فراشةً سوداء تحطُّ على كتفي.

١٧

استيقظتُ بنَفَسٍ مقطوع. وشعرتُ أنّي متعبٌ أكثر ممّا كنتُ عليه حين خلدتُ للنوم. صدغاي ينبضان كما لو تجرَّعتُ إبريقين من القهوة. لم أعرف كم الساعة، لكنَّي استنتجتُ من سطوع الشمس أنَّ النهارَ ينتصف أو يكاد. وأكَّدت عقاربُ الساعة تشخيصي. منتصف النهار تمامًا. تعجَّلتُ للنزول، لكنَّ البيت كان خاليًا. بَرَدَ الفطورُ بانتظاري على طاولة الطعام في المطبخ، وبجانبه رسالة.

أوسكار،

اضطررنا إلى الذهاب لدى الطبيب. سنبقى خارج الدار طوال اليوم. لا تنسَ أن تُطعِمَ كافكا. نلتقي على ساعة العشاء.

مارينا

قرأتُ الرسالة مرَّتين وتفحَّصتُ الخطَّ وأنا ألتهم الفطور. تكرَّمَ عليَّ كافكا بالظهور بعد قليل، فقدَّمتُ له قصعة الحليب. لم يكن عندي ما أفعله في ذلك اليوم. لذا قرَّرتُ الذهابَ إلى المدرسة الداخليَّة لآخذ بعض الثياب وأُبلِغَ السيِّدةَ باولا بألّا تنشغل بتنظيف غرفتي لأنّي سأقضي العطلة مع العائلة. تحسَّنَ

مزاجي بفضل المشية إلى المدرسة. دخلتُ من الباب الرئيس واتَّجهتُ نحو شقّة السيِّدة باولا، في الطابق الثالث.

كانت السيِّدةُ باولا امرأةً طيِّبة، ابتسامتُها دائمة في وجه التلاميذ. أرملةٌ منذ ثلاثين عامًا، وتتَّبعُ حميةً يعلم اللّه متى باشرتْها. إذ كانت تقول: «طبيعتي تفرض عليَّ أن أسمن». لم تُرزَق بأبناء، وما زالت حتّى ذلك الحين، بعمرٍ يناهز خمسة وستِّين عامًا، ترمي نظراتها الحاسدة على الرُّضَّع الذين تصادفهم بعرباتهم عندما تذهب إلى السوق. تعيش بمفردها، لا رفيق لها سوى زوجٍ من الكناري، وتلفازٍ ضخم من ماركة زينيت، لا تُطفئه إلّا إذا أرسلها النشيدُ الوطنيُّ وصورُ أفراد الأسرة الملكيَّة إلى السرير. أفسد كلور التنظيف يديها، وكانت عروقُ كاحليها تُسبِّبُ الألمَ لمجرَّد النظر إليها. تتمثَّلُ رفاهيَّتُها الوحيدةُ بموعدٍ لدى الكوافير كلَّ أسبوعين، واقتناء مجلَّة «*Hola*». تعشق الاطلاع على القيل والقال عن حياة الأميرات، والإعجاب بأزياء نجمات الاستعراض. وحين طرقتُ الباب عليها كانت تشاهد الإعادةَ المسائيَّةَ للفيلم الغنائيّ «عندليب البيرينيه»، من بطولة المطرب خوسيليتو. وكانت قد أعدَّت كمّيَّةً كبيرةً من الرقائق المُحمَّصة والمُغمَّسة بالحليب المُركَّز والقرفة، لمصاحبة الفرجة.

- مساء الخير، سيِّدة باولا. عذرًا على الإزعاج.

- أوسكار، يا بنيَّ، لا إزعاج إطلاقًا! ادخل، ادخل...

كان خوسيليتو على الشاشة يصدح بأغنيةٍ مُبهجةٍ على ظهر جديٍ صغير، وتحت أنظارٍ طيِّبةٍ ومسحورةٍ لعنصرين من الحرس المدنيّ. وثمّة مجموعةٌ من أيقونات مريم العذراء، بجانب

التلفاز، حيث تتصدَّرُ مرتبةَ الشرف في الخزانة الزجاجيَّة، مع صورٍ قديمة لزوجها رودولفو الذي يتباهى بشَعره الممسوح بالدهن، وبزَّة الفالانخي اللامعة. ورغم إخلاصها لزوجها الفقيد، كانت السيِّدةُ باولا تحبُّ الديمقراطيَّة لأنَّ التلفزيونَ صار مُلوَّنًا، على حدّ قولها، وينبغي مواكبة العصر.

- يا للرعب أوَّلَ من أمس، ها؟ قالوا في النشرة الإخباريَّة إنَّ زلزالًا ضرب كولومبيا، ياه، لا أدري، خفتُ كثيرًا...

- لا تشغلي بالكِ يا سيِّدة باولا، كولومبيا بعيدةٌ جدًّا.

- صحيح، ولكن بما أنَّهم يتحدَّثون الإسبانيَّة في كولومبيا، لا أدري، فلنفترض أنَّ...

- اطمئنّي، لا يوجد خطرٌ علينا. كنتُ أريد أن أُخبركِ بألّا تنشغلي بتنظيف غرفتي. سأقضي الميلاد مع العائلة.

- آه، أوسكار، يا لها من فرحة!

لقد رأتني السيِّدةُ باولا وأنا أكبر أمامها، وكانت على قناعةٍ تامّةٍ بأنَّ كلَّ شيءٍ أفعله هو معجزة. «أنت موهوبٌ حقًّا» قالت دائمًا، مع أنَّها لم تُوضِّح يومًا بماذا أنا موهوب. أصرَّت كثيرًا على أن أشربَ كأس حليب وأن أتذوَّقَ الرقائقَ المُحمَّصة التي أعدَّتْها. فأسعدتُها، مع أنّي كنتُ فاقدَ الشهيَّة. بقيتُ بعض الوقت عندها، أتفرَّجُ على الفيلم بالتلفاز، وأهزُّ رأسي حيال أيّ تعليقٍ تفوه به. كانت المرأةُ الطيِّبةُ تتكلَّمُ طوال الوقت عندما يجالسها أحدهم، أي لا تتكلَّمُ أبدًا.

- كان وسيمًا جدًّا في شبابه، ها؟ - قالت وأشارت إلى المطرب خوسيليتو.

- أجل يا سيِّدة باولا. ولكن عليَّ أن أغادر الآن...

ودَّعتُها بقبلةٍ على خدِّها وانصرفتُ. صعدتُ إلى غرفتي لآخذَ بعضَ القمصان وبنطلونًا وملابسَ داخليَّة، ألقيتُها في الكيس بعجالةٍ وعشوائيَّة، دون أن أتوقَّفَ ثانيةً واحدة أكثر من الضروريّ. وقبل أن أخرج، مررتُ بالسكرتاريا وردَّدتُ عليهم حكايةَ عيد الميلاد مع العائلة بنبرةٍ هادئة. وخرجتُ من المدرسة متمنِّيًا لو كانت الأشياءُ كلُّها سهلةً هكذا مثلما هو اختلاق الأكاذيب.

*

تعشَّينا بصمتٍ في صالة اللوحات. كان خيرمان معزولًا، سارحًا في أفكاره. وإذا تلاقت نظراتُنا أحيانًا، ابتسم لي احترامًا. وكانت مارينا تُدوِّرُ الملعقةَ في صحن الحساء، دون أن تحملها إلى شفتيها. اقتصرت المحادثةُ على صرير أدوات الطعام بالصحون، وطقطقة الشموع. كان واضحًا أنَّ الطبيبَ لم يُسمِعْهما أخبارًا سارَّة حول صحَّة خيرمان. فقرَّرتُ عدم طرح أسئلةٍ عمّا كان يبدو بديهيًّا. اعتذر خيرمان بعد العشاء وانسحب إلى غرفته. بدا لي أنَّه أشدُّ شيخوخةً وإرهاقًا. فتلك هي المرَّةُ الأولى التي أراه فيها، مذ عرفتُهُ، يتجاهل صورَ زوجته كيرستن. وما إن خرج من الغرفة، أزاحت مارينا الطبقَ الذي ظلَّ على حاله، وتنهَّدت.

- لم تأكلي شيئًا.

- لستُ جائعة.

- أنباءٌ سيِّئة؟

- فلنتحدَّث بشأنٍ آخر! - أجابت بنبرةٍ حادَّة، أقرب إلى العدائيَّة.

أشعرني ردُّها القاطع بأنّي غريبٌ في بيت الغير. كأنَّه يُذكِّرني بأنَّ تلك ليست عائلتي، وأنَّ هذه ليست داري، وأنَّ مشاكلهم ليست مشاكلي، مهما كلَّفتُ نفسي للحفاظ على ذلك الوهم.

- أنا آسفة. - غمغمت بعد قليل، ومدَّت يدها نحوي.

- لا يهمّ. - كذبتُ.

نهضتُ لأحمل الصحونَ إلى المطبخ. وظلَّت مارينا جالسةً بصمتٍ تداعب كافكا، الذي كان يموء في حضنها. استغرقتُ وقتًا أطول من اللازم. غسلتُ الصحونَ والملاعقَ حتّى لم أعد أشعر بيديَّ تحت الماء. وحين عدتُ إلى الصالة، كانت مارينا قد صعدت إلى غرفتها مسبقًا. تركت شمعتين مُشتَعِلتين من أجلي. فيما غطَّت الدارُ بالظلام والسكون. نفختُ على الشمعتين وخرجتُ إلى الحديقة. سُحُبٌ سوداء تتلبَّدُ ببطءٍ في السماء. ريحٌ باردةٌ تهزُّ الغاب. التفتُّ فرأيتُ أنَّ غرفةَ مارينا مضاءة. تخيَّلتُها مستلقيةً على السرير. انطفأ النورُ بعد قليل. فتبدَّت الدارُ الكبيرةُ مثل أطلالٍ معتمة، مثلما بدت لناظريَّ في اليوم الأوَّل تمامًا. فكَّرتُ في إمكانيَّة أن أخلد للنوم أنا أيضًا، لكنّي شعرتُ ببداية قلق، وتصوَّرتُ ليلةَ أرقٍ طويلة. فقرَّرتُ أن أتمشَّى لأُنعِشَ أفكاري، أو لأُتعِبَ جسدي على الأقلّ. فما لبثتُ أن خطوتُ بضعة أمتار حتّى بدأ المطرُ ينهمر. ليلةٌ موحشة، لا أحد في الطريق. غللتُ يديَّ في جيبيَّ وواصلتُ المسير. تسكَّعتُ مدَّةَ ساعتين تقريبًا. لكنّي لم أحظَ بالتعب المنشود، لا عبر البرد ولا

عبر المطر. ثمّة فكرةٌ تحوم في رأسي، وكلّما حاولتُ تجنُّبها ازدادت إلحاحًا.

ساقتني خطواتي إلى مقبرة ساريّا. كان المطرُ يجلد الوجوهَ الحجريَّةَ المُتفحِّمة والصلبانَ المائلة. تراءى لي من خلف البوَّابة معرضُ أطيافٍ مُريعة. وكانت الأرضُ الرطبةُ تفوح بالأزهار الميِّتة. أسندتُ رأسي بين القضبان. الحديدُ بارد. سقطت على وجهي بقايا صدأ. شحذتُ ببصري في الظلمات، على أمل العثور في ذلك المكان على تفسيرٍ لكلّ ما كان يحدث. فلم أرَ غيرَ الموت والسكون. ما الذي أفعله هنا؟ لو كان في رأسي ذرَّةُ عقل، لسارعتُ بالعودة إلى البيت لأنامَ ما لا يقلُّ عن مئة ساعةٍ متواصلة. وكانت هذه أفضلَ فكرةٍ خطرت في بالي خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة أغلب الظنّ.

استدرتُ وعدتُ أدراجي على درب السرو. لمحتُ في البعيد مصباحًا يشعُّ تحت المطر. اختفت هالتُهُ المضيئةُ فجأةً جرَّاء ظهور جسمٍ قاتم اللون. وسمعتُ وجيفًا على الدرب الحجريّ، وأبصرتُ عربةً سوداء تتوغَّلُ مُمزِّقةً ستارة الماء. تكثَّفت أنفاسُ الخيلين الأسودين ببخارٍ متماسك. وكان شخصُ الحوذيّ الذي يعتلي مقعدَهُ خارجًا عن المألوف. بحثتُ عن مخبأ عند حافّة الدرب، فلم أجد سوى جدرانٍ عارية. وأحسستُ بالأرض ترتجُّ تحت قدميَّ. فلم يبق لديَّ إلّا خيارٌ واحد: العودة إلى الوراء. تسلَّقتُ على البوَّابة الحديد، مبلّلًا حتّى النخاع ومقطوع الأنفاس، وقفزتُ إلى داخل المقبرة.

١٨

سقطتُ على فراشٍ من الطين الذي كان يتحلَّلُ تحت المطر الغزير. وكانت جداولُ من ماءٍ قذرٍ تجرف أزهارًا يابسةً بجريانها بين شواهد القبور. غاصت يداي وقدماي في ذلك الوحل. فنهضتُ ثانيةً وركضتُ لأختبئ خلف جذع تمثالٍ رخاميٍّ يرفع ذراعيه إلى السماء. وتوقَّفت العربةُ أمام البوَّابة. نزل الحوذيّ. كان يحمل في يده قنديلًا ويرتدي معطفًا تصل أهدابُهُ إلى قدميه. فضلًا عن قبَّعته عريضة الحوافّ وشاله اللذين يُغطّيان وجهَهُ فيتَّقي بهما البردَ والمطر. عرفتُ تلك العربة. هي نفسُها التي استقلَّتها السيِّدةُ ذات السواد في ذلك الصباح عند محطَّة فرنسا. رمزُ الفراشة السوداء يُخيِّمُ على أحد أبوابها. وستائرُ المخمل الغامق تحجب النوافذ. فتساءلتُ ما إذا كانت المرأة هناك، داخل المقصورة.

اقترب الحوذيُّ من البوَّابة، وأخذ يسترق السمعَ ويتلصَّصُ النظرَ إلى داخل المقبرة. فالتصقتُ بالتمثال وتجمَّدتُ. ثمَّ سمعتُ رنينَ حزمة مفاتيح. وفرقعة قفلٍ حديديّ. فجدَّفتُ بصوتٍ خفيّ. صرصرت البوَّابة. خطواتٌ على الطين. كان الحوذيُّ يدنو

من مخبأي. عليَّ أن أهربَ فورًا. التفتُّ لأتقصَّى المقبرةَ خلف ظهري. تمزَّقَ حجابُ السحب السوداء. ورسم القمرُ دربًا من نورٍ طيفيّ. والتمع امتدادُ القبور في الظلمات لوهلة. تراجعتُ مُتسلِّلًا بين الشواهد حتّى وصلتُ ضريحًا موصدًا بأبوابٍ زجاجيَّةٍ ثقيلة وحديدٍ مطروق. وما انفكَّ الحوذيُّ يقترب أكثر. حبستُ أنفاسي وغطستُ في الظلام. فمرَّ على بُعد مترين عنّي، رافعًا القنديلَ عاليًا. اجتازني فتنفَّستُ الصعداء. رأيتُهُ يبتعد نحو قلب المقبرة ففهمتُ مباشرةً إلى أين كان ذاهبًا.

تتبَّعتُهُ مُدرِكًا جنونَ قراري. تقدَّمتُ متواريًا بالشواهد حتّى قطاع المقبرة الشماليّ، ثمَّ تسلَّقتُ على دكَّةٍ تُشرِفُ على المنطقة بأكملها. كان قنديلُ الحوذيّ يومض تحتي بمترين، إذ ثبَّتَهُ على القبر المجهول الهويَّة. وكان المطرُ يسيل على الفراشة المنحوتة في الحجر، كأنَّها تنزف. لمحتُ جسمَ الحوذيّ ينحني على القبر. أخرج من تحت معطفه غرضًا طويلًا، قضيبًا حديديًّا، وأخذ يتحسَّسُ به. مضغتُ ريقي حين استوعبتُ ما الذي كان يحاول فعله. كان يريد أن يفتح القبر. وددتُ أن أفرَّ بجلدي، لكنّي عجزتُ عن الحركة. استطاع إزاحةَ صخرة القبر بضعة سنتمترات. انفتحت بئرُ الظلمات شيئًا فشيئًا، إلى أن هوت الشاهدةُ الرخاميَّةُ على جانبها وانفلقت نصفين. أحسستُ أنَّ الأرض تهتزُّ تحت قدميّ من هول الارتطام. أمسك الحوذيُّ قنديلَهُ وأنار الحفرة، بعمق مترين. كأنَّها مصعدٌ نحو الجحيم. التمع سطحُ تابوتٍ أسود. رفع الرجلُ أبصارَهُ إلى السماء، وقفز في القبر بغتةً. اختفى لوهلة، كأنَّ الأرضَ ابتلعته. ثمَّ سمعتُ

ضرباتٍ تفتك بالخشب القديم. فقزتُ إلى الأسفل. وتقدَّمتُ في الطين، مُقتَرِبًا ملمترًا بملتمرٍ إلى حافّة الحفرة. تطلَّعتُ إليها.

كانت الأمطارُ تهطل على داخل القبر، حتّى فاض القاع. وما زال الحوذيُّ هناك. كان في تلك اللحظة يخلع غطاءَ التابوت، إلى أن تراخى من أحد جوانبه مُصدِرًا دويًّا شديدًا. تعرَّضَ الخشبُ المُتعفِّنُ والقماشُ البالي للضوء. كان التابوتُ خاويًا. تفحَّصَهُ الرجلُ مُتسمِّرًا في مكانه. سمعتُهُ يغمغم بشيءٍ مّا. وأدركتُ أنَّها اللحظة المناسبة للّوذ بالفرار. وبينما كنتُ أفعلها، ركلتُ حصوةً من دون قصد، فتدحرجت إلى الحفرة وارتطمت بالتابوت. والتفت الحوذيُّ باتِّجاهي خلال عُشرٍ من الثانية. كان يحمل في قبضته اليمنى مُسدَّسًا.

هممتُ بالركض كاليائسين نحو المخرج، متفاديًا الشواهدَ والتماثيل. سمعتُ الحوذيَّ يصرخ خلف ظهري، وهو يصعد من الحفرة. تراءت لي البوَّابةُ الحديديَّةُ والعربةُ المتوقِّفةُ في الخارج. فركضتُ بأنفاسٍ مقطوعة إلى ذلك الاتِّجاه. وكانت خطواتُ الحوذيّ تقترب أكثر. واستوعبتُ أنَّه يستطيع الوصول إليَّ، في مجالٍ مفتوح، خلال ثوانٍ معدودة. وفكَّرتُ في السلاح الذي بيده، ونظرتُ حولي يائسًا، بحثًا عن مخبأ. حطَّت عيناي على الخيار الممكن الوحيد. وترجَّيتُ كلَّ أولياء الفردوس ألّا يخطرَ ببال الحوذيّ أن يبحث عنّي هناك تحديدًا: صندوق الأمتعة الخلفيّ بعربته نفسها. قفزتُ واندسستُ فيها. وبعد ثوانٍ، تناهت إلى مسمعي خطواتُ الرجل السريعةُ وهي تدوّي في درب السرو.

تخيَّلتُ ما الذي كان يراه: دربٌ مُقفِرٌ تحت المطر. توقَّفت

خطواتُهُ. دارت حول العربة. خشيتُ أنّي تركتُ أثرًا يكشف حضوري. وأحسستُ بثقل جسده وهو يمتطي مقعده. تحجَّرتُ في مكاني. وصهل الخيلان. بدا لي الانتظارُ بلا نهاية. لكنّي سمعتُ ضربةَ السوط حينئذ، وقذفتني صدمةُ الانطلاقة إلى عمق الصندوق. وتحرَّكت بنا العربة.

*

وسرعان ما تحوَّلت الذبذبةُ الأولى إلى قعقعةٍ حادّةٍ ومُتخبِّطة، تدقُّ عضلاتي التي جمَّدها البرد. حاولتُ أن أُخرِجَ رأسي من صندوق الأمتعة، لكنَّ الاهتزازات جعلت وقوفي على متن العربة مستحيلًا.

خلَّفْنا حيَّ ساريّا وراءنا. قدَّرتُ احتماليَّةَ كسر عنقي إذا حاولتُ القفزَ من العربة وهي تسير. فاستبعدتُ الفكرة. شعرتُ أنّي أضعفُ من تنفيذ حركاتٍ بطوليَّةٍ أخرى، كما أنّي كدتُ أموت في الواقع من فضولي لمعرفة وجهتنا، لذا استسلمتُ للظروف. واستلقيتُ بقدر المستطاع لأستريحَ في عمق الصندوق. إذ فكَّرتُ من الأفضل أن أستعيدَ قواي: ستنفعني فيما بعد.

بدت لي الرحلةُ سرمديَّةً. لم تساعدني وضعيَّةُ الحقيبة، وأحسستُ أنَّنا قطعنا كيلومترات طويلة تحت المطر. تخدَّرت عضلاتي تحت ثيابي المنقوعة. وكنّا قد اجتزنا الشوارعَ الأكثر ازدحامًا، ودخلنا طرقاتٍ مُقفِرةً آنذاك. استطعتُ أن أنهضَ وأن أقفَ إلى مستوى الفتحة لإلقاء نظرةٍ إلى الخارج. رأيتُ طرقاتٍ ضيِّقةً ومظلمةً كالصدوع في صخرة. فوانيسُ وواجهاتٌ قوطيَّةٌ في

الضباب. استلقيتُ من جديد، مُشتَّتَ الفكر. نحن في البلدة القديمة، في إحدى نواحي الرابال. تتصاعد رائحةُ المجاري المغمورة كعفن المستنقعات. تجوَّلنا نصفَ ساعةٍ في قلب برشلونة المظلم قبل أن نتوقَّف. شعرتُ أنَّ الحوذيَّ يترجَّل. وبعد ثوانٍ، سمعتُ دويَّ مغلاقٍ معدنيّ. سارت العربةُ بحركةٍ متباطئة، ودخلنا إلى ما أنبأتني رائحتُهُ بأنَّه إسطبلٌ قديم. وأُسدِلَ المغلاق.

لم أتحرَّك. فكَّ الحوذيُّ رباطَ الخيلين وهمس لهما بكلماتٍ لم أتمكَّن من فهمها. كانت حزمةٌ ضوئيَّةٌ تتغلغل إلى فتحة الصندوق. سمعتُ جريانَ ماء، ثمَّ خطواتٍ على التبن. وانطفأ الضوءُ في النهاية، وابتعد الحوذيّ. تريَّثتُ دقيقتين، حتّى وصلتني أنفاس الخيلين. فانزلقتُ إلى الخارج. الإسطبلُ غارقٌ في عتمةٍ زرقاء. توجَّهتُ بحذرٍ نحو بابٍ جانبيٍّ وتسلَّلتُ إلى مرأبٍ مظلمٍ عالي السقف المزوَّد بدعاماتٍ خشبيَّة. وفي الطرف الآخر هوامشُ بابٍ يبدو أنَّه مخرج طوارئ. انتبهتُ أنَّ قفلَهُ ينفتح من الداخل حصرًا. فأخفضتُ المقبض بحرصٍ شديد وخرجتُ إلى الشارع أخيرًا.

وجدتُني في أحد أزقَّة الرابال المعتمة. كان الزقاقُ ضيِّقًا لدرجة أنَّك إذا بسطتَ ذراعيك لامستَ جدرانه على الجانبين. وثمّة جدولٌ نتنٌ يجري في وسط الأرض المرصوفة. قطعتُ عشرة أمتارٍ نحو طريقٍ أوسع، ينيرها ضياءٌ بخاريٌّ صادرٌ عن فوانيس الإنارة تلك التي لا بدَّ أنَّ عمرها يفوق مئة عام. حدَّدتُ مغلاقَ الإسطبل عند أحد جوانب عمارةٍ كئيبة البنيان. وقد نُقِشَ على حافّة بابها العُلويَّة تاريخُ تشييدها: ١٨٨٨. فأدركتُ حينذاك، من

هذا المنظور، أنّني بجانب أكبر مبنىً يشغل مُربَّعًا سكنيًّا برمَّته. كانت بنايةً ضخمة، محاطةً بحاجزٍ من سقَّالاتٍ وأغطيةٍ متَّسخة تحجبها كلّيًّا. قد تُخفي بداخلها كاتدرائيَّة. حاولتُ أن أفهم ماهيَّتها، ولكن بلا جدوى. لم يخطر في ذهني أيُّ مبنىً من ذلك الحجم في تلك المنطقة من الرابال.

اقتربتُ وتحرّيتُ النظرَ من الفواصل ما بين الألواح الخشبيَّة التي تُغطّي السقَّالات. كان الظلامُ يكتنف شرفةً كبيرةً من طرازٍ حداثيّ. استطعتُ أن أرى الأعمدةَ وصفَّ النوافذ القائمة بالحديد المطروق ذات العمارة المتقنة. شُبَّاك تذاكر. وخلفه بقليل، ذكَّرتني أقواسُ المدخل الرئيس بقناطر قلعةٍ خرافيَّة. كان كلُّ شيءٍ يرزح تحت طبقاتٍ من الأنقاض، والرطوبة، والنسيان. ففهمتُ بغتةً أين أنا: المسرحُ الملكيُّ الكبير، الصرحُ المهيبُ الذي أمر ميخائيل كولڤينيك بترميمه من أجل زوجته إيڤا، التي لم تستطع أن تُؤدّي فيه حفلاتها مع الأسف. وقد صار آنذاك سردابًا هائلًا ومُدمَّرًا. ابنٌ غير شرعيٍّ لدار أوبرا باريس ومعبد الساغرادا فاميليا، ينتظر ساعةَ هدمه.

عدتُ إلى المبنى المحاذي حيث الإسطبل. رأيتُ في بوَّابته الخشبيَّة الضخمة بابًا صغيرًا يُذكِّرُ بمدخل دير. أو سجن. وكان مفتوحًا. دفعتُهُ وتسلَّلتُ إلى البهو. هنالك منورٌ يُرسِلُ ضوءًا طيفيًّا، ويصعد نحو شرفةٍ مُهشَّمة الزجاج. وثمّة شبكةُ حبالٍ تتدلَّى منها أسمالٌ باليةٌ تتمايل مع الريح. ورائحةُ شقاء، ومجارير، ومرض. والماءُ الآسنُ يرشح على الحيطان بعد أن تسرَّبَ من الأنابيب المُحطَّمة. والبِرَكُ تفيض بالأرض. اقتربتُ

من كتلة صناديق بريد صدئة. وفارغة، وشبه مخلوعة وبلا أسماء. رأيتُ صندوقًا من بينها ما يزال قيد الاستعمال. قرأتُ الاسمَ المحجوبَ بطبقةٍ من الوسخ:

لويس كلاريت اي ميلا، 3.°

كان الاسمُ مألوفًا بالنسبة إليَّ، مع أنّي لم أفهم سبب هذا. تساءلتُ ما إذا كان اسمَ الحوذيّ. ردَّدتُهُ في رأسي غير مرَّة، محاولًا أن أتذكَّرَ أين سمعتُهُ. وفجأةً، لمع ضوءٌ في ذاكرتي. كان المُفتِّشُ فلوريان قد أخبرنا عن وجود شخصين مُخوَّلين للدخول إلى قلعة كولڤينيك وزوجته بمنتزه غويل في أيَّامهما الأخيرة: الطبيبُ الشخصيّ، وسائقٌ رفض أن يتخلَّى عن صاحبه، لويس كلاريت. تحسَّستُ جيبيَّ بحثًا عن رقم الهاتف الذي أعطاه لنا فلوريان في حال اضطررنا إلى التواصل معه. وبدا لي أنّي عثرتُ عليه، في حين سمعتُ خطواتٍ وأصواتًا من أعلى السلالم. فهربتُ.

وعندما خرجتُ إلى الشارع، ركضتُ لأختبئَ خلف ناصية الزقاق. وبعد قليل، خرج شخصٌ من البوَّابة وراح يمشي تحت المطر. هو الحوذيُّ نفسُهُ، كلاريت. انتظرتُ ريثما يختفي، وتبعتُ صدى خطواته.

١٨

خلال تعقُّبي أثرَ كلاريت، تحوَّلتُ إلى ظلٍّ يتوارى بالظلال. وكانت روائحُ الشقاء والكآبة تنبعث من أرجاء الحيّ. مشى كلاريت مُسرِعًا في طرقاتٍ لم أطأها بقدمي يومًا. استرشدتُ الدربَ حين انعطف عند المفرق، وعرفتُ شارعَ كوندي دل أسالتو. خرج كلاريت إلى لاس رامبلاس، ومضى إلى شِماله نحو ساحة كاتالونيا.

لا وجود إلّا لقلّةٍ من السهارى في الطريق. بدت الأكشاكُ المنيرةُ سفنًا تقطَّعت بها السبل. عبر كلاريت إلى الرصيف المقابل حين وصل إلى موازاة المعهد. وتوقَّفَ أمام باب البناية التي يسكن فيها شيلي وماريّا. وقبل أن يدخل، رأيتُهُ يستخرج من تحت معطفه غرضًا لامعًا. المُسدَّس.

وكانت واجهةُ البناية قناعًا من أفاريز وغراغيل تبصق أنهارًا من مياهٍ متَّسخة. برز سيفٌ من نورٍ ذهبيٍّ من إحدى نوافذ الناصية. عيادة الدكتور شيلي. تصوَّرتُ أنَّ الطبيبَ العجوزَ على أريكته كالكسيح، عاجزًا عن مواءمة النعاس. ركضتُ نحو الباب. وجدتُهُ مغلقًا. قفله كلاريت من الداخل. فتحرَّيتُ في

الواجهة بحثًا عن منفذٍ آخر. درتُ حول المبنى. فاكتشفتُ في الخلف سُلَّمَ حرائق يفضي إلى إفريزٍ يُؤطِّرُ البنايةَ بأكملها. كأنَّه ممشىً حجريٌّ نحو شرفات الواجهة الأماميَّة. تسلَّقتُ على السلَّم وبلغتُ الإفريز. لم تكن تفصلني عن شرفة عيادة شيلي سوى بضعة أمتار. عاينتُ المسارَ ثانيةً حينذاك. لا يتجاوز الشبرين عرضًا. كانت قدماي على شفير هاوية. سحبتُ نفسًا عميقًا وأسندتُ قدمي على الحافّة.

التصقتُ بالجدار، وتقدَّمتُ هكذا سنتمترًا تلو سنتمتر. كان السطحُ زلقًا، وبعضُ الحجارة تتحرَّكُ تحت قدميَّ. تملَّكني إحساسٌ بأنَّ الإفريزَ يضيق عند كلّ خطوة، وأنَّ الجدارَ خلفي يميل إلى الأمام. وكنتُ أصطدم بتماثيل أسطوريَّة. أدخلتُ يدي في الابتسامة الشيطانيَّة لأحد تلك الوجوه المنحوتة، وخشيتُ أن تنغلق شفتاه وينهش أصابعي. استعنتُ به ركيزةً حتّى وصلتُ إلى سياج الحديد المطروق الذي يُحدِّدُ شرفة عيادة شيلي.

قفزتُ عنه وتموضعتُ عند النافذة الكبيرة. كان زجاجُها غبشًا. لذا قرَّبتُ وجهي وأمعنتُ النظر. لم تكن النافذةُ مغلقةً من الداخل. فدفعتُهُ برفقٍ لأجعلها مواربة. فلفحتني هبَّةُ هواءٍ دافئ، مُشبَعةٌ برائحة الحطب المحروق في المدفأة. كان الطبيبُ جالسًا على أريكته قبالة النار، كما لو أنَّه لم يتحرَّك من مكانه إطلاقًا. انفتحت أبوابُ العيادة خلف ظهره. كلاريت. وصل متأخِّرًا جدًّا.

- لقد خُنتَ قَسَمَك. - هتف كلاريت.

كانت هذه أوَّلَ مرَّةٍ أسمع صوتَهُ فيها بوضوح. صوتٌ ثقيل،

مُنهَك. يشبه صوتَ أحد البستانيِّين في مدرستي، دانيال، الذي أُصيبَ بطلقٍ ناريٍّ في حنجرته أثناء الحرب. أعاد الأطبَّاءُ تركيبَ حلقه، لكنَّ المسكينَ انتظر عشر سنواتٍ قبل أن يتسنَّى له النطقُ مجدَّدًا. وكلَّما تكلَّمَ، صدر الصوتُ من فمه كصوت كلاريت.

- قلتَ إنَّك حطَّمتَ القارورةَ الأخيرة... - قال كلاريت وهو يدنو من شيلي.

لم يُكلِّف الآخرُ نفسه حتّى عناء الالتفات. رأيتُ مُسدَّسَ كلاريت يرتفع ويستهدف الطبيب.

- أنت تُخطِئُ بحقّي. - قال شيلي.

دار كلاريت حول العجوز وتوقَّفَ أمامه. رفع شيلي أنظاره. لم يكن خائفًا وإلّا ظهر خوفُه. صوَّبَ كلاريت السلاحَ إلى رأس الطبيب.

- أنت تكذب. ينبغي أن أقتلك فورًا... - قال كلاريت، ولفظ كلَّ حرفٍ بألمٍ شديد.

وضع فوَّهةَ المُسدَّس وسط جبين شيلي.

- أطلِقْ، تُسدي إليَّ معروفًا. - قال الطبيب بهدوء.

مضغتُ ريقي. عطَّلَ القادح.

- أين هو؟

- ليس هنا.

- فأين إذًا؟

- أنت تعلم جيِّدًا. - أجاب شيلي.

سمعتُ كلاريت يتنهَّد. أبعد المُسدَّسَ مُحبَطًا، وأرخى ذراعه.

- نحن مُدانون جميعًا. - قال شيلي - مسألة وقت لا أكثر... وأنت لم تفهم الأمر يومًا، والآن لا تفهمه إطلاقًا.

- ما يصعب عليَّ فهمُهُ هو أنت. - قال كلاريت - أنا سأواجه الموتَ بضميرٍ مرتاح.

ضحك شيلي بمرارة.

- الموت لا يهتمُّ بالضمائر، يا كلاريت.

- أمّا أنا فبلى.

ظهرت ماريّا شيلي عند الباب فجأةً.

- هل أنت بخير يا أبتِ؟

- أجل يا ماريّا. عودي إلى سريركِ. هذا صديقي كلاريت لا غير، وسينصرف توًّا.

تردَّدَت ماريّا. وكان كلاريت يرمقها بإلحاح، حتّى ظننتُ لوهلةٍ أنَّ هناك أمرًا غامضًا في لعبة نظراتهما.

- هيّا، افعلي ما سمعتِهِ منّي.

- حسنًا يا أبتِ.

انسحبت ماريّا. حدَّقَ شيلي إلى النار ثانيةً.

- انشغِلْ أنت بضميرك. فأنا لديَّ ابنةٌ يجب أن أعتني بها. عد إلى بيتك. ليس بوسعك فعلُ شيء. لا أحد بوسعه فعلُ شيء. ألم ترَ نهايةَ سينتيس؟!

- سينتيس استحقَّ تلك النهاية. - أكَّدَ كلاريت.

- لن تذهب للبحث عنه، أليس كذلك؟

- أنا لا أُولي ظهري لأصدقائي.

- لكنَّهم أولوا إليك ظهرهم.

اتَّجه كلاريتَ نحو الباب، لكنَّه توقَّفَ ما إن سمع صوتَ شيلي يترجَّاه.

- مهلًا...

اقترب العجوزُ من خزانةٍ بجانب المكتب. تلمَّسَ عنقه بحثًا عن سلسلةٍ يتدلَّى منها مفتاحٌ صغير، فتح به الخزانة. أخذ شيئًا من أحد الرفوف وأعطاه لكلاريت.

- خذها. - أمره - فأنا ليس لديَّ الشجاعة، ولا حتّى الإيمان، لاستعمالها.

شحذتُ بصري لأرى ما الذي كان يعطيه لكلاريت. محفظة؛ تحتوي على كبسولاتٍ فضّيَّة. رصاص.

أخذها كلاريت وتفحَّصَها بإمعان. تلاقت نظراتُهُ بنظرات شيلي.

- شكرًا. - غمغم.

هزَّ الطبيبُ رأسه بصمت، كما لو أنَّه يرفض أن يُشكَر. رأيتُ كلاريت يُفرِّغُ مخزنَ المُسدَّس ويُلقِّمُهُ بالطلقات التي أعطاها له شيلي، الذي كان يراقبه بعصبيَّة، ويفرك يديه.

- لا تنصرف... - ترجَّاه شيلي.

أغلق الآخرُ المخزنَ ودوَّرَه.

- ليس لديَّ خيار. - ردَّ وهو يتَّجه نحو الباب.

وما إن رأيتُهُ يختفي، عدتُ إلى الإفريز. انخفضت غزارةُ المطر آنذاك. سارعتُ الخطى لكي لا أفقد أثره. ونزلتُ سلَّمَ الحرائق ودرتُ حول البناية مُتعجِّلًا، ليسعفني الوقتُ لرؤية كلاريت يهبط على امتداد لاس رامبلاس. هرولتُ وقلَّصتُ

المسافات. انعطف نحو ساحة سان خايمي بموازاة شارع فرناندو. تراءى لي هاتفٌ عموميٌّ تحت قناطر الساحة الملكيَّة. كنتُ أعلم أنَّه يجب إخطارُ المُفتِّش فلوريان بأسرع وقتٍ ممكن، وإبلاغُهُ بما كان يحدث، لكنّي إذا توقَّفتُ لفعل ذلك فقدتُ أثرَ كلاريت.

وعندما توغَّلَ في الحيّ القوطيّ، كنتُ خلفه. وسرعان ما توارى شخصُهُ تحت الجسور الممدودة بين الأبنية. أقواسٌ مستحيلةٌ تستعرض ظلالَها القلقةَ على الجدران. وصلنا إلى برشلونة المسحورة، متاهة الأرواح، حيث تتَّخِذُ الطرقاتُ أسماء أسطوريَّة، ويتمشَّى جِنُّ الزمان خلف ظهرنا.

٢٠

لحقتُ بكلاريت لغاية شارعٍ متوارٍ خلف الكاتدرائيَّة. ثمّة دكَّانٌ لبيع الأقنعة عند الناصية. اقتربتُ من الواجهة وأحسستُ أنَّ تلك الوجوهَ الكرتونيَّةَ ترميني بنظراتها الفارغة. تطلَّعتُ لألقي نظرة. كان كلاريت على بُعد عشرين مترًا تقريبًا، عند منفذ شبكة الصرف، يحاول فتحَ غطائها المعدنيّ الثقيل. فاستطاع إزاحته وهبط. فدنوتُ حينذاك. سمعتُ خطواته تنزل السُّلَّمَ الحديدَ ورأيتُ انعكاسًا لشعاعٍ ضوئيّ. تقدَّمتُ نحو الفتحة ونظرتُ إلى الأسفل. كان تيَّارٌ من هواءٍ فاسد يتصاعد من تلك البئر. بقيتُ هناك حتّى اختفى صوتُ خطواته، وابتلعت الظلماتُ ضياءَ قنديله الذي حمله بيده.

حانت لحظةُ الاتِّصال بالمُفتِّش فلوريان. تراءت لي أضواءُ حانةٍ تغلق أبوابَهُا في ساعةٍ متأخِّرة، أو ربّما تفتحها باكرًا جدًّا. وكانت عبارةً عن زنزانةٍ تفوح برائحة الخمر، وتشغل قبوًا في مبنىً عتيقٍ يناهز ثلاثة قرونٍ أقلَّ تقدير. أمّا صاحبُ الحانة، فهو رجلٌ نزقٌ بعينين غائرتين ومُتشكِّكتين، يعتمر ما بدت لي قبَّعةً عسكريَّة. تجهَّمَ ونظر إليَّ مشمئزًّا. كان الجدارُ من خلف ظهره

مزدانًا برايات الفرقة الزرقاء (التي والت النازيِّين في الحرب)، وبطاقاتٍ بريديَّة لوادي الشهداء (المحسوبين على فرانكو)، وصورةٍ لموسوليني.

- افرنقع من هنا. - صاح - نفتح في الخامسة.

- أريد أن أجري مكالمة ليس إلّا. لأمرٍ طارئ.

- عد في الخامسة.

- لو كان خيارُ العودة في الخامسة متاحًا، لما كان الأمرُ طارئًا... أرجوك. عليَّ أن أتَّصِلَ بالشرطة.

أمعن صاحبُ الحانة نظره فيَّ، من رأسي إلى قدميّ، وأشار أخيرًا إلى هاتفٍ مُعلَّقٍ على الحائط.

- انتظرْ كي أُجهِّزَ لك الخطّ. هل لديك نقودٌ تدفعها؟

- بالطبع. - كذبتُ.

كانت السمَّاعةُ قذرةً ودبقة. وبجانب الهاتف طبقٌ زجاجيٌّ يعجُّ بعلب كبريتٍ صغيرةٍ تُبرِزُ عُقابًا إمبراطوريًّا واسمَ الحانة: «خمَّارةُ الشجاعة». اغتنمتُ لحظةً استدار فيها الرجلُ لتفعيل العدَّاد، وملأتُ جيبي بعلب الكبريت. وحين التفت ابتسمتُ له ببراءةٍ ناصعة. اتَّصلتُ بالرقم الذي أعطاه لي فلوريان وانتظرتُ الردَّ طويلًا. وخشيتُ أن يكونَ صديقُهُ المصابُ بالأرق قد غفا على وابل نشرات البي بي سي الإخباريَّة، حتّى رفع أحدهم السمَّاعة من الطرف الآخر من الخطّ.

- مساء الخير، عذرًا على الإزعاج في هذه الساعة. - قلتُ - أنا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى التحدُّث مع المُفتِّش فلوريان. لأمرٍ طارئ. لقد أعطاني هذا الرقم في حال...

- مَن يريده؟

- أوسكار دراي.

- أوسكار ماذا؟

اضطررتُ إلى تهجئة كنيتي بصبرٍ نافد.

- لحظة. لا أعلم إن كان فلوريان في البيت. لا أرى أضواءً. هل يمكنك أن تنتظر؟

نظرتُ إلى صاحب الحانة الذي كان يُنظِّفُ الكؤوس عَلى إيقاعٍ عسكريٍّ تحت أنظار الدوتشي المتفاخر.

- أجل. - ارتجلتُ.

وكان الانتظارُ سرمديًّا. لم يحد الرجلُ عينيه عنّي، كما لو كنتُ مجرمًا فارًّا. حاولتُ أن أبتسمَ له. لم ينثنِ.

- هلّا أعددتَ لي قهوةً بالحليب؟ - سألتُهُ - أشعر بالبرد.

- ليس قبل الخامسة.

- هلّا قلتَ لي كم الساعة، من فضلك؟ - استفسرتُ.

- لا يزال هناك وقتٌ حتّى الخامسة. - أجاب - هل أنت متأكِّدٌ أنَّك تتَّصِلُ بالشرطة؟

- الحرس المدنيّ، للدقَّة. - ارتجلتُ.

وسمعتُ صوتَ فلوريان أخيرًا. بدا أنَّه يقظٌ ومتأهِّب.

- أين أنت يا أوسكار؟

رويتُ له جوهرَ ما حدث بإيجازٍ شديد. وحين ذكرتُ له فتحةَ شبكة الصرف والمجارير، أحسستُ أنَّه توتَّر.

- اسمعني جيِّدًا يا أوسكار. أريدك أن تنتظرني هناك وألّا تتحرَّك حتّى وصولي. سأستقلُّ سيَّارةَ أجرة فورًا. وإن حدث

شيءٌ مّا فاركضْ. لا تتوقَّف إلى أن تبلغَ شارع لايتانا. واسأل هناك عن ميندوثا. ومهما جرى، أُكرِّر: مهما جرى، لا تنزل إلى المجارير. واضح؟

- كالماء.

- سأصل خلال دقائق.

انقطعت المكالمة.

- سبعون بيسيتا. - أعلن صاحب الحانة من خلفي مباشرةً - تسعيرةٌ ليليَّة.

- سأدفع في الخامسة أيُّها الجنرال. - أجبتُ بكلّ هدوء.

احمرَّت هالاتُ عينيه.

- سأُهشِّمُ وجهك أيُّها الولد الشقيّ. - هدَّدني غاضبًا.

سارعتُ إلى الخروج من المحلّ قبل أن أعطيه الفرصةَ للالتفاف على المشرب بهراوته المُكافِحة للشغب. وكنتُ سأنتظر فلوريان عند الناصية، أمام دكّان الأقنعة. لن يتأخَّرَ كثيرًا، قلتُ في نفسي.

دقَّت أجراسُ الكاتدرائيَّة الرابعةَ فجرًا. وبدأت أولى أعراض التعب تنقضُّ عليَّ كذئابٍ جائعة. رحتُ أطوف في المكان لأقاومَ البردَ والنعاس. وبعد قليل، سمعتُ خطواتٍ على حجر الشارع. استدرتُ لألاقي فلوريان، لكنَّ الشخصَ الذي كان يقترب لا يتطابق مع شخص الضابط العجوز. كانت امرأة. فاختبأتُ لاإراديًّا، مُتخوِّفًا من أنَّ السيِّدةَ ذات السواد تتعقَّبُ أثري. تفشَّى ظلُّها على الأرض، ومرَّت المرأةُ أمامي دون أن تراني. إنَّها ماريّا، ابنةُ الطبيب شيلي.

اقتربتُ من فتحة المجرور وانحنت لتنظرَ في الهاوية. كانت تحمل في يدها قارورةً زجاجيَّة. ووجهُها يتألَّقُ مع ضياء القمر، مُتحوِّلًا. كانت تبتسم. فأدركتُ وجودَ أمرٍ مريب. خارجٍ عن المألوف. وظننتُ أنَّها قد تكون فاقدةَ الوعي، وأنَّها تمشي في نومها. هذا هو التفسيرُ الوحيدُ الذي خطر في ذهني. وفضَّلتُ الفرضيَّةَ العبثيَّةَ على التمعُّن ببدائل أخرى. فكَّرتُ أن أقترب، أن أناديها باسمها، أن أفعلَ شيئًا مّا. تسلَّحتُ بالشجاعة وتقدَّمتُ عدَّة خطوات. التفتت ماريّا بسرعة قطٍّ رشيق، كما لو تشمَّمَت حضوري في الهواء. لمعت عيناها في الزقاق، وتجمَّدَ دمي لرؤية التكشيرة التي برزت على وجهها.

- اذهب من هنا. - غمغمت بصوتٍ يثير الاستغراب.

- ماريّا؟ - تلعثمتُ مرتبكًا.

وما كان منها إلّا أن قفزت في المنفذ. فركضتُ إلى حافة الفتحة، مُتوقِّعًا أن أرى جسمَ ماريّا شيلي وقد صار أشلاء. أضاء القمرُ البئرَ خلال لحظةٍ عابرة، والتمع وجهُ ماريّا في القاع.

- ماريّا! - صرختُ - تمهَّلي!

نزلتُ السُّلَّمَ بعجالة. واختنقتُ بالنتانة الواخزة بعد مترين. وكلَّما هبطتُ صغرتْ دائرةُ الضوء في الأعلى. بحثتُ في جيبي عن علبة كبريت وأشعلتُ عودَ ثقاب. فانكشفت أمامي صورةٌ رهيبة.

نفقٌ دائريٌّ يتوه في الظلام. رطوبةٌ وعفونة. صريرُ جرذان. وارتداداتٌ لأصداء متاهة الأنفاق تحت المدينة. ثمّة لافتةٌ تكسوها الأوساخ على أحد الجدران:

الجدارُ المقابلُ مهدوم، وقد غزت التربةُ جزءًا من المجمع. وكان من السهل تمييزُ الطبقات المختلفة من المستويات القديمة للمدينة، طبقةً فوق أخرى.

أمعنتُ النظرَ في جثث تلك البرشلونات القديمة التي قامت عليها المدينةُ الجديدة. هذا هو المكانُ الذي واجه فيه سينتيس الموت. أشعلتُ عودًا آخر. وقاومتُ نوبات القيء التي تصاعدت إلى حلقي وتتبَّعتُ بصمات الخطى بضعة أمتار.

- ماريّا؟

تحوَّلَ صوتي إلى دويٍّ مُرعِبٍ جمَّدَ الدمَ في عروقي. فقرَّرتُ أن أسكت. لاحظتُ وجودَ عشرات النقاط الحمراء الدقيقة تحوم كالحشرات فوق مستنقع. فئران. وكانت شعلةُ الكبريت التي أشعلتُها تُبقيها على مسافة أمان. مكتبة سُر مَن قرأ

فكَّرتُ في إمكانيَّة التقدُّم في النفق، فإذا أنا أسمع صوتًا آتيًا من البعيد. نظرتُ للمرَّة الأخيرة إلى فتحة المجرور. لا أثر لفلوريان. وتكرَّرَ ذلك الصوتُ مجدَّدًا. فتنهَّدتُ وولجتُ إلى الظلمات.

*

شبَّهتُ النفقَ الطويلَ الذي سرتُ فيه بأمعاء حيوان. كانت أرضُهُ مُغطَّاةً بجدولٍ من المياه العادمة. ولم أكن أتوغَّلُ إلّا على

ضوء عود الثقاب. أُشعِلُ عودًا تلو عود، لئلا تكتنفني الظلمةُ كلّيًّا. وكلّما تقدَّمتُ في المتاهة، اعتاد أنفي على رائحة المجاري. لاحظتُ أنَّ الحرارةَ ترتفع أيضًا. وقد دبقت الرطوبةُ اللزجةُ على جلدي، وثيابي، وشعري.

وبعد بضعة أمتار، لمحتُ صليبًا يومض على الجدار، مرسومًا باللون الأحمر بطريقةٍ فجَّة. وهناك صلبانٌ أخرى على جدرانٍ أخرى. كما لمحتُ شيئًا يلتمع على الأرض. فجلستُ القرفصاء لأراه عن كثب: صورة. عرفتُها فورًا. هي إحدى صور الألبوم الذي وجدناه في الدفيئة. وهناك صورٌ غيرُها مُبعثَرةٌ على الأرض. آتيةٌ كلُّها من المصدر ذاته. وبعضُها مُمزَّق. ووجدتُ الألبومَ بعد عشرين خطوة، وكان مُشقَّقًا فعليًّا. فحملتُهُ وقلَّبتُ صفحاته الفارغة. بدا أنَّ أحدًا مّا بحث فيه عن شيءٍ يهمُّه، وحين لم يجد ضالَّتَه مزَّقَهُ بغضب.

وصلتُ عند مفترق طرق، ما يشبه المُوزِّع، أو نقطة تقاطع القنوات. رفعتُ عينيَّ: يوجد منفذُ مجرورٍ آخر فوقي تمامًا. مطابقٌ لشبكة تهوية. قرَّبتُ عودَ الثقاب، لكنَّ ريحًا موحلةً هبَّت من أحد المجامع وأطفأت الشعلة. وفي تلك اللحظة شعرتُ بشيءٍ هلاميٍّ يتحرَّكُ ببطءٍ ويكشط الجدران. فاقشعرَّ بدني رعبًا. بحثتُ عن عودٍ آخر في الظلام وحاولتُ أن أشعله رغم انعدام البصر، فلم أستطع. كنتُ متأكِّدًا تلك المرَّة: شيءٌ مّا يتحرَّكُ في الأنفاق، شيءٌ حيٌّ ليس بفأرٍ أو جرذ. شعرتُ بالاختناق. فلقد سمَّمَت النتانةُ أنفي. واستطعتُ إشعالَ عودٍ أخيرًا. أعمتني الشعلةُ في البداية، ثمَّ رأيتُ شيئًا يزحف باتِّجاهي. من كلّ

الأنفاق. أطيافٌ مُتداخِلةٌ تتوغَّلُ كالعناكب على امتداد القنوات. سقط عودُ الثقاب من أصابعي المرتعشة. ووددتُ لو أنّي ركضتُ، لكنَّ عضلاتي شُلَّت.

وإذ، يُشتِّتُ شعاعٌ ضوئيٌّ تلك العتمةَ ويقبض على رؤيةٍ عابرةٍ لذراعٍ كانت تمتدُّ نحوي.

- أوسكار!

كان المُفتِّشُ فلوريان يركض باتِّجاهي. وبيده مصباح. وبالأخرى مُسدَّس. وحين بلغني، مسح كلَّ الزوايا بحزمة الضوء. كنّا نسمع الدويَّ المرعبَ الصادرَ عن انسحاب تلك الأطياف، هربًا من الضوء. رفع فلوريان مُسدَّسَهُ عاليًا.

- ما هذا؟

أردتُ أن أجيبَ لكنَّ صوتي تقطَّعَ في حنجرتي.

- وما الذي تفعله في هذا المكان اللعين؟

- ماريّا... - تلعثمتُ.

- ماذا؟

- بينما كنتُ أنتظرك، رأيتُ ماريّا شيلي تهبط في المجرور و...

- ابنةُ شيلي؟ - سأل فلوريان، مُشتَّتَ الذهن - هنا؟

- أجل.

- وكلاريت؟

- لا أدري. تتبَّعتُ بصمات...

تحرَّى فلوريان في الجدران المحيطة بنا. ثمّة مغلاقٌ حديديٌّ

صدئٌ تمامًا في نهاية أحد الأنفاق. تجهَّمَ وتحرَّكَ ببطء في ذلك الاتِّجاه. فاحتذيتُ به.

- هل وجدوا سينتيس في أحد هذه الأنفاق؟

أومأ فلوريان بصمت، مشيرًا إلى الطرف الآخر للنفق.

- إنَّ شبكةَ المجامع هذه تصل حتّى سوق البورني القديم. عُثِرَ على سينتيس هناك، ولكن ثمّة أدلَّةً تفيد بأنَّ الجثَّةَ جُرَّت.

- وهل معمل البيلو-غراني القديم هناك أيضًا؟

أومأ فلوريان من جديد.

- هل تعتقد أنَّ أحدًا مّا يستخدم هذه الممرَّاتِ الباطنيَّةَ ليتحرَّكَ تحت المدينة، من المعمل إلى...؟

- خذ، أمسك المصباح. - قاطعني فلوريان - وهذا.

كانَ المُسدَّسُ هو المقصودَ بـ«هذا». أمسكتُهُ بيدي في حين انهمك بخلع المغلاق. وزنُ المُسدَّس أثقلُ ممّا تصوَّرتُ. وضعتُ إصبعي على الزناد والمُسدَّسَ تحت الضوء. فرماني فلوريان بنظرةٍ فاتكة.

- احذر، هذا ليس لعبة. لا تكن أحمق، وإلّا انفلق رأسُك برصاصة، كالبطّيخة، في أيّ لحظة.

أذعن المغلاق له. وانبعثت من تلك الجهة رائحةٌ لا تُوصَف. تراجعنا عدَّة خطوات، لنقاومَ الغثيان.

- ما الذي في الداخل، بحقّ الجحيم؟ - هتف فلوريان.

أخرج منديلًا وسدَّ أنفه وفمه. أعدتُ له المُسدَّسَ ورفعتُ المصباح. حطَّمَ فلوريان المغلاقَ برفسة. فصوَّبتُ الضوءَ نحو

الداخل. كان الجوُّ كثيفًا لدرجةٍ لا تتيح رؤيةَ شيء. فعَّلَ فلوريان القادحَ وتقدَّمَ على العتبة.

- ابق في مكانك. - أمرني.

تجاهلتُ كلامه وبلغتُهُ.

- يا إلهي!... - هتف.

أحسستُ أنَّي أختنق. فمن المستحيل أن يقبلَ العقلُ المنظرَ الذي تراه العين. عشراتٌ من الأجسام الهامدة والناقصة، محبوسة في الظلمات، وتتدلَّى من خطاطيف صدئة. وهناك أدواتٌ رهيبة، على طاولتين كبيرتين، في حالة فوضى عارمة: آلاتٌ معدنيَّة، مُسنَّناتٌ وأجهزةٌ من خشبٍ وفولاذ. فضلًا عن مجموعة قوارير مصفوفة في خزانةٍ زجاجيَّة، وطقمٍ من إبر الحقن، وجدارٍ مملوءٍ بعُدَّة جراحة متَّسخة ومُسوَّدة.

- ما هذا الذي أرى؟! - غمغم فلوريان متوتِّرًا.

وجدنا جسمًا من خشبٍ وجلد، ومعدنٍ وعظام، يرقد على طاولة مثل دميةٍ وحشيَّة لم تُنجَز بعد. كان يُجسِّدُ طفلًا بعينين مُدوَّرتين كأنَّه زاحف، ولسانٍ مُتشعِّبٍ يبرز من بين شفتيه السوداوين. ويتَّضح على جبينه رمزُ الفراشة، مطبوعًا بالكيّ.

- هذه ورشته... هنا يبتكر... - فلتت منّي العبارةُ بأعلى صوت.

فما كان من عينَي الدمية الجهنَّميَّة إلّا أن تحرَّكتا. التفت برأسه. وأصدرت أحشاؤه صوتَ ساعةٍ أثناء ضبطها. أحسستُ أنَّ حدقتيه الأفعوانيَّتين تُركِّزان على حدقتيَّ، في حين مرَّرَ لسانَهُ المتُشعِّبَ على شفتيه. كان يبتسم لنا.

- فلنخرج من هنا. - صاح فلوريان - فورًا!

عدنا إلى النفق بعد أن أنزلنا المغلاقَ خلف ظهرنا. كان فلوريان يلهث. وأنا لا أتمكَّنُ حتّى من التقاط أنفاسي. أخذ المصباحَ من يديَّ المرتجفتين وتحرَّى في النفق. عبرت قطرةُ ماءٍ حزمةَ الضوء. ثمَّ قطرةٌ أخرى. ثمَّ أخرى فأخرى. قطراتٌ قرمزيَّةٌ لامعة. دماء. تبادلنا نظرةً صامتة. ثمَّة شيءٌ يقطر من السقف. أشار إليَّ فلوريان بالتراجع، وصوَّبَ حزمةَ الضوء إلى الأعلى. رأيتُ وجهَهُ يشحب، ويده العازمة ترتعش.

- اهرب. - كان هذا ما استطاع أن يقوله لي - اذهب بعيدًا من هنا!

رفع المُسدَّسَ بعد أن ألقى عليَّ نظرةً أخيرة. استقرأتُ فيها الذعرَ أوَّلًا، ثمَّ اليقينَ النادرَ بالموت. فتح فمه ليضيفَ شيئًا آخر، لكنَّه صمت إلى الأبد. انقضَّ عليه طيفٌ قاتم، وضربه قبل أن يتسنَّى له تحريكُ أيّ عضلة. دوَّى طلقٌ ناريّ، انفجارٌ يصمُّ الآذان، وارتدَّ على الجدار. وسقط المصباح في جدول ماء. أُلقِيَ جسدُ فلوريان على الحائط بعنفٍ شديدٍ خلَّفَ فجوةً على شكل صليبٍ على الطوب المُسوَّد. تيقَّنتُ أنَّه مات قبل أن ينزلق من الحائط ويهوي على الأرض، هامدًا.

فررتُ راكضًا، أبحث عن طريق العودة بيأسٍ كبير. اجتاح الأنفاقَ عويلٌ حيوانيّ. التفتُّ. رأيتُ قرابة اثني عشر من تلك الكائنات تتقدَّمُ من كلّ مكان. ركضتُ مثلما لم أركض في حياتي، مُتعثِّرًا، ومُطارَدًا من عواء ذلك القطيع الخفيّ. ولم تغب عن بالي صورةُ جسد فلوريان المرميّ على الحائط.

وكدتُ أبلغ المخرجَ حين تجاوزني أحدُ تلك الأطياف بوثبةٍ عالية، وأغلق العبورَ إلى السُّلَّم في وجهي. فتوقَّفتُ بغتةً. أنار الضوءُ المتسرِّبُ من سطح البئر وجهَ مُهرِّج الأرلكان. مُعيَّنان أسودان تحجبان نظرته الزجاجيَّة، وأنيابٌ فولاذيَّةٌ تبرز من شفتيه المصنوعتين من خشبٍ مصقول. تراجعتُ خطوة. فحطَّت يدان على كتفيَّ. مزَّقَت الأظفارُ ثيابي. وانزلق شيءٌ مّا على عنقي. كان باردًا ولزجًا. أحسستُ بعقدةٍ تضيق لتقطعَ أنفاسي. تغبَّشَ بصري. وأمسكني شيءٌ آخرُ من كاحليَّ. جثم المُهرِّجُ أمامي ومدَّ يديه نحو وجهي. ظننتُ أنّي أُوشِكُ على الإغماء. ورجوتُ أن يحدث هذا. وما هي إلّا لحظةٌ حتّى تطايرت أشلاءُ ذلك الرأس المُكوَّن من خشبٍ ولحمٍ وحديد.

صدرت النارُ عن يميني. وثقب الانفجارُ طبلةَ أذني، وتشبَّعَ الهواءُ برائحة البارود. سقط المُهرِّجُ على قدميه. وحين صدرت الطلقةُ الثانية، ارتخى الضغطُ عن عنقي فهويتُ على وجهي. لم أستوعب سوى رائحة البارود الثقيلة. أحدهم يسحبني. فتحتُ عينيَّ فتراءى لي رجلٌ ينحني عليَّ ويُنهِضني.

تحسَّستُ ضوءَ النهار فجأةً، وامتلأت رئتاي بهواءٍ نقيٍّ من جديد. ثمَّ فقدتُ الوعي. أذكر فقط أنّي حلمتُ بحوافر خيول، ورنين أجراسٍ بدون انقطاع.

٢١

كانت الغرفةُ التي صحوتُ فيها مألوفةً بالنسبة إليّ. النوافذُ مغلقة، والضياءُ الشفيفُ يتغلغل من بين الدفّات. وثمّة شخصٌ واقفٌ بجانب السرير، يراقبني صامتًا. مارينا.

- مرحبًا بك في عالَم الأحياء.

انتفضتُ جفلًا. وتغبَّشَ بصري مباشرةً، ووخزتْ دماغي شظايا زجاج. أسندتني مارينا بينما خمد الألمُ رويدًا رويدًا.

- اهدأ. - همست.

- كيف وصلتُ إلى هنا؟...

- جاء بك رجلٌ مّا، فجرًا. على عربة. لم يقل مَن هو.

- كلاريت... - غمغمتُ في حين كانت أجزاءُ تلك الأحجية تترتَّبُ في رأسي.

كان كلاريت قد سحبني من الأنفاق وجاء بي إلى الدار في ساريّا. إنّي مَدينٌ له بحياتي.

- لقد أفزعتَني عليك... أين كنت؟ انتظرتُ واقفةً على قدميَّ طوال الليل. إيَّاك أن تفعلَ بي شيئًا كهذا أبدًا، مفهوم؟

كنتُ أتألَّمُ من كلّ ناحيةٍ في جسدي، حتّى إنَّ رأسي آلمني

حين أومأتُ. استلقيتُ من جديد. جلبت لي مارينا كأس ماء إلى شفتيَّ. واجترعتُها برشفةٍ واحدة.

- هل تريد مزيدًا؟

أغمضتُ عينيَّ، فملأت لي الكأسَ ثانيةً.

- وماذا عن خيرمان؟ - سألتُها.

- في مكتبه. كان قَلِقًا عليك. قلتُ له إنَّك مريض.

- وهل صدَّقكِ؟

- أبي يُصدِّقُ كلَّ ما أقوله له. - أجابت مارينا، من غير مكر.

قرَّبت كأسَ الماء إليَّ.

- وما الذي يفعله في المكتب كلَّ هذه الساعات طالما أنَّه لم يعد يرسم؟

أمسكت مارينا معصمي لتجسَّ نبضي.

- لأنَّه فنَّان. - قالت - والفنَّانون يعيشون في الماضي أو في المستقبل؛ وليس في الحاضر. يعيش خيرمان على الذكريات. هي كلُّ ما لديه.

- لديه أنتِ.

- أنا أهمُّ ذكرياته. - قالت وهي تُركِّزُ في عينيَّ - أتيتُك بشيءٍ تأكله. عليك أن تستعيدَ قواك.

رفضتُ بتلويحةٍ من يدي. كان الغثيانُ يراودني لمُجرَّد التفكير في الطعام. وضعت مارينا يدها على رقبتي وأسندت رأسي لكي أشربَ مزيدًا. ماءٌ باردٌ وصافٍ، نعمةٌ كبرى.

- كم الساعة؟

- ما بعد الظهر. لقد نمتَ ثماني ساعاتٍ تقريبًا.

حطَّت يدها على جبيني وتركتها هناك بضع ثوانٍ.

- لم تُصَبْ بالحمّى، وهذا جيِّد.

فتحتُ عينيَّ وابتسمتُ لها. كانت ترمقني بنظرةٍ جادَّة، ووجهها شاحب.

- كنتَ تهذي. كنتَ تتكلَّمُ في منامك...

- ماذا قلت؟

- هراء.

تلمَّستُ حلقي بأصابعي. كان يؤلمني.

- لا تلمسه. - قالت مارينا وأزاحت يدي - لديك جرحٌ كبير. إضافةً إلى رضوضٍ على كتفيك وظهرك. مَن فعل بك كلَّ هذا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا أدري...

تنهَّدت مارينا، بصبرٍ نافد.

- لقد ذبحتَني من الخوف. واحترتُ فيما ينبغي فعله. اتَّصلتُ بفلوريان من هاتفٍ عموميّ، لكنَّ صاحب المقهى قال لي إنَّك اتَّصلتَ به توًّا وإنَّ المُفتِّشَ خرج ولم يقل أين ذاهب. فاتَّصلتُ قُبَيلَ الفجر ولم يكن قد عاد...

- فلوريان مات. - قلتُ، وشعرتُ أنَّ صوتي يتمزَّقُ وأنا ألفظ اسمَ المُفتِّش المسكين - عدتُ إلى المقبرة ليلةَ أمس. - اعترفتُ.

- أنت مجنون. - هتفت مارينا.

إنَّها على حقّ، أغلب الظنّ. أعطتني كأس ماءٍ ثالثة دون أن تفوهَ بشيء. فازدردتُهُ حتّى القطرة الأخيرة. ثمَّ رويتُ لها بصعوبةٍ ممّا حدث في الليلة السابقة. وفي النهاية، اكتفت مارينا بالتحديق إليَّ بلا كلام. تملَّكني انطباعٌ أنَّها قلقةٌ بخصوص شيءٍ آخر، ليس له صلةٌ بحكايتي. وأصرَّت على أن آكل ما أتتني به، سواء أكنتُ جائعًا أم لا. أعطتني الخبزَ والشوكولاتة، ولم تحد أبصارها عنّي إلّا حين ابتلعتُ نصفَ لوحٍ وشطيرةً كبيرة بحجم سيَّارة أجرة. وسرعان ما تدفَّقَت جرعةُ السكَّريَّات في دمي، وأحسستُ أنّي أعود إلى الحياة مباشرةً.

- وأنا كذلك أدَّيتُ دورَ المُحقِّق، بينما كنتَ نائمًا. - قالت مارينا، مشيرةً إلى مُجلَّدٍ ضخمٍ على الدُّرج.

قرأتُ عنوانه من ضلعه.

- هل تهتمّين بعِلم الحشرات؟

- بالحشرات. - حدَّدت مارينا - وجدتُ صديقتنا، الفراشة السوداء.

- *Teufel*...

- مخلوقٌ بديع. تعيش في الأقبية والأنفاق الباطنيَّة، بعيدًا عن الضوء. تُقدَّرُ دورةُ حياتها بأربعة عشر يومًا. وقبل أن تموت، تدفن جسمَها بين النفايات. وبعد ثلاثة أيَّام، تلد يرقةً جديدة.

- تُبعَث؟

- يمكننا أن نصفها كذلك.

- وعلامَ تتغذَّى؟ - سألتُ - لا يوجد تحت الأرض أزهارٌ ولا غبارُ طلع...

- تأكل صغارها. - أوضحت مارينا - هذا كلُّ ما في الأمر. حياةُ أبناء عمومتنا الحشرات مثاليَّة.

اقتربت من النافذة وأزاحت الستائر. ففاضت الغرفةُ بالشمس، لكنَّ مارينا لم تتحرَّك، غارقةً في أفكارها. شعرتُ أنَّ مُسنَّناتِ دماغي بدأت بالعمل.

- ما المغزى من الاعتداء عليك لاستعادة الألبوم، ومِن ثَمَّ التخلُّصُ من الصور؟

- من الوارد أنَّ مَن اعتدى عليَّ كان يبحث عن شيءٍ داخل الألبوم...

- إلّا أنَّ هذا الشيء، أيًّا كان، لم يعد موجودًا... - أكملت مارينا الجملة.

- الدكتور شيلي... - هتفتُ مُتذكِّرًا على حين غرَّة.

نظرت إليَّ مارينا ولم تفهم.

- عندما ذهبنا لزيارته، أطلعناه على الصورة المُلتَقَطة في عيادته. - قلت.

- واحتفظ بها!

- ليس هذا فحسب. بل حين كنّا ننصرف ألقاها في النار.

- وما الذي يُجبِرُ شيلي على التخلُّص من تلك الصورة؟

- ربّما لأنَّها تتضمَّنُ ما لا ينبغي لأحدٍ أن يراه... - اقترحتُ، وقفزتُ عن السرير.

- إلى أين تحسَب أنَّك ذاهب؟

- لملاقاة لويس كلاريت. - أجبتُ - فهو الذي بيده مفتاحُ كلّ هذه المسألة.

- لن تخرجَ من الدار قبل مضيّ أربع وعشرين ساعة. - ردَّت مارينا، ووقفت عند الباب - لقد ضحَّى المُفتِّشُ فلوريان بحياته لكي تتمكَّنَ أنت من النجاة.

- خلال أربع وعشرين ساعة، سيخرج المُختَبِئُ في الأنفاق ليبحثَ عنّا، ما لم نعمل على إيقافه عند حدِّه. - قلت - إنَّ أقلَّ ما يستحقُّهُ فلوريان منّا أن تتحقَّقَ العدالة.

- شيلي قال إنَّ الموتَ لا يهتمُّ بالعدالة. - ذكَّرتني مارينا - وربّما كان مُحقًّا.

- ربّما. - أقررتُ - ولكن نحن نهتمُّ بالعدالة، وكيف لا!

*

حين وصلنا إلى مشارف الرابال، كان الضبابُ يغزو الأزقَّة، مشوبًا بأضواء عشوائيَّات الفقراء والحانات الكئيبة. تركنا خلفنا أجواءَ لاس رامبلاس الفَرِحةَ وتوغَّلنا في أشدّ أحياء المدينة بؤسًا وشقاء. لا أثر لسيَّاحٍ أو فضوليِّين. تُطارِدنا نظراتٌ مُتربِّصةٌ من مداخلَ كريهة الرائحة، ونوافذَ واجهاتٍ رخوةٍ كالصلصال. وكانت أصداءُ التلفزيونات والراديوهات ترتفع في وادي الفقر ذاك، دون أن تعلو على الأسطح. صوتُ حيّ الرابال لا يصل إلى السماء.

وسرعان ما لمحنا، بين ثغرات تلك الأبنية التي استبدَّ بها الإهمال لعقود، الأطلالَ الأثريَّةَ للمسرح الملكيّ الكبير. وكان رمزُ الفراشة ذات الجناحين الأسودين شامخًا فوق سطحه كدوَّارة

الريح. توقَّفنا نتأمَّلُ ذلك المشهدَ الخياليّ. أغربُ الأبنية في برشلونة يتحلَّلُ كجثَّةٍ في مُستَنقَع.

أشارت مارينا إلى النوافذ المضاءة في الطابق الثالث من ملحق المسرح. فعرفتُ مدخلَ الإسطبل. ذاك بيتُ كلاريت. دخلنا إلى البهو، الذي طفح بأمطار الليلة الماضية. واندفعنا نحو السلالم ذات العتبات المُتفحِّمة والبائدة.

- وماذا لو لم يشأ لقاءنا؟ - سألتْ مارينا بارتباك.

- إنَّه ينتظرنا، على الأرجح. - خطر لي هذا الجواب.

وصلنا إلى الطابق الثاني، فلاحظتُ أنَّ مارينا شاحبةٌ للغاية، وتتنفَّسُ بصعوبة.

- هل أنتِ بخير؟

- متعبة قليلًا. - أجابت بابتسامةٍ غير مُقنِعة - أنت تصعد بعجالةٍ لا أتحمَّلُها.

أخذتُ بيدها واقتدتُها إلى الطابق الثالث، درجةً درجة. توقَّفنا عند باب كلاريت. فتنفَّسَت مارينا بعمق. كان صدرها يرتجف.

- أنا بخير، حقًّا. - قالت مُتكهِّنةً مخاوفي - هيّا، اطرق الباب. ماذا تنتظر؟ آمل أنَّك لم تأتِ بي حتّى هنا للقيام بجولةٍ سياحيَّةٍ في الحيّ...

طرقتُ ببراجم يدي على الباب الخشبيّ القديم، السميك والغليظ مثل جدار. طرقتُ ثانيةً. فاقتربتْ خطواتٌ متباطئة. انفتح الباب، وظهر لويس كلاريت على العتبة، الرجلُ الذي أنقذ حياتي.

- ادخلا. - اكتفى بكلمة. ثمَّ استدار وسبقنا إلى الداخل.

أغلقنا البابَ خلفنا. كانت الشقَّةُ مظلمةً وباردة، والطلاءُ يتدلَّى من السقف كجلد حيوانٍ زاحف، والثريَّا التي بلا مصابيح مرتعٌ لشباك العنكبوت. أمّا بِلاطُ الأرض فكان مُفتَّتًا بالكامل.

- من هنا. - دعانا كلاريت.

تبعنا صوتَهُ إلى غرفةٍ فيها مجمرٌ يضيئها بالكاد. جلس إلى الفحم المشتعل، يتمعَّنُ الجمرَ صامتًا. وكانت الجدرانُ تحتفي بلوحاتٍ قديمة، لشخصيَّاتٍ ووجوهٍ من أزمنةٍ سالفة. رفع كلاريت بصره نحونا. عيناه صافيتان وحادَّتان، وشعرُهُ رماديٌّ وبشرتُهُ مُتجعِّدة. تشير عشراتُ التجاعيد إلى مرور الزمن على وجهه، ورغم تقدُّمه في العمر يعطي انطباعًا بالقوَّة التي قد يحسده عليها كثيرٌ من الرجال الأصغر منه بثلاثين عامًا. كأنَّه ممثِّلٌ استعراضيٌّ وصل الشيخوخةَ بكرامةٍ وأناقة.

- لم تتسنَّ لي الفرصةُ لأشكر حَضرتك. لأنَّك أنقذتَ حياتي.

- لستُ أنا مَن يجب أن تشكرَه. كيف توصَّلتما إليّ؟

- المُفتِّش فلوريان. - سبقتني مارينا - قال لنا إنَّ حضرتك والدكتور شيلي كنتما الوحيدين اللذين بقيا إلى جانب ميخائيل كولڤينيك وإيڤا إيرينوڤا حتّى اللحظة الأخيرة. وقال إنَّك لم تتركهما يومًا. فكيف تعرَّفتَ على ميخائيل كولڤينيك؟

افترَّت من كلاريت ابتسامةٌ واهنة.

- وصل السيِّدُ كولڤينيك إلى هذه المدينة أثناء أسوأ صقيعٍ

شهده القرن. - قال - وكان وحيدًا، يتضوَّرُ جوعًا، ويكاد يموت من البرد، فبحث عن ملاذٍ في بهو بنايةٍ قديمة ليقضي فيه ليلته. لا يملك سوى بضعة فلوس قد تشتري له خبزةً وقهوةً ساخنة. لا أكثر. وبينما كان يُفكِّرُ فيما ينبغي فعله، انتبه أنَّه لم يكن بمفرده في ذلك البهو. هنالك طفلٌ لا يتجاوز عمرُهُ خمسة أعوام، رثُّ الثياب، مُتسوِّلٌ يبحث مثلَهُ عن مأوى يقيه الصقيع. ولم يكن كولڤينيك والطفلُ يتحدَّثان اللغةَ نفسها، لذا بالكاد تفاهما. لكنَّ كولڤينيك ابتسم له وأعطاه فلوسه، وشرح له بالإشارات أن يشتري بها شيئًا يأكله. اندهش الطفلُ، وركض ليشتري رغيفَ خبز من مخبزٍ يفتح أبوابَهُ طوال الليل، قرب الساحة الملكيَّة. وحين عاد ليتقاسمَ الرغيفَ مع الشخص المجهول، رأى الشرطةَ تعتقله. تعرَّضَ كولڤينيك لضربٍ مبرحٍ من نزلاء الزنزانة، وانتهى به المطافُ إلى مستوصف السجن. وانتظره الطفلُ أيَّامًا عند المدخل، مثل كلبٍ بلا صاحب. وبعد أسبوعين، عندما أُفرِجَ عن كولڤينيك، خرج يعرج. وكان الطفلُ هناك لكي يُعينَه. فأصبحَ دليلَهُ وأقسم أنَّه لن يتخلَّى عن ذلك الرجل الذي أعطاه كلَّ ما يملك، على قلَّته، في أتعس ليالي حياته... ذاك الطفل هو أنا.

نهض كلاريت وأشار لنا بأن نتبعَهُ على امتداد ممرٍّ ضيِّقٍ يُفضي إلى باب. أخرج مفتاحًا وفتحه. وخلف ذلك الباب بابٌ، مُطابِقٌ، تتخلَّلهما فسحةٌ صغيرة.

أشعل كلاريت شمعةً ليُخفِّفَ الظلامَ السائد. وفتح الباب الثاني بمفتاحٍ آخر. فاجتاح تيَّارٌ باردٌ الممرَّ وتمايلت على إثره الشعلة. شدَّت مارينا على يدي بينما كنّا نجتاز العتبة. ثمَّ توقَّفنا.

إذ ظهرت أمامنا رؤيةٌ خرافيَّة. المسرحُ الملكيُّ الكبيرُ من الداخل.

تتصاعد طوابقُهُ المتراكبةُ نحو القبَّة الكبيرة. وتتدلَّى ستائرُهُ المخمليَّةُ من الشرفات، وتتمايل في الفراغ. ثريَّاتٌ زجاجيَّةٌ ضخمة، مُعلَّقةٌ فوق صالة الجمهور الرحبة والخالية، بانتظار توصيلٍ كهربائيٍّ لن يتفعَّل. كنّا في مدخلٍ جانبيٍّ إلى الخشبة. تتصاعد فوقنا مَعدَّاتُ الإخراج نحو اللانهاية، ككونٍ من ستائرَ، وروافعَ، وبكراتٍ وممرَّاتٍ تتوه في الأعالي.

- من هنا. - أشار كلاريت وهو يسبقنا.

قطعنا الخشبة. ثمَّة آلاتٌ موسيقيَّةٌ راقدةٌ في حفرة الأوركسترا. وعند منصَّة المايسترو، مُدوَّنةٌ موسيقيَّةٌ مفتوحةٌ على الصفحة الأولى، وقد استوطنتها شباكُ العناكب. وما بعدها، رسمت السجَّادةُ الكبيرةُ، في الممرّ المركزيّ في صالة الجمهور، طريقًا لا يُؤدّي إلى أيّ مكان. توجَّهَ كلاريت نحو بابٍ مضاء وأشار لنا بالانتظار عند العتبة. فتبادلنا أنا ومارينا نظرة.

كان بابًا لغرفة تبديل الملابس. وكانت مئاتٌ من الأزياء المبهرة مُعلَّقةً على قضبانٍ معدنيَّة. وثمّة حائطٌ مغطًّىً بمرايا؛ وآخر مكتظٌّ بعشرات الصور القديمة لامرأةٍ أخَّاذةِ الجمال: إيڤا إيرينوڤا، فاتنةُ المسارح. المرأة التي من أجلها أمر ميخائيل كولڤينيك بترميم هذا الحرم. رأيتُها حينذاك. السيِّدةُ ذات السواد، تنظر إلى نفسها في المرآة، محجوبةَ الوجه. التفتت ببطءٍ عند سماع خطواتنا، وأومأت. فسمح لنا كلاريت بالدخول حينذاك. دنونا منها كما لو كانت شبحًا، بمزيجٍ من الجاذبيَّة

والرهبة، وتوقَّفنا على مسافة مترين عنها. وظلَّ كلاريت عند الباب، كالرقيب. التفتت المرأةُ من جديد نحو المرآة، تعاين صورتَها.

رفعت حجابَها بغتةً، وبِرِقَّةٍ لامتناهية. أضاءت لنا المصابيحُ القليلةُ وجهَها المنعكسَ في المرآة، أو ما لم ينل منه الأسيد بالأحرى. عظامٌ مكشوفةٌ وجلدٌ ذاوٍ. شفتان بلا شكل، ثغرٌ صغيرٌ محاطٌ بملامح ممحوَّة. عينان ما عادتا قادرتين على ذرف الدموع. تركتنا طوال لحظةٍ لا تنتهي نتأمَّلُ ذلك الرعبَ الذي تستره بالحجاب في العادة. ثمَّ أخفت وجهَها وهويَّتَها من جديد، بالرِّقَّةَ ذاتها التي كشفتهما بها، ودعتنا للجلوس. وهبط صمتٌ طويل.

مدَّت إيڤا إيرينوڤا يدها نحو وجه مارينا، وداعبت وجنتيها، وشفتيها، وعنقَها. واستقرأت جمالَها وكمالَ أوصافها بأصابعها الفَزِعَة والمُرتَعِشة. مضغت مارينا ريقها. سحبت السيِّدةُ يدها، وومض لمعانٌ من خلف الحجاب في عينيها اللتين بلا جفنين. وعندئذ، بدأت تروي لنا الحكايةَ التي أبقتْها سرّيَّةً لأكثر من ثلاثين سنة.

٢٢

- لم أعرف بلدي إلّا عن طريق الصور. أنا مَدينةٌ بما أعرفه عن روسيا للحكايات، والنقاشات وذكريات الأشخاص الآخرين. وُلِدتُ على متن مركبةٍ لنقل البضائع بنهر الراين، في أوروبا المُدمَّرة بالحرب والرعب. علمتُ بعد أعوامٍ أنَّ والدتي كانت تحملني في رحمها عندما عبرت الحدودَ الروسيَّةَ البولنديَّة، وحيدةً ومريضةً، هربًا من الثورة. لم أعرف اسمَها، لم أعرف مَن يكون والدي. دُفِنَتْ على ضفَّة النهر في قبرٍ بلا شاهدة، وضاع ذِكرُها إلى الأبد. وكان على متن المركبة نفسها مُمثِّلان من سان بطرسبرغ، سيرغي غلازونوف وتوأمُهُ تاتيانا؛ قرَّرا الاعتناءَ بي: لأنَّهما تعاطفا معي، ولأنَّني كما أخبرني سيرغي بعدها بأعوامٍ طويلة، كنتُ قد وُلِدتُ بلونٍ مُختَلِفٍ لكلّ عين، وهذه علامةٌ عن الحظّ السعيد.

وفي وارسو انضممنا، بفضل براعة سيرغي ومكره، إلى فرقة سيرك مُتَّجهة إلى فيينا. شكَّلَ هؤلاء وحيواناتُهم ذكرياتي الأولى. خيمةُ السيرك، لاعبو الخفَّة، ودرويشٌ أصمُّ وأبكم، اسمه فلاديمير، كان يقضمُ الزجاج، ويبخُّ النار، ويهديني دومًا طيورًا

ورقيَّةً يصنعها كما لو بالسحر. أصبح سيرغي مديرَ الفرقة، واستقررنا في فيينا. وكان السيركُ مدرستي وبيتي الذي نشأتُ فيه. لكنَّنا منذ ذلك الحين، كنّا نعلم أنَّ أيَّامَهُ معدودة. بدأ واقعُ الحياة يغدو أشدَّ قبحًا من أن تُهوِّنَهُ إيماءاتُ المُهرِّجين ورقصاتُ الدببة. ثمَّ ما عاد أحدٌ يحتاج إلينا. صار القرنُ العشرون أكبرَ سيركٍ في التاريخ.

ما لبثتُ أن أتممتُ السابعة أو الثامنة من عمري، حتّى قال لي سيرغي إنَّ الوقتَ حان لأكسبَ قوتَ يومي. وهكذا انخرطتُ أنا أيضًا في الاستعراض، في البدء مُساعِدَةً لفلاديمير ثمَّ أفردوا لي وصلةً حصريّةً لي وحدي، أُغنّي فيها تهويدةً لدبٍّ لكي يغفو. لكنَّ الوصلةَ، التي كان الهدفُ منها إعطاءَ فرصةٍ للبهلوانيِّين لكي يتهيَّأوا، سرعان ما أحرزت نجاحًا عظيمًا. فوجئتُ بذلك أكثر من الجميع. وقرَّرَ سيرغي عندئذٍ أن يمنحني مساحةً أكبر. وهكذا صرتُ أُغنّي أناشيدَ لأُسودٍ كهلةٍ وجائعةٍ ومريضة، من على منصَّةٍ مضيئة. وكانت الحيواناتُ والجماهيرُ تُصغي إليَّ بافتتان. وكَثُرَ الحديثُ في فيينا عن الطفلة التي تُروِّضُ الوحوشَ بصوتها العذب. وصار الناسُ يحتشدون استعدادًا لدفع أيّ مبلغٍ لرؤيتها. كان عمري تسع سنواتٍ وحسب.

أدرك سيرغي سريعًا أنَّه لم يعد في حاجةٍ إلى السيرك. فقد جلبت له الطفلةُ ذات لون العينين المتغاير الحظَّ السعيد فعلًا. أكمل الإجراءات القانونيَّة ليصبح وصيًّا عليَّ، وأعلن لبقيَّة الفرقة أنَّنا سنستقلُّ في العمل. وألمح أنَّ السيركَ ليس مكانًا مناسبًا لتنشئة طفلة. وحين كُشِفَ عن اختلاسٍ ممنهجٍ من الرواتب طوال

أعوام، رفع سيرغي وتاتيانا إصبعَ الاتِّهام نحو فلاديمير، وأضافا بأنَّه كان يتعامل بحرّيَّةٍ مشبوهةٍ معي. اعتُقِلَ فلاديمير وزُجَّ بالسجن، ولم يعثر أحدٌ على تلك الأموال.

واحتفالًا باستقلاليَّته، اشترى سيرغي سيَّارةً فارهة، وأزياء الداندي، ومجوهراتٍ لتاتيانا. وانتقلنا إلى فيلّا استأجرها سيرغي في الغاب المحيط بفيينا. لم يُوضِّح البتّة من أين حصل على ذلك المال للتنعُّم بكلّ هذا البطر. وكنتُ أغنّي مساءً وليلًا في مسرحٍ بجانب دار الأوبرا، بمسرحيَّةٍ بعنوان «ملاك موسكو». وسمَّوني إيڤا إيرينوڤا، كانت هذه فكرة تاتيانا، التي استمدَّت الاسمَ من روايةٍ مُسَلسَلةٍ ومقروءة، لاقت إشادةً من جانب الصحافة. وكانت تلك أولى التمثيليَّات. وباقتراحٍ من تاتيانا نفسها، عيَّنوا لي مُعلِّمَ غناء، ومُعلِّمَ رقص، وأستاذًا في الفنون الدراميَّة. فحين لا أصعد خشبةً مسرحيَّة، كنتُ أتمرَّن. لم يسمح لي سيرغي بأصدقاء، أو بالخروج للتنزُّه، أو بالبقاء بمفردي، أو بقراءة الكتب. هذا لمصلحتكِ، كان يقول. ولكن حين بدأ جسدي يتغيَّر، أصرَّت تاتيانا أن تكون لي غرفةٌ خاصّة. وافق سيرغي على مضض، بشرط أن يحتفظَ بنسخةٍ من المفتاح. كان يعود في أغلب المرَّات سكرانًا بمنتصف الليل، ويحاول دخولَ غرفتي. وفي بعض الأحيان كان مخمورًا لدرجةٍ لا يستطيع حتّى إدخالَ المفتاح في القفل. لكنَّه كان يستطيع في أحيانٍ أخرى. فكان تصفيقُ جمهورٍ لا أعرفه هو عزائي الوحيد في تلك السنوات. ومع الوقت أصبح هذا ضروريًّا عندي أكثر من الهواء.

كنّا نسافر غالبًا. فقد وصل نجاحي في فيينا إلى مسامع

مُتعهِّدي الحفلات في باريس، وميلانو، ومدريد. وكان سيرغي وتاتيانا يرافقانني على الدوام. ولم أرَ بطبيعة الحال أيَّ فلسٍ من عوائد تلك الحفلات، ولا أعلم ما الذي فعلاه بتلك النقود. سيرغي كان مُثقَلًا بالديون ومُلاحَقًا من الدائنين على الدوام. أنتِ السبب، كان يتَّهمني بمرارة. فهو بنظره ينفق كلَّ ما لديه ليجعلني أعيش كملكة. أمّا أنا، في نظره، لا أُقدِّرُ ما يفعله هو وتاتيانا من أجلي. لقد علَّمني سيرغي أن أرى نفسي فتاةً قذرة، كسولة، جاهلة وغبيَّة؛ تعيسةً لن تصنعَ خيرًا في الحياة، ولن يحبَّني أو يحترمني أحد. لكنَّ هذا كلَّهُ لا يهمّ، يوشوشني بأنفاسه الكحوليَّة، لأنَّه سيظلُّ هو وتاتيانا يعتنيان بي على الدوام، ويحميانني من شرور الدنيا.

وفي اليوم الذي أتممتُ فيه عامي السابع عشر، اكتشفتُ أنَّني أكره نفسي، وأنَّني بالكاد أتقبَّلُ صورتي المنعكسة في المرآة. كففتُ عن تناول الطعام. كان جسدي يشمئزُّ منّي، فأحاول أن أخفيه بثيابٍ رثَّةٍ ومهترئة. وذات يوم، وجدتُ في سلَّة القمامة إحدى شفرات حلاقة سيرغي المُستَعمَلة. فخبَّأتُها في غرفتي، واعتدتُ أن أُجرِّحَ بها يديَّ وذراعيَّ. لكي أُعاقِبَ نفسي. وكانت تاتيانا تُعالِجني كلَّ ليلةٍ دون أن تقولَ كلمة.

بعدها بعامين، في فينيسيا، تلقَّيتُ عرضًا بالزواج من كونت سمعني أُغنّي. وفي المساء نفسه، ما إن ورد سيرغي الخبر، كاد يقتلني بالضرب المبرّح. مزَّقَ شفتيَّ من فرط لكماته، وكسر لي ضلعين. استطاعت تاتيانا والشرطةُ إيقافه. وغادرتُ فينيسيا على متن سيَّارة إسعاف. عدنا إلى فيينا، لكنَّ مشاكل سيرغي الماليَّة

تفاقمت. وما فتئت التهديداتُ تُحاصِرنا. وذات ليلة، بينما كنّا نائمين، أضرم مجهولون النارَ في بيتنا. وقبلها بأسبوع، تلقّى سيرغي عرضًا من أحد المُتعهِّدين بمدريد، الذي كنتُ في الماضي قد أدَّيتُ أمامه بنجاحٍ منقطع النظير. دانيال ميستريس، هذا كان اسمَهُ، أصبح شريكًا بحصَّةٍ ساحقة في المسرح الملكيّ القديم ببرشلونة، وأراد أن يفتتحَ الموسمَ معي. وهكذا وضَّبنا الحقائبَ وانطلقنا فجرًا، أو بالأحرى هربنا بثيابنا، نحو برشلونة. كان عمري حينذاك قرابة التسعة عشر عامًا، وأُصلِّي للسماء ألّا أتجاوزَ العشرين. إذ كنتُ منذ أمدٍ بعيد أُفكِّرُ في إنهاء حياتي. لا شيء يربطني بهذا العالَم. كنتُ ميِّتةً منذ زمن، سوى أنّي انتبهتُ إلى ذلك حينها. وفي تلك الفترة تعرَّفتُ على ميخائيل كولڤينيك...

كنّا باشرنا العروضَ في المسرح الملكيّ منذ عدَّة أسابيع. انتشر بين أعضاء الفرقة حديثٌ عن رجلٍ نبيلٍ يأتي كلَّ مساءٍ ويجلس في الشرفة نفسها ليسمعني أُغنّي. وفي تلك الأيَّام كانت برشلونة تنام وتصحو على أقاصيصَ من شتّى الأنواع حول ميخائيل كولڤينيك. حول كيف أسَّسَ ثروته... حول أصله وحياته الخاصَّة، الزاخرة بالألغاز والأسرار... كانت أسطورتُهُ تتقدَّمُه. جذبتني شخصيَّتُهُ الغريبة، حتّى إنَّني ذات مساء وجَّهتُ إليه دعوةً لملاقاتي في غرفة تبديل الملابس بعد العرض. طرق ميخائيل كولڤينيك بابي في منتصف الليل تقريبًا. وكانت تلك الأقاويلُ هيَّأتني لمقابلة شخصٍ مُتوعِّدٍ ومُتَغطرِس. إلّا أنَّ انطباعي الأوَّلَ كان بصدد رجلٍ خجول ومُتحفِّظ. ثيابُهُ داكنة،

وبسيطة، بلا تزيُّن، باستثناء دبُّوسٍ صغيرٍ على صدر سترته: وسامُ فراشةٍ بجناحين مبسوطين. شكرني على الدعوة، وعبَّرَ عن إعجابه بي، وتشرُّفه بمعرفتي. فأجبتُ أنَّني، بعد كلّ ما سمعته عنه، تشرَّفتُ بمعرفته كذلك. ابتسم ونصحني بتجاهل الشائعات. لم أرَ ابتسامةً أجمل من ابتسامة ميخائيل. فعندما يبتسم لك، تُصدِّقُ كلَّ ما تتفوَّهُ به شفتاه. حتّى إنَّ أحدهم، ذات مرَّة، قال لو تسنَّى لميخائيل لتمكَّنَ من إقناع كريستوفر كولومبوس بأنَّ الأرضَ مُسطَّحةٌ كالخريطة؛ وكان على حقّ. ففي تلك الليلة أقنعني بأن أتمشَّى معه في طرقات برشلونة. وأخبرني بأنَّه غالبًا ما تجوَّلَ في قلب الليل على امتداد المدينة النائمة. وكنتُ بالكاد وطئتُ بقدمي خارج المسرح مذ وصلنا برشلونة، فوافقتُ. كنتُ أعلم أنَّ هذا سيُثير غضبَ سيرغي وتاتيانا، لكنّي لم أُلقِ بالًا. خرجنا بالخفاء من باب خشبة المسرح. شبك ميخائيل ذراعي وتمشَّينا حتّى الفجر. أراني المدينةَ الفاتنةَ من خلال عينيه. وحدَّثني عن ألغازها، وأنحائها المسحورة، وروحها التي تعيش في تلك الطرقات. وروى لي ألفَ أسطورةٍ وأسطورة. قطعنا الأزقَّةَ المخفيَّةَ في الحيّ القوطيّ والبلدة القديمة. كان ميخائيل يعرف كلَّ شيء: كلَّ مَن سكن في كلّ قصر، وكلَّ جريمةٍ وقصَّة حبٍّ تتوارى خلف كلّ جدارٍ وكلّ نافذة. كان يعرف أسماءَ جميع المعماريِّين، وجميع الحِرَفيِّين، وآلاف العُمَّال الذين شيَّدوا هذه العَظَمة ولا يعرفهم أحد. وبينما كان يُحدِّثني، تملَّكني انطباعٌ بأنَّ ميخائيل لم يشارك تلك الحكايات مع أحد. أربكتني عزلتُهُ، وفي الوقت ذاته شعرتُ أنّي

أرى في شخصيَّته هاويةً سحيقةً لم أتمالك نفسي للتطلُّع إليها. فاجأنا الفجر ونحن على أحد مقاعد الميناء. نظرتُ إلى المجهول الذي تسكَّعتُ معه ساعاتٍ وبدا لي أنَّني أعرفه منذ زمن. واعترفتُ له بذلك. فضحك ميخائيل. وفي تلك اللحظة تمامًا، علمتُ بيقينٍ نادرٍ، لا يتوفَّرُ في الحياة سوى مرَّتين، علمتُ أنّي سأُمضي بقيَّةَ عمري معه.

في تلك الليلة، قال لي ميخائيل إنَّ الحياةَ بالنسبة إليه تتيح لكلّ واحدٍ منّا لحظاتٍ نادرةً من سعادةٍ مُطلَقة. لا تتجاوز الأيَّامَ أو الأسابيعَ أحيانًا. وتدوم أعوامًا في أحيانٍ أخرى. الأمرُ برمَّته مرهونٌ بالحظّ. لا تُفارِقنا ذكرى تلك اللحظات أبدًا، وتتحوَّلُ إلى بلد الذاكرة الذي نحاول جاهدين الرجوعَ إليه لتمضية بقيَّة حياتنا. وبالنسبة إليَّ، ستظلُّ تلك اللحظاتُ مدفونةً في تلك الليلة الأولى ونزهتنا في شوارع المدينة...

لم يتأخَّر ردُّ سيرغي وتاتيانا. سيرغي على وجه الخصوص. منعني من اللقاء ثانيةً بميخائيل أو الحديث معه. وهدَّدَ بأنَّه سيقتلني إن خرجتُ من المسرح مجدَّدًا من دون إذنه. اكتشفتُ للمرَّة الأولى أنّي لم أعد أخاف منه، إنّما أحتقره فقط. فقرَّرتُ أن أُغضِبَهُ أكثر وقلتُ له إنَّ ميخائيل طلب يدي وإنّي وافقتُ. فذكَّرني بأنَّه الوصيُّ عليَّ، وأنَّنا سنغادر إلى لشبونة في أقرب وقت، فما بالك أن يسمحَ بالزواج أساسًا. أوصلتُ رسالةً يائسةً إلى ميخائيل، عن طريق إحدى راقصات الفرقة. وفي مساء اليوم نفسه، قبل العرض، حضر ميخائيل إلى المسرح رفقة محاميَّين اثنين ليلتقي بسيرغي. أنبأه بأنَّه وقَّعَ عقدًا في الظهيرة مع مُتعهِّد

المسرح الملكيّ، وأنَّه أصبح المالكَ الجديد. واعتبارًا من تلك اللحظة، فُصِلَ كلٌّ من سيرغي وتاتيانا.

أظهر عليه ملفًّا يتضمَّنُ وثائق ودلائل عن أنشطته غير المشروعة في فيينا، ووارسو، وبرشلونة. مُستَمسَكاتٌ كافيةٌ لتزجَّ بسيرغي خلف القضبان لخمسة عشر عامًا أو عشرين. وأضاف إلى ذلك شيكًا بمبلغٍ يفوق ما قد يجمعه سيرغي من أعماله المشبوهة والخبيثة بقيَّةَ حياته كلِّها. والخيارات المطروحة هي التالية: يغادر سيرغي وتاتيانا برشلونةَ خلال أربع وعشرين ساعة، ويتعهَّدان بعدم التواصل معي بأيّ شكل، فيحصلان على الشيك والملفَّ؛ يرفضان التعاون، ينتقل الملفُّ إلى أيدي الشرطة، ومعه الشيك أيضًا، ليكونَ مُحفِّزًا لتزييت آلة العدالة. جُنَّ جنونُ سيرغي من الغضب، وصاح بأنَّه ما كان لينفصلَ عنّي، وأنَّ ميخائيل إذا أرادني فعليه أن يدوسَ على جثَّته أوَّلًا.

ابتسم له ميخائيل وانصرف. وفي الليل ذهب سيرغي وتاتيانا ليتفاهما مع فردٍ قميءٍ يعرض خدماته باعتباره قاتلًا مأجورًا. وحين خرجا من مكان اللقاء، تلقَّيا وابلًا من الرصاص، من مركبةٍ بالجوار، وكادا يلقيان مصرعهما. نشرت الصحفُ الخبرَ وسوَّقَت عدَّة فرضيَّاتٍ لتسويغ عمليَّة الاغتيال. وفي اليوم التالي، قَبِلَ سيرغي الشيك وترك المدينةَ مع تاتيانا ولم يُودِّعاني...

وحين علمتُ بما حدث، ألححتُ على ميخائيل لكي يعترفَ لي بمسؤوليَّته. وكم وددتُ أن ينفي ذلك. ركَّزَ أنظاره في عينيَّ وسألني إن كنتُ أشكُّ فيه. أحسستُ أنّي أموت. كانت القلعةُ الورقيَّةُ الهشَّةُ، المصنوعةُ من السعادة والأمل، تبدو أنَّها مُوشِكَةٌ

على الانهيار. فألححتُ أكثر. فأجاب ميخائيل نافيًا: ليس هو المسؤول. «لو كنتُ أنا وراء ذلك، لما بقي هذان الاثنان على قيد الحياة» قال بنبرةٍ جامدة.

وفي تلك الفترة، كلَّفَ واحدًا من خيرة المعماريِّين في المدينة لتشييد القصر الحصين، بجوار منتزه غويل، بناءً على توجيهاته. لم يناقش بشأن التكاليف ولو للحظةٍ واحدة. وبينما كان القصرُ في طور التأسيس، استأجر ميخائيل طابقًا كاملًا من فندق كولون العريق بساحة كاتالونيا، حيث نزلنا فيه مؤقَّتًا. فاكتشفتُ للمرَّة الأولى ماذا يعني وجودُ حشدٍ غفيرٍ من الخدم تحت تصرُّفي لدرجة أنّي لم أكن قادرةً على تذكُّر أسمائهم جميعًا. أمّا ميخائيل، فلم يكن لديه سوى مُساعِدٍ واحد: سائقُهُ لويس.

وكان صائغو المجوهرات بدار باغيس-ماسرييرا يزورونني في جناحي. ويأخذ أمهرُ الخيَّاطين مقاسي ليصنعوا لي أزياءً وفيرةً تليق بإمبراطورة. فتح ميخائيل حساباتٍ غير محدودة باسمي في أفخم متاجر برشلونة. وبتُّ أتلقَّى تحيَّات إجلال، في الشارع أو ردهة الفندق، من أناسٍ لم أرهم من قبل. وتصلني دعواتٌ إلى حفلاتٍ راقية وراقصة في قصور عوائل لم أرَ أسماءها إلّا في مجلَّات أخبار المجتمع المخمليّ. وكنتُ لا أبلغ من العمر سوى عشرين عامًا. لم أكن قبل ذلك قد أمسكت بيديَّ ما يكفي من النقود لشراء تذكرة ترام. فصرتُ كمَن يحلم بعينين مفتوحتين. لذا بدأتُ أشعر بالحرج من كلّ هذه الأبَّهة وكلّ هذا الهدر. وكلَّما ألححتُ بالأمر لميخائيل، أجاب بأنَّ المالَ بلا قيمة طالما أنَّك تملكه.

وكنّا نقضي النهارَ معًا: نتنزَّهُ في المدينة، ونتردَّدَ إلى كازينو

تيبيدابو، مع أنّي لم أره يُقامِرُ بفلسٍ واحد، في مسرح المعهد. . . ونعود عند الغروب إلى فندق كولون، فينكفئ ميخائيل إلى جناحه. وسرعان ما انتبهتُ أنَّه في كثيرٍ من الليالي يخرج من جديد ولا يعود حتّى الفجر. وحين سألتُهُ عبَّرَ عن انشغاله بمسائل مُتعلِّقةٍ بالعمل.

لكنَّ أقاويلَ الناس كانت تتزايد. تملَّكني انطباعٌ بأنّي سأتزوَّجُ رجلًا يبدو أنَّ الجميعَ يعرفه أكثر منّي. كنتُ أسمع النادلاتِ يتهامسن خلف ظهري. وبتُّ أشعر أنَّني أخضع لفحصٍ بمجهرٍ يتوارى خلف ابتسامات المارَّة المُنافِقة. وغدوتُ أسيرةً لظنوني شيئًا فشيئًا. واستبدَّت بي فكرةٌ هاجسة: كلُّ هذه الأبَّهة، وهذا الإسرافُ المادّيُّ من حولي، كان يُشعِرني أنّي مُجرَّد قطعة أثاثٍ أخرى. واحدة من نزوات ميخائيل الكثيرة. فهو بوسعه شراءُ كلَّ شيء: المسرح الملكيّ، سيرغي، السيَّارات، المجوهرات، القصور. وأنا. كان القلقُ يذبحني كلَّما رأيتُهُ يخرج في ساعةٍ متأخِّرة، ظنًّا أنَّه يركض إلى أحضان امرأةٍ أخرى. وذات ليلة، قرَّرتُ أن أتبعه لأضعَ حدًّا لهذه المهزلة.

اقتادتني خطواتُهُ إلى إحدى الورشات القديمة لشركة البيلو-غراني، بجانب سوق البورني. كان ميخائيل بمفرده. واضطررتُ إلى الولوج عبر نافذةٍ صغيرةٍ تطلُّ على زقاق. بدا لي المشهدُ في الداخل كابوسيًّا. مئاتُ الأقدام، والأيدي، والأذرع، والسيقان، والأعين المطفأة، تتمايل في الأروقة: قِطعُ تبديل إنسانيَّةٍ تعيسة. قطعتُ ذلك المكانَ إلى قاعةٍ كبيرةٍ ومعتمة، مليئة بالحاويات الزجاجيَّة الضخمة التي تطفو في داخلها أشكالٌ غير مُحدَّدة.

وكان ميخائيل، وسط القاعة، جالسًا على كرسيّ، تحت الظلام، يُدخِّنُ سيجارةً، ويراقبني.

«ما كان ينبغي لكِ أن تتبعيني» قال بنبرةٍ خاليةٍ من الغضب.

فأوضحتُ له بأنَّني لن أتزوَّجَ رجلًا لا أعرف سوى نصفه، وأتقاسم معه نهاراته فحسب، لا لياليه.

«لعلَّ ما ستكتشفينه لن ينالَ إعجابكِ» ألمح.

قلتُ له لا يهمُّني كيف ولماذا. لا يهمُّني معرفة ما يفعله ولا ما إذا كانت الشائعاتُ بحقّه صحيحةً أم باطلة. إنّما أردتُ أن أكونَ جزءًا من حياته كلِّها. بلا غموض. بلا أسرار. فأومأ، وعرفتُ ماذا تعنيه إيماءتُهُ: كنتُ أجتاز عتبةً من غير رجعة. وعندما أضاء ميخائيل أضواءَ القاعة، صحوتُ من حلم الأسابيع الأخيرة. ووجدتُني في الجحيم.

كانت حاوياتُ الفورمالين تضمُّ جثثًا تطوف في رقصةٍ مرعبة. وعلى إحدى الطاولات المعدنيَّة يرقد جسدٌ عارٍ لامرأةٍ مُشرَّحةً من بطنها إلى حنجرتها. ذراعاها مفرودتان كالصليب، فانتبهتُ أنَّ مفاصلَ ذراعيها ويديها عبارةٌ عن أجزاء خشبيَّةٍ ومعدنيَّة. تمتدُّ من حلقها أنابيب، وتخترق أطرافَها ووركيها أسلاكٌ برونزيَّة. جلدُها شفَّاف، أزرق كسمكة. انحبست أنفاسي، فتبعتُ ميخائيل بعينيَّ وكان يقترب من ذلك الجسد ويرمقه بحزن.

«هذا ما تفعله الطبيعةُ بأبنائها. لا يوجد شرٌّ في قلوب البشر، إنّما مُجرَّدُ صراعٍ للنجاة من المحتوم. لا يوجد شيطانٌ سوى أمِّنا الطبيعة... إنَّ عملي، وجهودي، مُجرَّدُ محاولةٍ للتحايل على جريمة الخلق العظيمة...»

رأيتُهُ يمسك محقنًا ويملأها بسائلٍ زمرُّديٍّ محفوظٍ في قارورة. تلاقت نظراتُنا برهةً، ثمَّ غرس ميخائيل الإبرةَ في جمجمة الجثَّة وحقن فيها المحتوى. أخرج الإبرةَ وترقَّبَ ثابتًا، ومُحدِّقًا إلى الجسد الهامد. وما هي إلّا ثوانٍ حتّى تجمَّدَ الدمُ في عروقي. ارتعشت رموشُ أحد الجفنين. ثمَّ سمعتُ قرقعة الأجهزة المعدنيَّة والخشبيَّة. تذبذت الأصابع. ونهض جسدُ المرأة فجأةً بخضَّةٍ عنيفة. واجتاحت القاعةَ صرخةٌ حيوانيَّة. وكانت خيوطُ اللعاب البيضاءُ تسيل من بين شفتيها السوداوين، المُتورِّمتين. تخلَّصت المرأةُ من الأسلاك المعدنيَّة التي تثقب جلدَها، وهوت على الأرض كدميةٍ مُحطَّمة. وكانت تعوي كذئبٍ جريح. رفعت وجهها وأوغلت عينَيها في عينيَّ. فعجزتُ عن إشاحة بصري من شدَّة الفزع الذي استقرأتُهُ فيها. انبعثت من تلك النظرة طاقةٌ وحشيَّةٌ مُرعِبة. كانت تريد أن تعيش.

أحسستُ بشللٍ تامّ. وبعد ثوانٍ، استلقى الجسدُ خامدًا من جديد، بلا حياة. جلب ميخائيل غطاءً، وكان قد تفرَّجَ على المشهد بلا مبالاة، وغطّى به الجثَّة.

اقترب منّي وشبك يديَّ المرتجفتين بيديه. تحرَّى في عينيَّ كأنَّما أراد أن يستقرأ فيهما إن كنتُ ما أزال راغبةً في البقاء إلى جانبه بعد كلّ ما رأيتُ. بحثتُ عن كلماتٍ أُعبِّرُ بها عن ذعري، لأقول له إنَّه يُخطِئ... فما استطعتُ سوى التلعثم بأن يُخرِجَني من هناك. فعدنا إلى فندق كولون. رافقني إلى غرفتي، وطلب لي حساءً ساخنًا وغطّاني.

«إنَّ المرأةَ التي رأيتِها هذه الليلة ماتت قبل ستّة أسابيع تحت

عجلات الترام. كانت تحاول إنقاذَ طفلٍ يلهو على السكَّة ولم تستطع تجنُّبَ الصدمة. قطَّعت العجلاتُ ذراعيها من عند مرفقيها. وماتت في الشارع. لا يعرف أحدٌ ما اسمها. ولم يطالب بالجثَّة أحد. وهناك العشراتُ مثلها. كلَّ يوم...»

«أنت لا تستوعب يا ميخائيل... لا يمكنك القيام بعمل الربّ...»

لامس جبيني وابتسم لي بحزن، وهزَّ رأسه.

«ليلةً هانئة» قال.

وقبل أن يخرج، توقَّفَ عند الباب، وقال: «إن لم أجدكِ هنا غدًا، فسأتفهَّمُ قراركِ».

وبعد أسبوعين، تزوَّجنا في كاتدرائيَّة برشلونة.

٢٣

- تمنَّى ميخائيل أن يكونَ ذلك اليومُ مُميَّزًا بالنسبة إليَّ. فبذل ما في وسعه لتتحوَّلَ المدينةُ برمَّتها إلى مشهدٍ خرافيّ. وانتهت مملكتي على هذا العالَم المناميّ إلى الأبد عند أعتاب الكاتدرائيَّة. لم يسعفني الوقتُ حتّى لسماع صرخات الناس. لأنَّ سيرغي خرج من بين الجموع، مثلما يثب الحيوانُ البرّيُّ إلى خارج الغابة، وألقى قارورةَ الأسيد على وجهي. التهَمَ الأسيدُ بشرتي، وجفنيَّ، ويديَّ. شرَّخَ حنجرتي وسرق صوتي. لم أتمكَّن من استعادة النطق إلّا بعد سنتين، عندما أعاد ميخائيل بنائي كأنَّني دميةٌ مُحطَّمة. وكانت هذه بدايةَ الرعب.

أرجأنا أعمالَ التشييد وانتقلنا إلى ذلك القصر غير المُنجَز بعد. وجعلنا منه سجنًا شامخًا على ذروة التلَّة. كان مكانًا باردًا ومظلمًا. كومةً عشوائيَّةً من أبراجٍ وأقواس، وقُبَبٍ وسلالمَ حلزونيَّةٍ لا تُفضي إلى أيّ مكان. كنتُ أعيش منعزلةً في إحدى الغرف بقمَّة البرج. لا أحد يستطيع دخولها، إلّا ميخائيل، والدكتور شيلي أحيانًا. قضيتُ السنةَ الأولى في سبات المورفين، حبيسةَ كابوسٍ طويل. ظننتُ أنّي أرى ميخائيل في الحلم يُجري

تجاربه عليَّ، مثلما كان يفعل مع تلك الأجساد المنسيَّة في المستشفيات والمشارح. حلمتُ مرارًا أنَّه يُعيد بنائي ويتحايل على الطبيعة. وعندما استعدتُ وعيي أدركتُ أنَّ أحلامي كانت حقيقةً. فهو الذي أرجع لي صوتي، وأعاد بناءَ حنجرتي وفمي لكي أستطيعَ أن أتغذَّى وأتكلَّم. وهو الذي عدَّلَ نهاياتي العصبيَّة لئلا أشعرَ بألم الجروح التي سبَّبَها الأسيد. هذا صحيح، تحايلتُ على الموت؛ لكنّي أمسيتُ إحدى مخلوقات ميخائيل الملعونة.

وكان في تلك الآونة يفقد تأثيرَهُ على المدينة. لم يعد يسانده أحد. أولى إليه حلفاؤه القدامى ظهرَهم وهجروه. وبدأ ضبَّاطٌ وقضاةٌ بمضايقته. وشريكُهُ سينتيس، الطفيليُّ الخبيثُ والحسود. قدَّمَ معلوماتٍ كاذبةً لتوريط ميخائيل بأعمالٍ قذرةٍ لم يكن يعلم عنها أيَّ شيء. كان طامعًا في انتزاع إدارة الشركة منه. وهو واحدٌ من قطيعٍ كبير. إذ أراد له الجميعُ أن يسقطَ من على المنصَّة لكي يلتهموا ما تبقَّى منه. فتحوَّلَ جيشُ المنافقين والفجرة إلى قطيع ضباعٍ جائعة. لم يتفاجأ ميخائيل بشيءٍ من هذا كلِّه. فلقد وضع منذ البداية كاملَ ثقته في شيلي ولويس كلاريت. «خبثُ البشر فتيلٌ يبحث عن شرارة» كان يُردِّدُ على الدوام. لكنَّ مسلسلَ الغدر ذاك قطع في النهاية رابطَةُ الهشَّ الذي كان قد أبقاه مع العالَم الخارجيّ. فالتجأ إلى متاهة عزلته وبدأ يتصرَّفُ بأغرب الطُّرُق. اعتاد أن يُربِّي في الأقبية عشراتِ العيِّنات من حشرةٍ يلهج بها كثيرًا: فراشةٌ سوداء معروفةٌ بتسمية «*Teufel*». وسرعان ما استولت الفراشاتُ السوداءُ على البرج. كانت تحطُّ على المرايا، على اللوحات والأثاث، كأنَّها رقيبٌ صامت. حرَّمَ

ميخائيل على الخدم قتلَها، أو إفزاعَها، أو حتّى الاقترابَ منها. فاستطاع سربُ الحشرات ذات الأجنحة السوداء أن يحومَ بحرّيّةٍ بين الممرَّات والصالات. وكانت تحطُّ على ميخائيل أحيانًا، وتُغطّيه من رأسه إلى قدميه، في حين يظلُّ ثابتًا. وكلَّما رأيتُهُ بتلك الحالة خشيتُ أن أخسرَهُ إلى الأبد.

نشأت صداقتي مع لويس كلاريت في تلك الأيّام، وما زالت مستمرَّةً حتّى هذا اليوم. أحاطني لويس علمًا بما كان يقع خلف أسوار ذلك الحصن. إذ لم يخبرني ميخائيل إلّا بالأكاذيب بخصوص المسرح الملكيّ وعودتي إلى الحفلات. كان يُحدِّثني عن إصلاح ما أفسده الأسيد، وعن الغناء بصوتٍ لم يعد لي... خرافات. أوضح لي لويس أنَّ أعمالَ ترميم المسرح الملكيّ قد أُرجِئت. الأموال نفدت قبل شهور. وبات المبنى كهفًا كبيرًا بلا أيّ فائدة... ولم تكن سكينةُ ميخائيل الظاهرةُ سوى واجهة. إذ كان يُمضي الأسابيعَ والأشهرَ دون أن يخرجَ من البيت. ينحبس في مكتبه أيّامًا بأسرها، بلا نوم أو طعام. خشي جون شيلي على صحَّته، وقد اعترف لي بذلك لاحقًا، لاسيّما صحَّته الذهنيَّة. كان يعرفه أكثر من أيّ شخصٍ آخر، وساعده في تجاربه منذ البداية. وحدَّثني بوضوحٍ عن هوس ميخائيل بالأمراض التنكُّسيَّة، ومحاولاته اليائسة لاكتشاف الآليَّات التي تعتمدها الطبيعةُ لتشويه الأجساد وإعاقة نموِّها. إذ كان يرى أنَّ الأجسادَ تكتنز طاقةً، ونظامًا، وإرادةً، تفوق كلَّ منطق. فالطبيعةُ بالنسبة إليه وحشٌ يلتهم مخلوقاته نفسها، عديمُ الحساسيَّة تجاه مصائر وحظوظ الكائنات التي تعيش في كنفه. كان يجمع صورًا نادرة لحالات

ضمورٍ وظواهر طبّيّةٍ أخرى. وكان يرجو أن يعثر في تلك الكائنات البشريّة على إجابةٍ عن سؤاله: كيف يتحايل على شياطينه؟

وحينئذٍ، ظهرت الأعراضُ الأولى للداء. كان ميخائيل يعلم أنّه يحمله في داخله، مُترقِّبًا بفارغ الصبر كآليّة ساعة. يعلم ذلك منذ وقتٍ طويل، منذ أن رأى موتَ شقيقه في براغ. بدأ جسده يُدمِّرُ نفسه ذاتيًّا. وعظامُهُ تتفكّك. ولطالما أخفى ميخائيل يديه بقفّاز. وبات يُخفي وجهَهُ وجسمَه. ويتهرَّبُ من ملاقاتي. وكنتُ أتظاهر بعدم الانتباه إلى ذلك، ولكنَّ مظهرَهُ تغيَّرَ فعلًا. أيقظتني صرخاتُهُ ذات يومٍ شتويّ، عند الفجر. كان ميخائيل يُوبِّخُ الخدمَ ويُسرِّحهم. فانصرفوا جميعًا، لأنّهم صاروا يخافون منه في الأشهر الأخيرة. وحدَهُ لويس رفض أن يتركنا. بكى ميخائيل من الغضب، وهشَّمَ كلَّ مرايا البيت وهُرِعَ لينغلقَ في مكتبه.

وفي إحدى الليالي، أرسلتُ لويس للمجيء بالدكتور شيلي. فميخائيل لم يخرج منذ أسبوعين، ولم يُجِبْ على نداءاتي. كنتُ أشعر أنّه يجهش بكاءً خلف باب مكتبه، ويُكلِّمُ نفسه... فاحترتُ فيما ينبغي فعله. كنّا نخسره وهو بيننا. فحطَّمنا البابَ بمساعدة شيلي ولويس، واستطعنا أن نُخرِجَهُ. كان ميخائيل قد أجرى عمليّةً جراحيّةً بجسده، محاولًا إعادة بناء يده اليسرى، التي كانت تتحوَّلُ إلى مخلبٍ رهيبٍ غير صالحٍ للاستعمال. أعطاه شيلي دواءً مُهدِّئًا وسهرنا على نومه حتّى الفجر. وفي خضمّ تلك الليلة الطويلة، حزن شيلي على معاناة صديقه القديم، وأفرغ ما عنده ناكثًا بوعده بألّا يبوح لأحدٍ بالحكاية التي ائتمنه عليها ميخائيل قبل سنواتٍ بعيدة. وحين انتهى أدركتُ أنَّ المُفتِّشَ

فلوريان المسكين، ومعه الشرطةُ كلُّها، لم يخطر بباله أنَّه يطارد شبحًا. لم يكن ميخائيل مجرمًا أو محتالًا على الإطلاق. كان مُجرَّدَ رجلٍ موقنٍ بأنَّ مصيره يتمثَّلُ في التحايل على الموت قبل أن يتحايلَ الموتُ عليه.

*

وُلِدَ ميخائيل كولڤينيك في مجارير براغ في آخر يومٍ من القرن التاسع عشر.

كانت أمُّهُ تعمل خادمةً لدى عائلةٍ من الطبقة النبيلة، ولم تتمَّ سبعة عشر عامًا بعد. وسرعان ما جعلها جمالُها وسذاجتُها مُفضَّلةً لدى سيِّدها. وحين اكتُشِفَ أنَّها حامل، طُرِدَت ككلبٍ أجرب، ووجدت نفسها على قارعة الطريق، وسط الثلج والأوساخ. وكان لهذا أثرٌ عليها استمرَّ مدى الحياة. ففي تلك السنوات، كان الشتاءُ يكتسح الطرقات برداء الموت. وقيل إنَّ المحرومين يلتجئون إلى أنفاق الصرف الصحّيّ القديمة. وكانت الأسطورةُ المحلّيَّةُ تروي عن وجود مدينةٍ قائمةٍ بحدّ ذاتها تحت الأرض، يقضي فيها آلافُ المُهمَّشين حياتهم دون أن يروا ضوءَ الشمس. شحَّاذون، مرضى، أيتام، فارُّون. انتشر بينهم مُعتَقَدٌ حول شخصيَّةٍ عجائبيَّة تُدعى «أمير المُتسوِّلين». قيل إنَّه ليس لديه عُمر، وأنَّ وجهَهُ ملائكيٌّ ونظراته ناريَّة، وأنَّه يعيش مُتدثِّرًا برداءٍ من فراشاتٍ سوداء. وأنَّه يُدخِلُ في ملكوته كلَّ الذين حرمتهم قسوةُ الحياة من إمكانيَّة البقاء على السطح. فلاذت الفتاةُ في الأنفاق، بحثًا عن عالَم الظلال ذاك. وما لبثت أن اكتشفت

صدقَ الأسطورة. يعيش الناسُ في الظلمات ويُشكِّلون عالَمًا منعزلًا، تحكمهم قوانين خاصَّة، ويعبدون إلهًا واحدًا: أمير المُتسوِّلين. لم يره أحدٌ قطّ، لكنَّ الجميعَ يؤمن به، ويُقدِّمون القرابين على شرفه. وكانوا يوشمون بالنار على جلودهم وسمَ الفراشة السوداء. فالنبوءةُ تفيد بأنَّ الأنفاقَ ستشهد ظهورَ مسيّا مُرسَلٍ من أمير المُتسوِّلين يومًا مّا، وأنَّه سيُضحِّي بحياته ليُخلِّصَ ساكني المجارير من معاناتهم. غير أنَّ هذا المُخلِّصَ سيُدمِّرُ نفسَهُ بيديه.

وهناك أنجبت الأمُّ الشابَّةُ توأمها: أندريه وميخائيل. جاء أندريه إلى الدنيا سقيمًا بمرضٍ رهيب. لم تكن عظامُهُ تتصلَّب، وكان جسمُهُ ينمو مُشوَّهًا منعدمَ البنية. وكان أحدُ ساكني الأنفاق طبيبًا مُلاحَقًا من قِبَل العدالة، فأوضح للفتاة أنَّ هذا المرضَ لا علاج له. موتُ أندريه مسألة وقت. في حين كان شقيقُهُ ميخائيل ولدًا مُتَّقِدَ الذكاء، انطوائيَّ الطباع، يحلم بمغادرة الأنفاق والطلوع على السطح. وغالبًا ما كان يتخيَّلُ أنَّه المسيَّا المُنتَظَر. وبما أنَّه لم يعرف أباه، نسبت مُخيِّلتُهُ ذلك الدورَ إلى أمير المُتسوِّلين، وكان يعتقد أنَّه يسمع صوتَهُ في المنام. لم تظهر عليه علاماتُ المرض الرهيب الذي سينهي حياةَ شقيقه. وبالفعل، توفِّيَ أندريه في ربيعه السابع دون أن يخرجَ يومًا من الصرف الصحّيّ. ووُضِعَ جسمُهُ في القنوات الباطنيَّة، فهذه كانت طقوسُ أهل الأنفاق. سأل ميخائيل والدتَهُ عن سبب وقوع أمرٍ كهذا.

«إنَّها مشيئةُ اللّه يا ميخائيل» أجابته.

ما كان ميخائيل لينسى تلك الكلمات. تلقَّت أمُّهُ وفاةَ أندريه

الصغير كصدمةٍ لم تتمكَّن من تجاوزها. أُصيبَت بذات الرئة في الشتاء اللاحق. وظلَّ ميخائيل إلى جانبها حتّى النزع الأخير، يشدُّ على يدها المرتجفة. كان عمرُها ستّةً وعشرين عامًا، لكنَّ وجهَها وجهُ امرأةٍ عجوز.

«أهذه مشيئةُ اللّه يا أمَّاه؟» سأل ميخائيل ذلك الجسدَ الهامد.

لم يلقَ جوابًا. وبعد ذلك بأيَّام، طلع ميخائيل الفتى على السطح. لم يعد هناك ما يربطه بعالَم ما تحت الأرض. كاد يموت جوعًا وبردًا، فراح يبحث عن مأوى في بهو بناية. وشاء القدرُ أن يصادفَ طبيبًا، اسمه أنطونين كولڤينيك، عائدًا من زيارةٍ لأحد مرضاه. فأخذه إلى مقصفٍ وجلب له طبقًا ساخنًا.

«ما اسمك يا فتى؟»

«ميخائيل، يا سيِّدي».

شحب وجهُ أنطونين كولڤينيك.

«كان لديَّ ولدٌ يحمل اسمَك نفسه. ولقد مات. أين عائلتك؟»

«ليس لديَّ عائلة».

«وأمُّك؟»

«أخذها الربّ».

أومأ الطبيبُ بملامح جادَّة. أمسك حقيبتَهُ وأخرج منها أداةً غريبةً أذهلت ميخائيل. وهناك أدواتٌ أخرى في الحقيبة. لامعة. مدهشة.

وضع الطبيبُ تلك الأداةَ على صدر الصبيّ وأدخل طرفيها في أذنيه.

«ما هذه؟»

«هذه تفيدني لسماع ما الذي تقوله رئتاك... خذ نفسًا طويلًا».

«هل حضرتك ساحر؟» سأله ميخائيل مُتعجِّبًا.

ابتسم الطبيب.

«لا، لستُ بساحر. أنا مُجرَّد طبيب».

«وما الفرق؟»

كان أنطونين كولڤينيك قد فقد زوجتَهُ وابنَهُ قبل أعوام، جرَّاء وباء الكوليرا. وكان يعيش وحيدًا آنذاك، ويعمل في عيادةٍ جراحيَّةٍ متواضعة، ولديه ولعٌ عظيمٌ بمؤلَّفات فاغنر. رمق ذلك الفتى ذا الثياب البالية بفضولٍ وتعاطف. فارتسمت على وجه ميخائيل واحدةٌ من ابتساماته التي لا تُقاوَم.

قرَّرَ الطبيبُ أنطونين كولڤينيك أن يضعَ الطفلَ تحت رعايته، وأن يصحبَهُ إلى البيت حيث أمضى ميخائيل سنواته العشر اللاحقة. تلقَّى من الطبيب تعليمًا وسقفًا واسمًا. وكان ما يزال مراهقًا حين بدأ يرافق أباه المُتبنِّي في عمليَّاته، ويكتشف الجسدَ البشريّ. كانت مشيئةُ اللّه الغامضةُ تتجلَّى في بُنىً مُعقَّدةٍ من لحمٍ وعظم، تنبض ببريقٍ سحرٍ مُبهَم. وكان ميخائيل يتشرَّبُ تلك الدروس، واثقًا من أنَّ العِلمَ الطبّيَّ رسالةٌ تنتظر أن تُقرَأ.

ولم يتمَّ عامَه العشرين حتّى زاره الموتُ مرَّةً أخرى. كانت صحَّةُ الطبيب في حالةٍ حرجة منذ زمن. تعرَّضَ لنوبةٍ قلبيَّةٍ عشيَّة الميلاد بينما كانا يُخطِّطان لرحلةٍ إلى مناطق جنوب أوروبا، لم

يكن ميخائيل يعرفها. كان أنطونين كولڤينيك يُحتَضَر. فأقسم ميخائيل أنَّه لن يتركَ الموتَ يسلبه منه.

«قلبي متعبٌ يا ميخائيل. حان الوقتُ لملاقاة زوجتي فريدا، وابني ميخائيل الأوَّل...» قال الطبيب.

«سأعطيك قلبًا آخر يا أبتاه».

ابتسم الطبيبُ. يا لهذا الفتى وأفكاره الغرائبيَّة... السببُ الوحيدُ الذي جعله يخشى الرحيلَ عن هذه الدنيا هو ترك ميخائيل وحيدًا ومُستَضعَفًا. ليس لميخائيل أصدقاء سوى الكتب. فما الذي سيحلُّ به؟

«لقد أعطيتني صحبةً جميلةً طوال عشرة أعوام يا ميخائيل. والآن عليك أن تُفكِّرَ في نفسك. في مستقبلك» قال له.

«لن أتركك تموت».

«ميخائيل، هل تذكر يومَ سألتَني عن الفرق بين الساحر والطبيب؟ حسنًا، اعلَمْ أن ليس للسحر وجودًا. يبدأ جسدُنا بالموت تمامًا في اللحظة التي نولد فيها. نحن مخلوقاتٌ هشَّة. مخلوقاتٌ فانية. لا يبقى منّا سوى أفعالنا، الخير أو الشرّ الذي نُلحِقُهُ بإخواننا في الإنسانيَّة. هل تعي ما أقوله يا ميخائيل؟»

وبعد عشرة أيَّام، عثرت الشرطةُ على الفتى، مُلطَّخًا بالدماء، يبكي بجانب جثَّة الرجل الذي اعتاد أن يناديه «أبي». أبلغ الجيرانُ السلطاتِ بعد أن شمُّوا رائحةً غريبةً وسمعوا صياحَ الفتى. وخلص تقريرُ الشرطة إلى أنَّ ميخائيل، وقد صُدِمَ بموت الطبيب، فتح له صدره محاولًا أن يعيدَ بناءَ قلبه بجهازٍ مُزوَّدٍ بصمامات ومُسنَّنات. لذا نُقِلَ ميخائيل إلى مستشفى الأمراض

النفسيَّة ببراغ، الذي هرب منه بعد سنتين متظاهرًا بأنَّه مات. وحين ذهبت الجهاتُ المعنيَّةُ إلى المشرحة لم تجد سوى غطاءٍ أبيض تحوم حوله فراشاتٌ سوداء.

وصل ميخائيل إلى برشلونة حاملًا معه بذورَ الجنون والشرّ الذي سيتجلَّى بعد أعوام. كان يُبدي اهتمامًا ضحلًا بالأشياء المادّيَّة ورفقة الناس. لم يتباهَ يومًا بالثروات الهائلة التي راكمها. ولطالما قال أنْ لا أحد يستحقُّ أن يملكَ فلسًا واحدًا أكثر ممَّن هو مستعدٌّ لإعطائه للأحوج إليه. وفي الليلة التي تُعرَّفتُ فيها عليه، قال لي إنَّ الحياةَ، لسببٍ مّا، تمنحنا ما لا نبحث عنه. فقد سمحت له بتأسيس ثروةٍ وشهرةٍ ونفوذ، في حين لم يكن يرجو إلّا سلامَ الروح والقدرةَ على إسكات الظلال التي تُعذِّبُ قلبه...

*

في الأشهر اللاحقة لما وقع في المكتب، اتَّفقنا أنا وشيلي ولويس على إلهاء ميخائيل وإبعاده عن وساوسه. ولم يكن هذا بالأمر الهيِّن. يدرك ميخائيل سريعًا أنَّنا نكذب عليه، حتّى لو لم يُبيِّن ذلك. إذ كان يُسايِرُ التيَّارَ، ويتصنَّعُ الانقياد، ويتظاهر بالتسليم بمرضه... لكنّي حين أنظر في عينيه، ألمح الظلامَ الذي يفيض بروحه. لم يعد يثق بنا. هذا وقد ازدادت أحوالُنا المتردِّية سوءًا. حظرت المصارفُ حساباتنا الجارية، وصادرت الحكومةُ أصولَ شركة البيلو-غراني. وظنَّ سينتيس أنَّه بألاعيبه سينجح في أن يصبحَ المالكَ الوحيد للشركة، فإذا هو ينتهي في

الحضيض. ولم يُحصِّل سوى شقَّة ميخائيل القديمة بشارع البرنسيسة. أمّا نحن، فقد حافظنا على الأملاك التي سجَّلها ميخائيل باسمي: المسرحُ الملكيُّ الكبير؛ هذا القبرُ غير المفيد الذي لجأتُ إليه، والدفيئة المجاورة لخطوط الحديد في ساريّا، التي استخدمها ميخائيل ورشةً لتجاربه في الماضي.

اضطرَّ لويس إلى بيع جواهري وأزيائي لأفضل مُشترٍ، لكي نعيش. فأمسى مهرُ زفافي، الذي لم أستخدمه يومًا، مصدرَ رزقنا الوحيد. وكنّا أنا وميخائيل نادرًا ما نتجاذب أطرافَ الحديث. أصبح يجوب القصر كالشبح، وتزداد تشوُّهاتُهُ. لم تعد يداه قادرتين على حمل كتاب. وعيناه تساعدانه بالكاد على القراءة. لم أعد أسمعه يبكي. إنّما صار يضحك. وكانت ضحكتُهُ المريرةُ تُجمِّدُ دمائي في قلب الليل. وكان بأصابعه الضامرة، يكتب على دفترٍ بخطٍّ غير مفهوم، بلا هوادة، صفحاتٍ وصفحاتٍ مُبهَمَة المحتوى. وكلَّما جاء الدكتور شيلي لزيارته، انغلق ميخائيل على نفسه في المكتب، ولا يخرج إلّا عندما ينصرف صديقُهُ. بحتُ للطبيب بمخاوفي من أنَّ ميخائيل يُفكِّرُ في إنهاء حياته. فاعترف لي شيلي بأنَّه يخشى ما هو أسوأ. فلم أفهم قصدَه، ولم أشأ أن أفهمَه.

وكنتُ ألهج بفكرةٍ عبثيَّةٍ تراودني منذ زمن. أحسستُ أنَّها ستساعدني على إنقاذ ميخائيل وإنقاذ زواجنا. قرَّرتُ أن أنجبَ طفلًا. كنتُ على قناعةٍ بأنَّ ميخائيل، إذا استطعتُ أن أهبَهُ ولدًا، كان سيجد سببًا ليعيشَ وليعودَ إلى جانبي. سلَّمتُ أمري لذلك الوهم. كان جسدي مُتلهِّفًا ليحبلَ بمخلوقٍ يضمن النجاة

والرجاء. وكنتُ أحلم أنَّني أُرضِعُ ميخائيل الصغير، النقيَّ والبريء. وكم تمنَّى قلبي أن يحظى بنسخةٍ أخرى عن ذلك الأب، شرط أن تكونَ حرَّةً من كلّ الشرور. فتوجَّبَ عليَّ أن أُدبِّرَ الأمرَ بحيث لا يشكُّ فيه ميخائيل، وإلّا كان سيرفض. فمُجرَّد العثور على لحظةٍ أبقى فيها وحدي معه بسلام كانت مهمَّةً شاقَّة. لأنَّه كان يتحاشاني، كما أوردتُ سابقًا. أشعره تشوُّهُهُ بالحرج في حضوري. وقد أثَّرَ المرضُ على نطقه. صار يتلعثم، مُحتَقِنًا بالغضب والخزي. لم يعد يهضم إلّا السوائل. فكم جاهدتُ ليستوعبَ أنَّني لا أشمئزُّ منه، وألَّا وجودَ لمن هو أفضل منّي في التفاهم معه وتقاسم معاناته، لكنَّ جهودي بدت أنَّها تفاقم الوضعَ سوءًا. تحلَّيتُ بالصبر، وتوهَّمتُ أنَّني استطعتُ خداعه، لمرَّةٍ واحدةٍ في الحياة. وكان ذلك أسوأ أخطائي.

حين أنبأتُ ميخائيل بأنَّنا سنُرزَق بطفل، أرعبتني ردَّةُ فعله. اختفى طوال شهرٍ تقريبًا. وجده لويس في الدفيئة القديمة بساريًا، في حالة إغماء. كان قد عمل دون انقطاعٍ ليعيدَ بناءَ حنجرته وفمه. إذ صار مظهرُهُ وحشيًّا. تزوَّدَ بصوتٍ عميق، حديديٍّ وحاقد. وتميزَّ فكَّاه بأنيابٍ حديديَّة. ولم يعد من الممكن التعرُّفُ على وجهه، باستثناء عينيه. وخلف هذا الرعب، كانت روحُ ميخائيل التي كنتُ ما أزال أعشقها تحترق في جحيمه نفسها. عثر لويس على مجموعةٍ من الآلات ومئات التصاميم، بجانب جسده. فطلبتُ من شيلي أن يلقي نظرةً عليها خلسةً، بينما كان ميخائيل يستعيد قواه، بفضل نومةٍ طويلةٍ دامت ثلاثة أيَّام. فأدلى شيلي باستنتاجاتٍ كابوسيَّة. فَقَدَ ميخائيل عقلَهُ كلّيًّا. كان يُخطِّطُ

لإعادة بناء نفسه من رأسه إلى قدميه، قبل أن يبيدَهُ المرضُ إبادةً تامَّة. فأودعناه في أعلى البرج، بزنزانةٍ لا سبيلَ للهروب منها. وأنجبتُ ابنتنا فيما تناهت إلى مسمعي صرخاتُ زوجي الوحشيَّة، المحبوس في قفصٍ كأنَّه حيوانٌ كاسر. فلم أُبقِ الطفلةَ يومًا واحدًا معي. أخذها الدكتور شيلي معه وتعهَّدَ بأنَّه سيُربِّيها كما لو كانت ابنته. وسمَّاها ماريّا، وأصبحت مثلي لا تعرف مَن هي أمُّها الحقيقيَّة. تبدَّد آخرُ ما بقي في قلبي من حياةٍ معها، ولكن لم يكن عندي خيار، وكنتُ على عِلمٍ بهذا. إنَّ المأساةَ الوشيكةَ تُشَمُّ في الهواء. كنتُ أستطيع شمَّها كما لو أنَّها سمّ. مسألةُ وقتٍ لا أكثر. وكالعادة، جاءت الضربةُ القاضيةُ من حيث لا نتوقَّع.

*

كان بنخامين سينتيس، الذي صار في الحضيض بسبب طمعه وجشعه، كان في الأثناء يُدبِّرُ انتقامَه. وقد حامت حوله الشكوكُ من قبل بأنَّه ساعد سيرغي على الهرب بعد أنَّ شوَّهني عند أعتاب الكاتدرائيَّة. ومثلما ورد في النبوءة المشؤومة على لسان أهل الأنفاق، استخدم اليدين اللتين صنعهما له ميخائيل قبل سنوات لينسجَ بهما مكيدةَ الخيانة. ظهر بنخامين سينتيس ثانيةً في الليلة الأخيرة من عام ١٩٤٨، ليغرسَ الطعنةَ الغادرةَ والنهائيَّةَ في ظهر ميخائيل، الذي كان حاقدًا عليه أشدَّ الحقد.

وفي تلك السنوات الأخيرة، عاش وصِيَّاي السابقان، سيرغي وتاتيانا، في الخفاء. وكانا مُتلهِّفين هما أيضًا للانتقام. وقد حانت الساعة. عَلِمَ سينتيس أنَّ فرقة المُفتِّش فلوريان قرَّرت

أن تداهمَ القصرَ في منتزه غويل، في اليوم اللاحق، بحثًا عن الأدلَّة المزعومة بحقّ ميخائيل. فإذا نفَّذَت الشرطةُ أمرَ التفتيش، طفت أكاذيبُهُ وأنشطتُهُ المشبوهةُ على السطح. لذا أفرغ سيرغي وتاتيانا، قُبَيلَ منتصف النهار، عدَّةَ تنكاتٍ من البنزين حول بيتنا. تفرَّجَ سينتيس، بجبنه المعهود، على تصاعد ألسنة اللهب الأولى من البعيد، مختبئًا بسيَّارته، ثمَّ اختفى.

وحين صحوتُ، كان الدخانُ الكثيفُ يصعد السلالم. انتشرت النيرانُ بغضون دقائق. فسحبني لويس من الغرفة واستطعنا أن ننجو بالقفز من إحدى الشرفات إلى سقيفة المرأب، ومن هناك إلى الحديقة. التفتنا لنشاهد: السعيرُ يُحكِمُ قبضتَهُ على الطابقين السفليَّين ويصعد نحو البرج الذي حَبَسْنا فيه ميخائيل. أردتُ أن أُهرَعَ لإنقاذه، لكنَّ لويس تجاهل صرخاتي ولكماتي، وأبقاني بين ذراعيه. وانتبهنا حينذاك لوجود سيرغي وتاتيانا. كان سيرغي يقهقه كالمجنون، وتاتيانا ترتجف صامتةً، تفوح من يديها رائحةُ البنزين. أذكر ما جرى بعدئذٍ كأنَّه رؤيةٌ كابوسيَّة. بلغت النيرانُ قمَّةَ البرج. انفجرت النوافذُ وتطايرت شظايا الزجاج. وظهر طيفٌ من النار على حين غرَّة. ظننتُ أنّي أرى ملاكًا أسود يثب على الجدران. ميخائيل. كان يتحرَّكُ كعنكبوتٍ على الحيطان التي يتشبَّثُ بها بمخالبه المعدنيَّة التي ركَّبَها لنفسه، ويتنقَّلُ بسرعةٍ مذهلة. نظر إليه سيرغي وتاتيانا باندهاش، ولم يفهما ما الذي يحدث. انقضَّ الظلُّ عليهما، وجرَّهما إلى الداخل بقوَّةٍ تفوق طاقةَ البشر. وما إن رأيتُهما يختفيان في تلك الجحيم، حتّى فقدتُ وعيي.

حملني لويس إلى الملجأ الوحيد الذي تبقّى لنا، أنقاض المسرح الملكيّ الكبير. صار بيتَنا حتّى يومنا هذا. وفي اليوم التالي، أعلنت الصحفُ عن المأساة. عُثِرَ على جسدين مُتفحِّمين ومُتعانِقين في العُلِّيَّة. استنتجت الشرطةُ أنَّهما جسدي وجسد ميخائيل. لا أحد غيرنا يعلم أنَّهما سيرغي وتاتيانا. لم يُعثَر على جسدٍ ثالث. وفي اليوم نفسه، ذهب شيلي ولويس إلى الدفيئة في ساريّا بحثًا عن ميخائيل. فلم يجدا أيَّ أثرٍ له. كان التحوُّلُ يوشك على الاكتمال. فجمع شيلي كلَّ أوراقه، ومُخطَّطاته، وملاحظاته بحيث لم يترك أيَّ دليل. وحلَّلَها طوال أسابيع، مؤملًا أن تدلَّهُ على المفتاح الذي قد يساعدنا في تحديد موقع ميخائيل. كنّا نعلم أنَّه مختبئٌ في مكانٍ مّا من المدينة، ينتظر اكتمالَ تحوُّله. وبفضل تحليله المُعمَّق، فهم شيلي خطَّةَ ميخائيل. إذ كان في دفاتره يتحدَّثُ عن مصلٍ مصنوعٍ من خلاصة الفراشات التي ربَّاها لسنوات، المصل الذي رأيتُهُ يستخدمه لإحياء جثَّة امرأةٍ في معمل البيلو-غراني. أدركتُ ما الذي يدور في ذهنه عندئذ. كان ميخائيل قد اختفى لكي يموت. كان يحتاج إلى التخلُّص من آخر أنفاسه البشريَّة ليُنفِّذَ القفزةَ الكبرى. مثل الفراشة السوداء، سيدفن جسده ليولدَ من جديدٍ من رحم الظلمات. وعندما سيعود، لن يكونَ هو ميخائيل كولڤينيك. بل سيكون وحشًا حقيقيًّا.

*

دوَّت كلماتُها كالصدى في المسرح الكبير.

- لم تردنا أخبارٌ عن ميخائيل طوال أشهر، ولم نستطع

العثورَ على مخبأه. - تابعت إيڤا إيرينوڤا - كنّا نأمل أن تفشلَ خطَّتُه. وكنّا مخطئين. فبعد عام على الحريق، ذهب مُفتِّشان إلى البيلو-غراني، بعد أن وردتهم إخباريَّةٌ مجهولةُ المصدر. سينتيس مرَّةً أخرى، بطبيعة الحال. فحين لم ترده أخبارٌ عن سيرغي وتاتيانا، فكَّرَ أنَّ ميخائيل ما يزال على قيد الحياة. كانت مَرَافِقُ المعمل موصدةً بالشمع الأحمر، وليست متاحةً لأحد. فاجأ المُفتِّشان دخيلًا هناك، وأطلقا عليه النار. أفرغا مخزنهما عليه ولكن...

- لهذا لم يعثروا على الطلقات البتّة. - قلتُ مُتذكِّرًا كلمات فلوريان - امتصَّ جسدُ كولڤينيك الرصاص...

أومأت السيِّدةُ العجوز.

- عُثِرَ على جثَّتي الضابطين مُقطَّعتين إربًا. - قالت - أخفق الجميعُ بتفسير ما حصل، باستثناء شيلي ولويس وأنا. لقد عاد ميخائيل. وفي الأيَّام اللاحقة، حصد الموتُ كلَّ أعضاء مجلس إدارة البيلو-غراني القديم الذين غدروا به. ماتوا في ظروفٍ غامضة. توقَّعنا أن يختبئَ ميخائيل في مجارير الصرف، وأنَّه يستخدم الأنفاقَ الباطنيَّةَ لتنقُّلاته في المدينة. كان ذاك عالَمًا مألوفًا بالنسبة إليه. وبذا يتبقَّى سؤالٌ واحد. لأيّ سببٍ عاد إلى المعمل؟ تمدُّنا ملاحظاتُهُ بالجواب مرَّةً أخرى: المصل. كان في حاجةٍ إلى حقن نفسه بالمصل ليبقى حيًّا. فلقد خسر احتياطيَّهُ في البرج، ولا شكَّ أنَّ الجرعاتِ التي حفظها في الدفيئة قد نفدت. رشى الدكتور شيلي ضابطًا في الشرطة ليتسنَّى لنا دخول المعمل. وهناك وجدنا خزانةً تحتوي على آخر قارورتين من المصل.

اختلس شيلي واحدةً منها. فبعد حياةٍ طويلةٍ أمضاها في نضالٍ ضدَّ الأمراض والموت والألم، عزَّت عليه نفسُهُ أن يتخلَّصَ من ذلك السائل. كان ينبغي له أن يدرسَه، وأن يكشفَ أسرارَه... فحلَّلَهُ ونجح في توليف مادَّةٍ قائمةٍ على الزئبق يهدف بها لإبطال مفعول السائل. ملأ اثنتي عشرة طلقةً بهذه المادَّة واحتفظ بها، على أمل ألّا يُضطَّرَ إلى استخدامها.

فهمتُ أنَّها الطلقاتُ نفسها التي رأيتُ شيلي يُسلِّمُها للويس كلاريت. كنتُ على قيد الحياة بفضلها.

- وميخائيل؟ - سألتْ مارينا - من دون المصل...

- وجدنا جثَّتَه في أحد مجارير الحيّ القوطيّ. - قالت إيڤا إيرينوڤا - أو ما تبقَّى منه على الأقلّ، لأنَّه تحوَّلَ إلى وحشٍ جهنَّميٍّ تنبعث منه رائحةُ الجيفة المُتفسِّخة التي استخدمها لإعادة بناء جسده...

رفعت العجوزُ أبصارها نحو صديقها القديم لويس. أخذ السائقُ الكلمةَ ليُكمِلَ الحكاية.

- دفنَّا الجسدَ في مقبرة ساريّا، في قبرٍ مجهول الهويَّة. - أوضح - السيِّد كولڤينيك ميِّتٌ رسميًّا منذ عام. ولم نستطع كشفَ الحقيقة. لو اكتشف سينتيس أنَّ السيِّدةَ حيَّة، لما قرَّت له عينٌ حتّى قتلها. وهكذا اضطررنا إلى أن نعيشَ حياةً سرّيَّةً في هذا المكان...

- ظننتُ طوال سنوات أنَّ ميخائيل يرقد بسلام. وكنتُ أذهب لزيارة قبره في آخر يوم أحدٍ من كلّ شهر، اليوم الذي عرفتُهُ فيه، لكي أُذكِّرَهُ بأنَّنا سنكون معًا من جديد، قريبًا، قريبًا

جدًّا... كنّا نعيش في عالَم الذكريات، ومع هذا نسينا أمرًا جوهريًّا...

- ما هو؟ - سألتُ.

- ماريّا، ابنتنا.

تبادلنا أنا ومارينا نظرة. تذكَّرتُ أنَّ شيلي ألقى في النار الصورةَ التي عرضناها عليه. الطفلةُ التي تظهر في الصورة هي ماريّا شيلي. فحين أخذنا الألبومَ من الدفيئة، حرمنا بذلك ميخائيل من الذكرى الوحيدة الموجودة لديه عن ابنته التي لم يعرفها.

*

- ربَّى شيلي ماريّا كأنَّها ابنته، لكنَّها أحسَّت دائمًا بأنَّ الحكايةَ التي قصَّها عليها ليست حقيقة، وأنَّ أمَّها لم تمت وهي تُنجِبها... شيلي لا يعرف الكذب. ومع مرور الوقت، وجدت ماريّا دفاترَ ميخائيل في مكتب الطبيب وأعادت بناءَ الحكاية التي قصصتُها عليكما. ورثت ماريّا جنونَ أبيها. أذكر أنَّ ميخائيل ابتسم حين بحتُ له بأنّي حامل. غمرت تلك الابتسامةُ قلبي بالقلق، مع أنّي لم أفهم السببَ في حينها. ثمَّ بعد سنوات، وأنا أُقلِّبُ في دفاتر ميخائيل، اكتشفتُ أنَّ الفراشةَ السوداء، التي تعيش في مجارير الصرف، تتغذَّى على أبنائها، وأنَّها حين تدفن نفسها لتموت، تحمل معها إحدى يرقاتها، التي تلتهمها لاحقًا عندما تولد ثانيةً... بينما كنتما تكتشفان الدفيئة، بعد اللحاق بي من مخرج المقبرة، وجدت ماريّا في النهاية ما كانت تبحث عنه

منذ أعوام. قارورةُ المصل التي خبَّأها شيلي... وبعد ثلاثين عامًا، عاد ميخائيل من الموت. وهو يتغذَّى على ابنته منذئذٍ، معتمدًا على أشلاء أجسادٍ أخرى لإعادة بناء جسده، ومُكتَسِبًا قوَّةً هائلة، بخلق كائناتٍ أخرى على شاكلته...

مضغتُ ريقي إذ تذكَّرتُ ما رأيتُهُ في الليلة السابقة داخل الأنفاق.

- وحين فهمتُ ما الذي كان يحدث، أردتُ أن أحمي سينتيس. - تابعت المرأة - لابدَّ أنَّه الضحيَّةُ الأولى. فعوَّلتُ عليك يا أوسكار، بتوصيل تلك البطاقة إليك، لكي لا تنكشفَ هويَّتي. فكَّرتُ أنَّ الخوفَ سيدفعه لتوخّي الحذر إذا رأى البطاقة وسمع ما تعرفانه على قلَّته. بالغتُ في تقدير ذلك المُسنّ الخبيث مرَّةً أخرى... قرَّرَ أن يواجه ميخائيل ويقضي عليه. وبسقوطه، جرَّ معه فلوريان... ذهب لويس إلى المقبرة وتحقَّقَ من أنَّ القبرَ فارغ. شككنا في البدء أنَّ شيلي غدر بنا. ظننّا أنَّه هو الذي ذهب إلى الدفيئة ليصنعَ مخلوقاتٍ جديدة... ربّما لم يشأ أن يموتَ قبل أن يكتشفَ الأسرارَ التي تركها ميخائيل غامضةً وعصيَّةً على الحلّ... لم نثق به تمامَ الثقة يومًا. وعندما أدركنا أنَّه كان يحمي ماريّا، فات الأوان... سيأتي ميخائيل الآن ليقابلنا.

- لماذا؟ - سألتْ مارينا - لماذا قد يأتي ليقابلكما؟

فكَّت السيِّدةُ أوَّلَ زرَّين من ثوبها بصمت، وأخرجت سلسلةً تتدلَّى منها قارورةٌ زجاجيَّةٌ يلتمع فيها سائلٌ زمرُّديّ.

- من أجل هذه.

٢٤

كنتُ أتأمَّلُ قارورةَ المصل بانعكاس الضوء حين سمعتُهم. وقد سمعتْهم مارينا أيضًا. ثمّة شيءٌ يزحف على قبّة المسرح.

- لقد جاءوا. - قال لويس كلاريت بصوتٍ كئيب، من عتبة باب الغرفة.

لم تَبدُ إيڤا إيرينوڤا متفاجئة، بل أخفت المصلَ بهدوء. رأيتُ كلاريت يستلُّ مُسدَّسَهُ ويتحقَّقُ من المخزن. كانت الطلقاتُ الفضّيَّةُ التي أعطاها له شيلي تتلألأ في داخله.

- عليكما أن تغادرا فورًا. - أمرتنا إيڤا إيرينوڤا - الآن وقد عرفتما الحقيقة، تعلَّما أن تنسياها.

كان وجهُها مستترًا بالحجاب، وصوتُها الحديديُّ خاليًا من أيّ تعبير. استصعبتُ فهمَ المغزى من تلك الكلمات.

- سرُّكِ في مأمنٍ عندنا. - قلتُ عمومًا.

- الحقيقةُ في مأمنٍ من الناس على الدوام. - ردَّت إيڤا إيرينوڤا - غادِرا الآن، هيّا.

أشار لنا كلاريت بأن نتبعَه، فخرجنا من غرفة تبديل الملابس. وكان القمرُ، من خلال القبّة الزجاجيَّة، يستعرض

مستطيلًا من ضوءٍ فضّيٍّ على خشبة المسرح. وفي المستطيل تبدَّت شخوصُ ميخائيل كولڤينيك ومخلوقاتُه، كظلالٍ متراقصة. رفعتُ عينيَّ فبدا لي أنّي ميَّزتُ قرابة اثني عشر شبحًا.

- يا إلهي... - غمغمت مارينا بجانبي.

كان كلاريت ينظر إلى نفس الاتِّجاه. رأيتُ الخوفَ في عينيه. سدَّدَ أحدُ الشخوص ضربةً عنيفةً إلى السطح. ففعَّلَ كلاريت القادحَ وصوَّبَ. وما انفكَّ المخلوقُ يُوجِّهُ ضرباته حتّى انكسر الزجاجُ بغضون ثوانٍ.

- هنالك نفقٌ تحت حفرة الأوركسترا، يعبر الصالة ويفضي إلى البهو. - أعلَمَنا كلاريت دون أن تحيدَ عيناه عن الطاق - وتحت الدَّرَج الرئيس فتحةٌ تؤدّي إلى ممرّ. اقطعاه حتّى تصلا إلى مخرج طوارئ...

- أليس من الأسهل الخروجُ من حيث أتينا؟ - سألتُهُ - من بيتك.

- لا. فلقد مرُّوا من هناك...

بدأت مارينا تشدُّني.

- فلنفعل ما قاله يا أوسكار.

نظرتُ إلى كلاريت. استقرأتُ في عينيه سكينةَ مَن يلاقي الموتَ بكلّ شجاعة. وفي الأثناء تحطَّمَ زجاجُ الطاق إلى ألف شظيَّةٍ وانقضَّ مخلوقٌ ذئبيٌّ على خشبة المسرح وهو يعوي. أطلق كلاريت النارَ على رأسه، فأصابه بدقَّةٍ تامَّة، غير أنَّ الوحوشَ الأخرى كانت تتراءى من الأعلى. وسرعان ما عرفتُ مَن

يتوسَّطهم: كولڤينيك. أوعز لهم فتوغَّلوا زاحفين جميعًا إلى داخل المسرح.

قفزتُ ومارينا إلى حفرة الأوركسترا واتَّبعنا توجيهات كلاريت، فيما كان يُغطّي ظهرنا. سمعتُ طلقةً أخرى، تصمُّ الآذان. التفتُّ للمرَّة الأخيرة قبل أن أدخلَ النفقَ الضيِّق. وثب جسمٌ مُتدثِّرٌ بأسمالٍ مُلطَّخة بالدماء إلى الخشبة وانقضَّ على كلاريت. ورغم أنَّ الطلقةَ فتحت في صدره ثقبًا بحجم قبضة يد، ما زال يتقدَّمُ حين أغلقتُ مدخلَ النفق ورائي ودفعتُ مارينا أمامي.

- ما الذي سيحلُّ بكلاريت؟

- لا أدري. - كذبتُ - اركضي.

تقدَّمنا في النفق الذي لا يتجاوز مترين عرضًا ومترًا ونصف المتر ارتفاعًا. فتوجَّبَ علينا عبورُهُ منحنيين، نتلمَّسُ جدارنَهُ لكي لا يختلَّ توازنُنا. قطعنا عدَّةَ أمتار، فإذا نحن نسمع صوتَ خطواتٍ فوقنا. كانوا يتبعوننا في صالة الجمهور. ازداد أزيزُ الرصاص حدَّةً. فتساءلتُ كم تبقَّى لدى كلاريت من وقتٍ وطلقاتٍ قبل أن يفترسَهُ ذلك القطيعُ الجهنَّميّ.

وإذ، يرفع شخصٌ مّا من فوق رأسنا لوحًا خشبيًّا عفنًا. ولج الضوءُ إلى النفق كنصل سكِّينٍ ساطع، وسقط أمام قدمينا جسدٌ ميِّت. كلاريت. عيناه فارغتان، بلا حياة. وما زال الدخانُ ينبعث من قصبة مُسدَّسه الذي بين يديه. لا جروح على جسمه، لا آثار عنفٍ واضحة ولكن، ثمّة شيءٌ غير مفهوم. نظرت مارينا إلى الأعلى وشهقت. لقد تحطَّمت عظامُ رقبته بقوَّةٍ غير بشريَّة،

بحيث صار وجهُهُ على ظهره. حُجِبَ الضوءُ بظلٍّ يحوم فوقنا، ورأيتُ فراشةً سوداء تهبط على صديق كولڤينيك الوفيّ. شرد ذهني حتّى لم أنتبه لحضور ميخائيل إلّا عندما أوغل ذراعَهُ عبر اللوح المُخترَق، وقبض على عنق مارينا ببراثنه. رفعها عن الأرض وأخذها بعيدًا قبل أن أتمكَّنَ من الإمساك بها. صرختُ باسمها. فكلَّمني حينذاك. لن أنسى ذلك الصوتَ ما حييتُ.

- إذا أردتَ أن ترى صديقتك قطعةً واحدة، فآتني بالقارورة.

لم أستطع نطقَ كلمةٍ واحدة. ثمَّ أعادني العذابُ إلى الواقع. انحنيتُ على جسد كلاريت وهممتُ بانتزاع المُسدَّس. كانت عضلاتُ يده قد تشنَّجت في النزع الأخير. فتحجَّرَت سبَّابتُهُ على الزناد. بلغتُ غايتي بتفكيك إصبع تلو إصبع. وفتحتُ المخزنَ فوجدتُ الذخيرة قد نفدت. فتَّشتُ في جيوبه بحثًا عن طلقاتٍ أخرى. فعثرتُ على المخزن الاحتياطيّ، ستُّ طلقاتٍ فضّيَّة مثقوبة الرأس، في جيب المعطف الداخليّ. لم يسعف الوقتُ ذلك الرجلَ الطيِّبَ لإعادة تلقيم سلاحه. فاغتاله شبحُ صديقه، الذي أفنى عمرَه من أجله، بضربةٍ جامدةٍ ووحشيَّة. ولعلَّ كلاريت، الذي أمضى سنواتٍ طويلةً مُتخوِّفًا من هذا اللقاء، لم يتشجَّع كفايةً ليُصوِّبَ نيرانه إلى ميخائيل كولڤينيك، أو إلى ما تبقَّى منه.

تسلَّقتُ جدرانَ النفق إلى الصالة وأنا أرتجف، وركضتُ للبحث عن مارينا.

*

كانت طلقاتُ الطبيب شيلي قد حيَّدَت على الخشبة عددًا لا بأس به من الأجسام. وكان بعضُها عالقًا بالثريَّات، وأخرى على الشرفات... أرسل لويس كلاريت إلى الجحيم بعضَ أفراد قطيع الوحوش الذي رافق كولڤينيك. نظرتُ إلى تلك الجثث، ففكَّرتُ بالمصير الأفضل الذي كانوا يطمحون إليه. فما إن خمدت أرواحُهم، توضَّحَ زيفُ التركيبات والقِطَعِ التي تشكَّلوا منها. كان أحدُ الأجسام مرميًّا في الرواق المركزيّ، مُلتَويَ الفكَّين. قفزتُ فوقه. نقل لي الفراغُ الماثلُ في عينيه القاتمتين إحساسًا عميقًا بالبرد. كانوا فارغين. فارغين تمامًا.

ذهبتُ نحو الخشبة وتسلَّقتُها. ما زال الضوءُ في غرفة إيڤا إيرينوڤا منيرًا، ولكن ليس فيها أحد. كانت نتانةُ الجيف تفوح في الأجواء. والصورُ الفوتوغرافيَّةُ المُعلَّقةُ على الجدران مُلطَّخةٌ بآثار أصابع نازفة. كولڤينيك. أحسستُ بقرقعةٍ خلفي فالتفتُّ، مُصوِّبًا المُسدَّس. سمعتُ خطواتٍ تبتعد.

- إيڤا؟ - ناديتُ.

عدتُ إلى الخشبة ولمحتُ دائرةً ضوئيَّةً ذهبيَّةً في صالة الجمهور. وحين اقتربتُ تراءى لي شخصُ إيڤا إيرينوڤا. كانت تحمل بيديها شمعدانًا تُشاهِدُ أنقاضَ المسرح الملكيّ الكبير. أنقاضَ حياتها. استدارت، وقرَّبت الشعلةَ ببطءٍ إلى الستائر المخمليَّة المهترئة والمتدلّية من الشرفات. فاحترق النسيجُ البائدُ فورًا. وانتشرت النيرانُ بسرعةٍ إلى حيطان الشرفات، والخشبيَّات المطليَّة بماء الذهب على الجدران والأرائك.

- كلا! - صرختُ.

تجاهلَتْ ندائي واختفت من الباب المؤدّي إلى المعابر بين الشرفات. وفي غضون ثوانٍ، تفشَّت ألسنةُ اللهب كوباءٍ فتَّاكٍ تتوغَّلُ وتمحو كلَّ شيءٍ يعترض طريقها. كشف وهجُ النيران عن وجهٍ آخر للمسرح الكبير. أحسستُ بهبَّة سخونة، وأصابتني رائحةُ الخشب والطلاء المحروق بالغثيان.

تتبَّعتُ مسارَ الحريق ببصري. رأيتُ مَعدَّاتِ الإخراج المسرحيّ في السقف، وهي منظومةٌ معقَّدةٌ من حبالٍ، وبكراتٍ، وستائر، وخلفيَّاتٍ مُعلَّقة، ومنصَّات. ثمّة عينان متوقِّدتان تراقباني من الأعلى. كولڤينيك. كان يحمل مارينا بيدٍ واحدة، كأنَّها لعبة أطفال. ويتنقَّلُ بين السقالات برشاقة قطّ. اكتسحت النيرانُ الصفَّ الأوَّلَ من الشرفات وتصاعدت نحو الثاني. وكان الشرخُ في القبَّة يُذكِّي السعيرَ ويُحوِّلُهُ إلى موقدٍ هائل.

ركضتُ نحو السلالم الخشبيَّة. كانت أدراجُها مُتعرِّجةً وتهتزُّ على وقع خطواتي. توقَّفتُ عند الطابق الثالث ورفعتُ عينيَّ. فقدتُ أثرَ كولڤينيك. وفي تلك اللحظة تمامًا أحسستُ بمخالب تنغرس في كتفي. التفتُّ لأهربَ من ذلك العناق القاتل، فرأيتُ أحد مخلوقات كولڤينيك. كانت طلقاتُ كلاريت قد فصلت عنه ذراعه، لكنَّه ما زال حيًّا. شعرُهُ طويل، ووجهُهُ كان فيما مضى وجهَ امرأة. صوَّبتُ المسدَّسَ عليه، لكنَّه لم يتوقَّف. فانتابني حدسٌ يقينيٌّ بأنّي رأيتُ هذا الوجهَ في السابق. كشف بريقُ النيران ما تبقَّى من نظرتها. فجفَّ فمي من الهول.

- ماريّا؟ - تلعثمتُ.

توقَّفت ابنةُ كولڤينيك، أو المخلوقُ الذي سكن جسدها، مُتردِّدةً.

- ماريّا؟ - كرَّرتُ سؤالي.

لم يبق شيءٌ من ذلك الكائن الملائكيّ الذي أذكره. لقد انتُهِكَ جمالُها. وحلَّ محلَّها وحشٌ فظيعٌ مُريعٌ وبائس. وما زالت بشرتُها على حالها: عمل عليها كولڤينيك مُتعجِّلًا. أخفضتُ المُسدَّسَ ومددتُ يدي نحو تلك المرأة المسكينة. لعلَّ هناك بارقةَ أملٍ من أجلها.

- ماريّا؟ هل عرفتِني؟ أنا أوسكار. أوسكار دراي. هل تذكرينني؟

رمقتني ماريّا شيلي بنظرةٍ حادَّة. ومض في عينيها بريقُ حياة. رأيتُها تذرف دمعةً وتنظر إلى يدها. تمعَّنت في ذلك المخلب الحديديّ القبيح الذي يبرز من ساعديها، وسمعتُها تشهق. مددتُ يدي نحوها من جديد. فتراجعت ماريّا خطوةً إلى الوراء وهي ترتجف.

وفي الأثناء اندلعت موجةٌ من نارٍ على الدعامة التي ترفع الستارَ الأساسيّ. فسقط بما فيه من نسيجٍ مهترئٍ وسط ألسنة اللهب. وتفكَّكت الحبالُ التي كانت تشدُّهُ، كسياطٍ مضطرمةٍ تجتاح المنصَّةَ التي كنّا عليها. ففصل بيننا لسانٌ ملتهب. ومددتُ يدي نحو ابنة كولڤينيك للمرَّة الثالثة.

- تمسَّكي بي، أرجوكِ.

تراجعتْ وتهرَّبت منّي. وابتلَّ وجهُها بالدموع. وبدأ خشبُ المنصّة يفرقع تحت أقدامنا.

- ماريّا، أرجوكِ...

حدَّقَ المخلوقُ إلى النار، كأنَّ شيئًا فيها يجذبه. ووجَّهَ إليَّ نظرةً أخيرةً وعصيَّةً على الفهم، وتمسَّكَ بأحد الحبال المحترقة التي سقطت على المنصَّة. فتمدَّدَت النيرانُ من ذراعه إلى صدره وشعره، والتفَّت على ثيابه ووجهه. رأيتُهُ يشتعل كأنَّه تمثالٌ شمعيٌّ حتّى تراخت الألواحُ الخشبيَّةُ وهوى الجسمُ في الهاوية.

ركضتُ نحو أحد مخارج الطابق الثالث. عليَّ أن أعثرَ على إيڤا إيرينوڤا، وأن أُنقِذَ مارينا.

- إيڤا! - صرختُ حين استطعتُ تحديدَ موقعها أخيرًا.

فتجاهلتني وتابعت سيرها. بلغتُها عند الدَّرَج الرخاميّ. أمسكتُها بشدَّةٍ من ذراعها وأوقفتُها. فحاولت أن تتحرَّرَ منّي.

- لقد أخذ مارينا رهينةً. إن لم أُسلِّمهُ المصل، قتلها.

- صديقتك ماتت لا محالة. غادر المكانَ قبل فوات الأوان.

- كلا!

نظرت إيڤا إيرينوڤا حولها. السلالمُ تشتعل نارًا. لم يتبقَّ وقتٌ كثير.

- لا يمكنني المغادرة من دونها...

- أنت لا تفهم. - ردَّت - إن أعطيتك المصل، قتل كليكما، ولن يوقفَهُ أحد.

- إنَّه لا يريد أن يقتلَ أحدًا. إنّما يريد أن يعيش.

- أنت لا تفهم البتّة يا أوسكار. - قالت إيڤا - لا يمكنني فعل شيء. إنَّها مشيئة اللّه.

وبقولها هذا أولت إليَّ ظهرها وابتعدت.

- لا يمكن لأحدٍ القيام بعمل الربّ. وهذا ينطبق عليك أيضًا. - قالت باقتباسٍ من حكايتها.

توقَّفتْ. رفعتُ المُسدَّسَ وصوَّبتُهُ عليها. ودوَّى تفعيلُ القادح في المكان كلِّه. استدارت إيڤا عندئذ.

- أحاول إنقاذَ روح ميخائيل ليس إلّا. - قالت.

- لا أعلم إن كان بوسعكِ إنقاذَ روح كولڤينيك، لكنَّكِ قد تنقذين روحكِ أنتِ.

حدَّقت إليَّ المرأةُ بصمت، تواجه تهديدَ المُسدَّس في يديَّ المرتجفتين.

- هل لك قدرةٌ على إطلاق النار بدمٍ بارد؟ - سألتني.

لم أجب. لم أعرف ما أقول. لم يكن ذهني يهجس إلّا بصورة مارينا رهينةً عند كولڤينيك، والدقائق القليلة المتبقِّية قبل أن يفتحَ الحريقُ أبوابَ الجحيم على المسرح الملكيّ الكبير نهائيًّا.

- لا بدَّ أنَّ صديقتك تعني لك الكثير.

أومأتُ. بدا لي أنَّ المرأةَ ترسم خلف الحجاب أتعس ابتسامةٍ في حياتها.

- وهل هي على عِلمٍ بذلك؟ - سألتْ.

- لا أدري. - قلتُ من دون تفكير.

فأومأت برفق، وأخرجت القارورةَ الزمرُّديَّة.

- أنا وأنت متشابهان يا أوسكار. نحن وحيدان ومُدانان بحبّ مَن لن تُكتَبَ له النجاة...

ناولتني القارورة فأخفضتُ المُسدَّس. تركتُهُ على الأرض وأخذتُ القارورة بين يديَّ. وبينما كنتُ أتفحَّصها، شعرتُ أنّي تخلَّصتُ من عبءٍ ثقيل. أردتُ أن أشكرَ إيڤا إيرينوڤا، لكنَّها لم تعد هناك. ولا المُسدَّس.

*

حين وصلتُ إلى الطابق الأخير، كان المبنى برمَّته يُحتَضَرُ تحت قدميَّ. ركضتُ إلى آخر الممرّ بحثًا عن منفذٍ إلى قبَّة مَعدَّات الإخراج. فانخلع أحدُ الأبواب من إطاره بغتة، مضطرمًا باللهب. واجتاح الممرَّ نهرٌ من نار. حُوصِرتُ. نظرتُ حولي، يائسًا، فرأيتُ مخرجًا واحدًا. النوافذُ المطلَّةُ على الطريق. لمحتُ عبر الزجاج المُغبَّش إفريزًا ضيِّقًا على امتداد الواجهة. وكانت النيرانُ تتقدَّمُ نحوي. فانفجر زجاجُ النافذة كأنَّما نفحتْهُ أنفاسٌ جهنَّميَّة. وانبعث الدخانُ من ثيابي. شعرتُ أنَّ الحريق يكاد يلامس جلدي. وأوشكتُ على الاختناق. فقفزتُ إلى الإفريز. لسعت ريحُ الليل الباردةُ وجهي. وتراءت لي شوارعُ برشلونة تحت عدَّة أمتارٍ عنّي. كان المشهدُ مذهلًا. فالنارُ التهمت المسرحَ بأكمله. وتهدَّمت دعاماتُهُ بعد أن أُحيلت إلى رماد. وكانت الواجهةُ القديمةُ شامخةً كقصرٍ باروكيٍّ مهيب، أو كاتدرائيَّةٍ ناريَّةٍ وسط الرابال. ولْوَلَتْ صافراتُ الإطفاء كأنَّها تشتكي عجزها. وكان كولڤينيك يرتهن مارينا، بجانب ذروة البرج المعدنيَّة، التي تلتقي فيها الشبكةُ الفولاذيَّةُ للقبَّة.

- مارينا! - صرختُ.

تقدَّمتُ خطوةً وتشبَّثتُ لاإراديًّا بقوسٍ حديديٍّ كي لا أقع. لكنَّه كان يحترق. صحتُ من الألم وسحبتُ يدي. وتصاعد الدخانُ من كفّي المُتفحِّم. وفي تلك اللحظة، اهتزَّ الهيكلُ الفولاذيُّ جرَّاء خضَّةٍ قويَّة، فتكهَّنتُ ما كان سيحدث. تهدَّمَ المسرحُ مدويًّا، فانكشف هيكلُهُ الحديديُّ الذي بقي صامدًا. وبدا هذا شبكةَ عنكبوتٍ فولاذيَّةً مُعلَّقةً في الجحيم. يتوسَّطها شخصُ كولڤينيك. لمحتُ وجهَ مارينا. كانت حيَّة. ففعلتُ الشيءَ الوحيدَ الذي يُمكِّنني من إنقاذها.

أمسكتُ القارورةَ ورفعتُها عاليًا ليراها كولڤينيك. فأبعد عنه مارينا واقترب من المنحدر. سمعتُها تصرخ. ثمَّ مدَّ ميخائيل مخالبَهُ إلى الفراغ. الرسالة واضحة. ثمّة دعامةٌ أمامي صالحةٌ للاستخدام جسرًا. اقتربتُ منها.

- أوسكار، كلا! - توسَّلت مارينا إليَّ.

ركَّزتُ بصري على المنصَّة الضيِّقة وتقدَّمتُ. وأحسستُ بباطن حذائي يذوب. وكان الهواءُ الخانق، المتصاعدُ من الحريق، يزمجر حولي. خطوةً بخطوة، دون أن تحيدَ عيناي عن الدعامة، كالبهلوانيّ الذي يسير على الحبل المشدود. رفعتُ عينيَّ فرأيتُ وجهَ مارينا المذعور. كانت بمفردها! كدتُ أعانقها، لكنَّ كولڤينيك تمظهر من خلفها. أمسكها ثانيةً وأرجحها في الفراغ. أخرجتُ القارورةَ وأرجحتُها أنا أيضًا، لعلَّه يستوعب أنَّني سأرميها في النيران ما لم يُحرِّر مارينا. تذكَّرتُ كلمات إيڤا إيرينوڤا: «سيقتل كليكما...». ففتحتُ القارورةَ وسكبتُ قطرتين في الهاوية. رمى كولڤينيك مارينا على تمثالٍ برونزيّ وانقضَّ

عليَّ. قفزتُ لأتحاشاه، فانزلقت القارورةُ من بين أصابعي.

تصاعد البخارُ من المصل عند تماسِّهِ مع المعدن المضطرم. تلقَّفَ كولڤينيك القارورةَ بمخالبه لكنَّها غدت شبه فارغة. فضغطها بقبضته حتّى تحطَّمت. وسالت بضع قطراتٍ زمرُّديَّة من أصابعه. وكانت النارُ تضيء وجهه، كأنَّه بئرٌ من الحقد والغضب المحتدم. فأخذ يتقدَّمُ نحونا. أمسكت مارينا يديَّ وشدَّت عليهما. ثمَّ أغمضت عينيها وفعلتُ مثلها. شممتُ نتانةَ تفسُّخ كولڤينيك على بُعد سنتمترات عنّي وهيَّأتُ نفسي للصدمة.

قطعت الرصاصةُ الأولى النيرانَ بأزيزها. فتحتُ عينيَّ فرأيتُ خيالَ إيڤا إيرينوڤا يتقدَّمُ على الدعامة التي مشيتُ عليها قبل قليل. كانت تحمل المُسدَّس. فتفتَّحت وردةٌ من دمٍ قاتمٍ على صدر كولڤينيك. وجاءت الرصاصةُ الثانية، أقرب بكثير، ومزَّقت يده. وأصابته الثالثةُ في كتفه. فأبعدتُ مارينا. التفت كولڤينيك نحو إيڤا، مُترنِّحًا. وكانت السيِّدةُ ذات السواد تتقدَّمُ ببطء. تُصوِّبُ السلاحَ باتِّجاهه بلا شفقة. سمعتُ شهقات كولڤينيك. فتحت الرصاصةُ الرابعةُ في بطنه ثقبًا. وتسدَّدت الخامسةُ والأخيرةُ بين عينيه. سقط على ركبتيه حينذاك. رمت إيڤا إيرينوڤا المُسدَّس وركضت نحوه.

حملتْهُ بين ذراعيها واحتضنتْه. تلاقت أعينهما من جديد، فرأيتُها تداعب ذلك الوجهَ المُتوحِّش. وكانت تبكي.

- خذ صديقتك وارحل من هنا. - قالت دون أن ترفع أبصارها.

فأومأتُ. اقتدتُ مارينا على الدعامة ووصلنا إلى إفريز

المبنى. واستطعنا من هناك أن نهبطَ على أسطح الملحق ونكونَ في مأمنٍ من النار. التفتنا قبل أن يغيبا عن أنظارنا. ما زالت السيِّدةُ ذات السواد تعانق ميخائيل كولڤينيك. تراءى لنا طيفاهما من بين ألسنة اللهب حتّى حاصرتهما النارُ كلّيًّا. وتخيَّلتُ رمادَهما يتناثر في الريح، ويحوم فوق برشلونة، قبل أن يُبدِّدهما الفجرُ إلى الأبد.

*

وفي اليوم التالي، تحدَّثت الصحفُ عن أكبر حريقٍ اندلع في المدينة، وعن التاريخ العريق للمسرح الملكيّ الكبير، وعن كيف تمحو نهايتُهُ آخِرَ آثار برشلونة الراحلة. مدَّ الرمادُ ستارًا رماديًّا على مياه الميناء. وقد يبقى جاثمًا على المدينة حتّى الغروب. قدَّمَت بعضُ الصور المُلتقَطة من مونتجويك رؤيةً دانتويَّةً لمحرقةٍ جهنَّميَّةٍ تصعد نحو السماء. واتَّخذت المأساةُ أبعادًا جديدةً حين كشفت الشرطةُ عن شكوكها باحتواء المبنى على مُشرَّدين، علق كثيرٌ منهم بين الأنقاض المشتعلة. ولم تُعرَف هويَّةُ أيٍّ من الجسدين المُتفحِّمين اللذين عُثِرَ عليهما متعانقين في أعلى القبَّة. فمثلما تنبَّأت إيڤا إيرينوڤا: الحقيقةُ في مأمنٍ من الناس.

لم تذكر أيٌّ من الجرائد الحكايةَ القديمةَ لإيڤا إيرينوڤا وميخائيل كولڤينيك. لم تعد تهمُّ أحدًا. أذكر ذلك الصباح، رفقة مارينا، أمام كشكٍ في لاس رامبلاس. الصفحة الأولى من جريدة الطليعة تعنون افتتاحيَّتَها على خمسة أعمدة:

سارع المُبكِّرون والفضوليّون لشراء النسخة الأولى، متسائلين مَن طلى السماءَ بلون الفضَّة. ثمَّ اتَّجهنا بخطواتٍ بطيئةٍ نحو ساحة كاتالونيا وما زال الرمادُ يتساقط حولنا كنُدَفِ ثلجٍ ميِّت.

٢٥

عصفت ببرشلونة موجةُ بردٍ في الأيَّام التي تلت حريقَ المسرح الملكيّ الكبير. وللمرَّة الأولى منذ أعوام، اكتست المدينةُ برداءٍ ثلجيٍّ، من الميناء وحتّى قمّة التيبيدابو. أمضيتُ ومارينا، صحبة خيرمان، أعيادَ الميلاد في صمتٍ ونظراتٍ مُرتابة. وكانت مارينا تتجنَّبُ أيَّ إشارةٍ إلى ما وقع. وبدأتُ أنتبه أنَّها تتجنَّبُ صحبتي، وتُفضِّلُ الانسحابَ إلى غرفتها لتكتب. فبِتُّ أقتل الوقتَ بلعب الشطرنج مع خيرمان، بمبارياتٍ لا تنتهي، في الصالة الكبيرة حيث المدفأة. وأرنو إلى الثلج وأنتظر اللحظةَ التي سأقابل فيها مارينا وجهًا لوجه. اللحظة التي لم تحن.

تظاهر خيرمان بأنَّه لم ينتبه إلى ما كان يحدث، وحاول مرارًا أن يرفعَ معنويَّاتي من خلال الدردشة.

- مارينا تقول إنَّك تريد أن تصبحَ معماريًّا يا أوسكار.

فأومئ مع أنّي لم أعد أعرف ما الذي أرغب فيه حقًّا. كنتُ أقضي الليالي ساهرًا، أعيد تركيبَ أجزاء الحكاية التي عشتُها. وكم جهدًا بذلتُ لأمحو من ذاكرتي أشباحَ كولڤينيك وإيڤا إيرينوڤا. وفكَّرتُ أكثر من مرَّة أن أُعرِّجَ على الطبيب شيلي

العجوز لأروي له ما حدث. ولكن افتقرتُ إلى الشجاعة لمواجهته، وإخباره بأنّي شهدتُ موتَ المرأة التي ربَّاها على أنَّها ابنته، أو أنّي رأيتُ احتراقَ أعزّ أصدقائه.

تجمَّدت النافورةُ في آخر يومٍ من السنة. خشيتُ أن تكونَ أيَّامي رفقة مارينا قد وصلت إلى نهايتها. فبعد حينٍ سأعود إلى المدرسة الداخليَّة. أمضينا الليلةَ الأخيرةَ من السنة على ضوء الشموع، نصغي إلى قرع أجراس كنيسة ساحة ساريّا في البعيد. وما فتئت تُثلِجُ في الخارج، كأنَّما هجرت النجومُ السماءَ من دون إنذارٍ مسبق. شربنا النخبَ همسًا في منتصف الليل. وبحثتُ عن عيني مارينا، لكنَّها أخفت وجهَها في العتمة. حاولتُ في تلك الليلة أن أفهمَ ما الذي قلتُهُ أو فعلتُهُ لأستحقَّ هذه المعاملة. كنتُ أشعر بوجود مارينا في الغرفة المحاذية لغرفتي. وأتخيَّلها مستيقظة، كجزيرةٍ يجرفها التيَّارُ بعيدًا. فطرقتُ على الجدار ببراجمي. وناديتُها بلا جدوى. لم أحصل على جواب.

جمعتُ أغراضي وكتبتُ رسالةَ انصرافٍ من دار خيرمان ومارينا، أشكرهما فيها على حسن الضيافة. هناك شيءٌ قد انكسر، ولم أتمكَّن من فهمه، لذا بتُّ أشعر أنّي أُثقِلُ عليهما. تركتُ الرسالةَ على طاولة المطبخ فجرًا وخرجتُ من الدار. وفيما أنا أمشي نحو المدرسة، كنتُ واثقًا من أنَّ مارينا كانت تراقبني من نافذة غرفتها. فودَّعتُها بتلويحةٍ من يدي، على أمل أنَّها تنظر إليَّ. طُبِعَتْ آثارُ خطواتي على ثلج الطرقات المقفرة.

*

ما زال هناك عدَّة أيَّام على عودة التلاميذ الآخرين. كانت غرفُ الطابق الرابع بحيراتٍ موحِشة. فتحتُ حقيبتي، فمرَّ الأب سيغي ليُسلِّمَ عليَّ. فحيَّيْتُهُ بأدبٍ وتابعتُ ترتيبَ ثيابي.

- ما أغرب السويسريِّين. - قال - فبينما يُخفي الجميعُ ذنوبَهم، يُغلِّفُها السويسريّون بالورق الفضّيّ، ويُشبِّعونها بالمشروب الروحيّ، ويُزيِّنونها بالأشرطة، ويبيعونها بسعر الذهب. أرسل إليَّ المُحافِظُ من زوريخ علبةَ شوكولاتة كبيرة وليس لديَّ مَن يشاركني فيها. ينبغي لأحدهم أن يساعدني قبل أن تكتشفَ السيِّدة باولا أمرَها...

- يمكنك الاعتماد عليَّ. - قلتُ من دون حماسة.

اقترب سيغي من النافذة وسرحت أنظارُهُ بالمدينة تحتنا، كم تشبه السراب. التفت وحدَّقَ إليَّ كما لو أنَّه يستطيع استقراءَ أفكاري.

- ذات مرَّة، قال لي صديقٌ عزيزٌ إنَّ المشاكلَ كالصراصير، إن أخرجتَها إلى الضوء، ذُعِرَت وهربت. - قال بنبرته الممازحة التي يستخدمها حين يفتح موضوعً جادًّا.

- لا بدَّ أنَّه صديقٌ حكيم. - قلتُ.

- كلا. - ردَّ سيغي - لكنَّه كان رجلًا طيِّبًا. عامًا سعيدًا يا أوسكار.

- عامًا سعيدًا يا أبانا.

*

أمضيتُ تلك الأيَّام، التي سبقت استئنافَ الدروس، دون أن

أخرجَ من غرفتي. حاولتُ أن أقرأ، لكنَّ الكلمات طارت من الصفحات. وانقضت الساعاتُ وأنا أنظر من نافذتي إلى دار خيرمان ومارينا في البعيد. وكم مرَّةً تشوَّقتُ للعودة إليها، وكم مرَّةً وصلتُ حتّى مدخل الزقاق الذي يؤدّي إلى بوَّابتهما. لم يعد غراموفون خيرمان يصدح بين الأشجار، لا شيء سوى اندفاع الريح بين الأغصان العارية. وكنتُ في كلّ ليلةٍ أعيش أحداثَ الأسابيع الأخيرة من جديد، إلى أن أسقطَ منهكًا في نومةٍ لا تُؤمِّنُ الراحة، مُتوتِّرًا ومُختَنِقًا.

استُأنِفَت الدروسُ بعد أسبوع. كانت أيَّامًا رصاصيَّة، الزجاجُ غَبِشٌ بالضباب وأجهزةُ التدفئة تقطر في العتمة. بدا لي رفاقي القدامى وضجيجُهم غريبًا عليَّ. دردشاتٌ عن الهدايا، والأعياد، والذكريات التي لا أستطيع أو أريد مشاركتها. وكانت أصواتُ المُعلِّمين تفوتني. لا أستوعب ما أهمّيَّة أفكار ديفيد هيوم ولا كيف بوسع المُشتقَّات أن تُوقِفَ الساعةَ وتُغيِّرَ مصيرَ ميخائيل كولڤينيك وإيڤا إيرينوڤا. أو مصيري.

كانت ذكرى مارينا، والوقائعُ الرهيبةُ التي عشناها، تمنعني عن التفكير، وتناول الطعام، وإجراء محادثةٍ مترابطة. هي الشخصُ الوحيدُ الذي يسعني أن أُقاسِمَهُ همّي، فتحوَّلَت ضرورةُ حضورها إلى وجعٍ ملموس. وكان الوجعُ يحرقني من الداخل، لا شيء ولا أحد يُهوِّنُهُ عليَّ. فاستحلتُ إلى طيفٍ باهتٍ يتسكَّعُ في الممرَّات. وصار ظلّي يندمج بالجدران. والأيَّامُ تتساقط كأوراق الشجر اليابسة. تمنَّيتُ أن أتلقَّى رسالةً من مارينا، أو إشارةً تُفيد برغبتها في لقائي. حُجَّةٌ بسيطةٌ لأركضَ إليها وأُقلِّصَ

المسافةَ التي تفصل بيننا وقد بدت أنَّها تتمدَّدُ يومًا بعد يوم. لم ترد تلك الإشارة. فأقتل الوقتَ بالتسكُّع في الأماكن التي مشيتُ فيها مع مارينا. وأجلس على مقاعد ساحة ساريّا مؤملًا أن أراها آتية...

وفي نهاية يناير، استدعاني الأب سيغي إلى مكتبه. سألني عن تردّي حالتي، مُتجهِّمًا وبنظرةٍ خارقة.

- لا أدري. - أجبتُ.

- فلنتحدَّثْ في الأمر، لعلَّنا نفهم أسبابه. - اقترح سيغي.

- لا أعتقد. - أجبتُ بحدَّةٍ ندمتُ عليها مباشرةً.

- أمضيتَ أسبوعًا من أعياد الميلاد خارج المدرسة. هل لي أن أسألك أين كنتَ؟

- مع عائلتي.

خيَّمَ العبوسُ على نظرات مُوجِّهي.

- إن واصلتَ الكذب فلا داعي لإكمال هذه المحادثة يا أوسكار.

- هذه هي الحقيقة. - قلتُ - كنتُ مع عائلتي.

*

جلب فبراير معه الشمس. وذوَّبَت أضواءُ الشتاء رداءَ الصقيع والضباب الذي غطَّى المدينة. أمدَّني الطقسُ الجيِّدُ بالشجاعة وحضرتُ إلى دار مارينا في يوم سبت. كانت البوَّابةُ مقفلةً بسلسلة. وبدت الدارُ العتيقةُ ما وراء الأشجار أكثر عزلةً ممّا مضى. شعرتُ لعُشرٍ من الثانية أنَّني جُنِنتُ. هل كنتُ قد تخيَّلتُ

كلَّ شيء؟ أهلُ هذه الدار المخيفة، حكايةُ كولڤينيك والسيِّدة ذات السواد، المُفتِّشُ فلوريان، لويس كلاريت، والمخلوقاتُ العائدة إلى الحياة... شخصيَّاتٌ أخفتْها يدُ القدر السوداء واحدةً تلو الأخرى... هل حلمتُ بمارينا والشاطئ المسحور؟

«نحن لا نتذكَّرُ إلّا الأشياء التي لم تقع...»

صحوتُ في تلك الليلة وأنا أصيح، أتصبَّبُ عرقًا، ولم أعِ أين أنا. كنتُ في الحلم قد عدتُ إلى أنفاق كولڤينيك. ألاحق مارينا ولا أتمكَّنُ من بلوغها، إلى أن اكتشفتُ أنَّها مدفونةٌ تحت غطاء من فراشاتٍ سوداء؛ لكنَّها حين حلَّقت بعيدًا، لم تترك خلفها سوى الفراغ. بردٌ. يستحيل تفسيرُهُ. الشيطانُ المُدمِّرُ الذي هوس به كولڤينيك. العدمُ خلف الظلام النهائيّ.

وعندما اقتحم الأب سيغي وصديقي ج. ف. الغرفة، وقد هُرِعا لصراخي، استغرقتُ بعض الوقت لأعرفَ مَن هما. تحسَّسَ سيغي معصمي بينما نظر ج. ف. إليَّ مذعورًا، موقنًا أنَّ صديقَهُ فَقَدَ عقله كلّيًّا. بقيا بجانبي إلى أن غفوتُ ثانيةً.

وفي اليوم التالي، وبعد شهرين لم أرَ مارينا خلالهما، قرَّرتُ العودةَ إلى دارها في ساريّا. ما كنتُ لأغادرَ قبل أن أحصلَ على توضيح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢٦

كان يومَ أحدٍ ضبابيًّا. رسمَتْ ظلالُ الأشجار، بأغصانها العارية، أشكالًا لهياكل عظميَّة. وضبطتْ أجراسُ الكنيسة إيقاعَ خطواتي. توقَّفتُ عند البوَّابة الموصدة. هنالك أثرُ عجلاتٍ على الأوراق اليابسة، فتساءلتُ ما إذا كان خيرمان قد أخرج سيَّارته التاكر القديمة من المرأب مجدَّدًا. تسلَّلتُ إلى الداخل كاللصّ، بعد أن تسلَّقتُ الشبكةَ الحديديَّة، وولجتُ إلى الحديقة.

كانت الدارُ غارقةً في صمتٍ مطبق، مظلمةً ومهجورةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. رأيتُ بين الحشائش درَّاجةَ مارينا، مرميَّةً على الأرض كحيوانٍ جريح. سلسلتُها صدئة، ومقودُها هالكٌ بالرطوبة. تأمَّلتُ المشهدَ فتولَّدَ لديَّ انطباعٌ بأنّي أمام أطلالٍ لا يسكنها سوى أثاثٍ قديم وأصداء خفيَّة.

- مارينا؟ - ناديتُ.

ذهب صوتي مع الريح. درتُ حول المبنى، متَّجِهًا إلى الباب المؤدّي إلى المطبخ. كان مفتوحًا. الطاولةُ فارغة، تعتليها طبقةُ غبار. اندفعتُ إلى الداخل. صمت. وصلتُ إلى صالة اللوحات. كريستن تنظر إليَّ من الجدران، لكنَّني كنتُ أرى فيها عينَي مارينا... حتّى سمعتُ صوتَ بكاءٍ خلفي.

كان خيرمان منكمشًا على نفسه على إحدى الأرائك، مُتحجِّرًا كتمثال. لا يتحرَّكُ فيه شيءٌ سوى الدموع التي تسيل على خدَّيه. لم أرَ رجلًا في سنِّهِ يبكي هكذا. تجمَّدت دمائي. كان شاحبًا، نحيلًا، سارحَ النظر في اللوحات، وقد شاخ كثيرًا عن آخر مرَّةٍ تلاقينا. يرتدي أحد أطقمه الرسميَّة التي ما زلتُ أذكرها، لكنَّ هذا كان متَّسخًا ومُتجعِّدًا. ومن يدري كم مرَّ عليه وهو في تلك الحال، ومنذ متى كان منكمشًا على نفسه على تلك الأريكة.

جثمتُ أمامه وأمسكتُ يده.

- خيرمان...

كانت يدُ الرسَّام باردةً لدرجةٍ أفزعتني. ارتمى بغتةً في حضني، يرتجف كطفلٍ صغير. جفَّ فمي. فعانقتُهُ وما انفكَّ يبكي. خشيتُ أنَّ الأطبَّاءَ شخصَّوه سلبيًّا، وأنَّ آمالَ الأشهر الأخيرة ذهبت أدراج الرياح، فتركتُهُ يُفرِّجُ عمّا في نفسه، بينما تساءلتُ أين انتهى المطافُ بمارينا، لماذا ليست إلى جانب خيرمان...

رفع العجوزُ أنظاره عندئذ. فاكتفيتُ بالتحديق إلى عينيه لأدرك الحقيقة. أدركتُها بالوضوح الفظّ الذي تتبدَّدُ به الأحلام. كخنجرٍ باردٍ ومسمومٍ ينغرس في الروح ولا مفرّ.

- أين مارينا؟ - سألتُهُ متلعثمًا.

لم يستطع خيرمان أن ينطقَ بكلمة. ولا داعي. عرفتُ من عينيه أنَّ فحوصات خيرمان في مستشفى سان بابلو كانت زائفة. عرفتُ أنَّ طبيبَ مستشفى السلام لم يعاين الرسَّام. عرفتُ أنَّ

خيرمان لم يكن مبتهجًا ومتفائلًا بالعودة من مدريد من أجله. لقد خدعتني مارينا منذ البداية.

- الداء الذي غيَّبَ أمَّها... - غمغم خيرمان - ها هو الآن يُغيِّبُها يا أوسكار العزيز. إنَّه يسرق مارينا غاليتي منّي...

شعرتُ بجفنيَّ ينغلقان كألواحٍ رخاميَّة، والعالَمُ من حولي يتلاشى ببطء. عانقني خيرمان من جديد، وانفجرتُ باكيًا كالأحمق، هناك في تلك الصالة الخاوية والدار القديمة، بينما كانت أولى قطرات المطر تنهمر على برشلونة.

*

بدت لي مستشفى سان بابلو من سيَّارة الأجرة مدينةً مُعلَّقةً بين السحاب، بأبراجها المُدبَّبة وقببها المستحيلة. ارتدى خيرمان طقمًا نظيفًا وركب بجانبي ملتزمًا الصمت. وكنتُ أحمل بين يديَّ علبةً ملفوفةً بأكثر ورق هدايا متلألئٍ استطعتُ العثورَ عليه. وحين وصلنا، رمقني طبيبُ مارينا، داميان روخاس، من رأسي إلى قدميَّ، وأمطرني بوابلٍ من التعليمات. يجب ألّا أُتعِبَ مارينا. يجب أن أبدو إيجابيًّا ومتفائلًا. مارينا في حاجةٍ إلى مساعدتي، لا العكس. يجب ألّا أبكي أو أشتكي، فما لهذا أتيتُ، بل يجب أن أساعدَها. يجب أن أتقيَّدَ بهذه التعليمات وإلّا لا جدوى من إتعاب نفسي بالمجيء ثانيةً. كان داميان روخاس طبيبًا شابًّا، ما زال مئزرُهُ يفوح برائحة الجامعة. استخدم نبرةً حازمةً ونافدةَ الصبر، ولم يجهد نفسَه ليبدو لطيفًا. لو كنّا في ظروفٍ أخرى، لاعتبرتُهُ غبيًّا مغرورًا، لكنَّ شيئًا مّا فيه أشعرني بأنَّه لم يتعلَّم بعدُ

أن ينعزلَ عن آلام مرضاه، وأنَّ هذا السلوكَ طريقتُهُ في الصمود.

صعدنا إلى الطابق الرابع وقطعنا ممرًّا طويلًا لا ينتهي. هبَّت رائحةُ المستشفيات: مزيجٌ من أمراضٍ ومُعقِّم ومُعطِّر جوّ. وما إن وطئت قدمي ذلك الجناحَ من المبنى، حتّى تبخَّرَت الشجاعةُ القليلةُ التي تبقَّت لديَّ. دخل خيرمان إلى الغرفة أوَّلًا. طلب منّي أن أنتظره في الخارج ريثما يخبر مارينا بزيارتي. أحسَّ بأنَّ ابنتَهُ قد لا تُفضِّلُ أن أراها هناك.

- دعني أحدِّثها أوَّلًا يا أوسكار...

انتظرتُ في الممرّ، ذلك الرواق الطويل بأبوابه وأصواته الهائمة. وجوهٌ مشحونةٌ بالألم والفقدان تتلاقى بصمت. وما زلتُ أُردِّدُ في سرّي، حتّى الغثيان، تعليمات الطبيب روخاس. أنا هنا لكي أساعدَها. أطلَّ خيرمان من الباب أخيرًا وأومأ. ابتلعتُ ريقًا ودخلتُ. وظلَّ هو في الخارج.

كانت الغرفةُ مستطيلًا طويلًا يتبخَّرُ فيه الضوءُ قبل أن يلامسَ الأرض. تشرف نوافذُهُ الكبيرةُ على جادّة غاودي التي تهيم في ما لا نهاية. وتشطر أبراجُ الساغرادا فاميليا السماءَ نصفين. وهنالك أربعة أَسرِّة منفصلة بستائر خشنة. تتراءى أشخاصُ الزوَّار الآخرين في انعكاس الضوء، كعروض خيال الظلّ الصينيَّة. وكانت مارينا تشغل السريرَ الأخيرَ من الجهة اليمنى، بجانب النافذة.

ما من أصعب من مواجهة نظراتها في تلك اللحظات الأولى. قصَّوا شعرَها، فصار قصيرًا كشَعر ولد. بدت لي مارينا، من دون شعرها الطويل، مذلولة، عارية. عضضتُ لساني بقوَّة

لأقمعَ دموعي التي صعدت من أعماق روحي.

- اضطرُّوا إلى قصّ شعري... - قالت، مُتوقِّعةً ما يدور في رأسي - من أجل الفحوصات.

لاحظتُ علاماتٍ على عنقها ورقبتها، تُسبِّبُ الألمَ لمجرَّد النظر إليها. حاولتُ أن أبتسم وأعطيتُها العلبة.

- أراه جميلًا. - قلتُ من باب التحيَّة.

قبلت العلبةَ ووضعتها في حضنها. جلستُ بجانبها صامتًا. فأمسكت مارينا يدي وشدَّت عليها. لقد فقدت وزنَها. وتبدَّت أضلاعُها من تحت رداء المستشفى الأبيض. وكانت عيناها بلون الرماد، محاطتين بهالاتٍ سوداء، فقدتا بريقهما. وأمست شفتاها خطّين رفيعين ومُتيبِّسين. فتحت العلبةَ بيدين مرتابتين، وأخرجت منها الكتاب. تصفَّحتْهُ ورفعت عينيها بفضول.

- الأوراق بيضاء...

- حتّى الساعة. - أجبتُ - لدينا حكايةٌ جميلةٌ نرويها، وستكون كتابتُها وظيفتَكِ.

ضمَّت الكتابَ إلى صدرها.

- كيف ترى خيرمان؟ - سألتني.

- بخير. - كذبتُ - مُتعَب، لكنَّه بخير.

- وأنت، كيف حالك؟

- أنا؟

- لا، أنا. مَن غيرك هنا؟

- أنا بخير.

- بالتأكيد، خاصَّةً بعد خطبة الرقيب روخاس...

قوَّستُ حاجبيَّ، كأنَّني لا أعرف عمّا تتحدَّث.

- اشتقتُ إليك. - قالت.

- وأنا كذلك.

ظلَّت كلماتُنا مُعلَّقةً في الهواء. ونظر كلٌّ منّا إلى الآخر للحظةٍ طويلة. أوشك وجهُها الواثقُ على الانهيار.

- يحقُّ لك أن تكرهني. - قالت حينئذ.

- أكرهكِ؟ ولماذا عليَّ أن أكرهكِ؟

- كذبتُ عليك. - أجابت مارينا - حين أتيتَ لإعادة ساعة خيرمان، كنتُ على درايةٍ بأنّي مريضة. أنانيَّة، أردتُ أن يكون لي صديق... وأعتقد أنَّنا تهنا على الطريق.

أشحتُ نظري نحو النافذة.

- لا، أنا لا أكرهكِ.

شدَّت على يدي مرَّةً ثانية، ثمَّ أنهضت جذعها وعانقتني.

- شكرًا لأنَّك أفضلُ صديقٍ عرفتُهُ. - همست في أذني.

شعرتُ أنَّ أنفاسي تضيق. كم وددتُ أن أهربَ بأقصى سرعة. ضمَّتني مارينا إليها بقوَّة وتوسَّلتُ ألّا تلاحظَ أنَّني أبكي. لئلا يسحبَ منّي الطبيبُ روخاس رخصةَ الدخول.

- لن ينزعجَ الطبيبُ روخاس إن كرهتني قليلًا. - قالت حينذاك - فمن المؤكَّد أنَّ هذا يناسب الكريَّات البيضاء، أو شيءٍ من هذا القبيل.

- أكرهكِ قليلًا إذًا.

- شكرًا.

٢٧

أصبح خيرمان بلاو صديقي المفضَّل في الأسابيع اللاحقة. كنتُ أسرع للذهاب إلى الرسَّام العجوز، ما إن تحين الساعةُ الخامسةُ والنصف، بعد انتهاء الدروس. فنأخذ سيَّارةَ أجرة إلى المستشفى ونقضي المساءَ مع مارينا، حتّى تطردنا الممرِّضاتُ من الغرفة. وتعلَّمتُ على امتداد الرحلة الطويلة، من ساريّا إلى جادَّة غاودي، أنَّ برشلونة في الشتاء قد تكون أتعس مدينةٍ في العالَم. غدت حكاياتُ خيرمان حكاياتي، وذكرياتُهُ ذكرياتي.

وخلال الانتظارات الطويلة في الممرَّات المقفرة بالمستشفى، باح لي خيرمان بأسرارٍ لم يبحها لأحد، إلّا لزوجته. حدَّثني عن سنواته التي أمضاها مع مُعلِّمه سالْبات، وعن زواجه، وعن كيف ساعدته صحبةُ مارينا وحدها على تجاوز رحيل زوجته. حدَّثني عن شكوكه ومخاوفه، عن كيف علَّمتْهُ الحياةُ أنَّ ما يعتبره يقينًا كان محض أوهام. قال لي إنَّ هناك الكثيرَ الكثيرَ من الدروس التي لا تستحقُّ عناءَ تعلُّمها. وأنا أيضًا، للمرَّة الأولى، تحدَّثتُ معه بلا قيود، ورويتُ له عن مارينا، عن أحلامي بأن أصبحَ معماريًّا في المستقبل، في أيَّامٍ كففتُ فيها عن الوثوق بالمستقبل. حدَّثتُهُ عن

عزلتي، وعن إحساسي بأنّي وحيدٌ في الدنيا قبل أن أتعرَّفَ عليهما. حدَّثتُهُ عن هواجسي بأن أعودَ وحيدًا، في حال فقدتُهما. كان خيرمان يصغي إليَّ ويتفهَّمني. كان يعلم أنَّ كلامي مُجرَّدُ محاولةٍ لتوضيح مشاعري، فيتركني أُفرِّجُ عمّا في نفسي.

أحتفظ بذكرى مميَّزة عن خيرمان بلاو والأيَّام التي أمضيناها معًا في داره وممرَّات المستشفى. كان كلانا يعلم أنَّ مارينا هي التي تُوحِّدُنا، وأنَّنا في ظروفٍ مختلفةٍ ما كنّا لنتبادلَ كلمةً واحدة. ولطالما اعتقدتُ أنَّ مارينا لم تصبح ما هي عليه إلّا بفضل خيرمان، وأنا متأكِّدٌ من أنَّني، رغم ضآلة احتكاكي به، مدينٌ له بأكثر ممّا أعترف به بكلّ سرور. أحتفظ بكلماته ونصائحه مصونةً في صندوق ذاكرتي، واثقًا من أنَّني سأحتاج إليها عاجلًا أم آجلًا، لمواجهة مخاوفي وشكوكي.

*

أمطرت السماءُ كلَّ يومٍ تقريبًا في شهر مارس ذاك. كانت مارينا تكتب حكايةَ ميخائيل كولڤينيك وإيڤا إيرينوڤا في الكتاب الذي أهديتُهُ لها، في حين يأتي ويجيء عشراتُ الأطبَّاء والممرِّضين بفحوصاتٍ وتحاليل، ثمَّ فحوصاتٍ وتحاليل أخرى. تذكَّرتُ في تلك الآونة وعدي الذي قطعتُهُ لمارينا ذات مرَّة، في ترام بايبيذيرا الجبليّ، وبدأتُ أعمل على الكاتدرائيَّة. كاتدرائيَّتها. وجدتُ في مكتبة مدرستي كتابًا عن كاتدرائيَّة مدينة شارتر الفرنسيَّة، وبدأتُ أُصمِّمُ أجزاء المُجسَّم الذي نويتُ بناءه. قصصتُها من ورقٍ مُقوَّى أوَّلَ الأمر. وبعد محاولاتٍ لا تنتهي،

كادت تقنعني بعجزي عن تصميم حتّى كابينة هاتف، أوكلتُ مهمَّةَ القصّ من ألواحٍ خشبيَّةٍ لنجَّارٍ في شارع مارخينات.

- ما الذي تبنيه يا فتى؟ - سألني بفضول - جهازُ تدفئة؟

- كاتدرائيَّة.

وكانت مارينا تراقبني باهتمامٍ وأنا أبني كاتدرائيَّتَها الصغيرةَ على رفّ النافذة. وترميني أحيانًا بدعاباتٍ لا أنام الليل بسببها.

- لِمَ كلُّ هذه العجلة يا أوسكار؟ - تسألني - هل تظنُّ أنّي سأموت في الغد؟

وسرعان ما حازت كاتدرائيَّتي شعبيَّةً بين مرضى الغرفة وزوَّارهم. السيِّدة كارمن، امرأةٌ إشبيليَّة تناهز أربعةً وثمانين عامًا، تشغل السريرَ المحاذي لمارينا، تقدحني بنظراتٍ مُتشكِّكة. كانت لها شخصيَّةٌ قويَّةٌ تصارع جيشًا بأكمله، ومؤخِّرةٌ كبيرةٌ بحجم سيَّارة فيات ٦٠٠. ولطالما استفزَّت طاقمَ المستشفى بطقطقة أصابعها. وكانت في الماضي تاجرةً بالسوق السوداء، ومُغنيِّة ملاهٍ، وراقصة، وطبَّاخة، وبائعة تبغ، واللّه يعلم ماذا بعد. دفنت زوجين وثلاثة أبناء. وغالبًا ما حضر أكثرُ من عشرين حفيدًا وقريبًا لزيارتها وتكريمها. وسرعان ما تُقوِّمُ اعوجاجَهم وتقول إنَّ الغنجَ يناسب الأغبياء. ولطالما فكَّرتُ أنَّ السيِّدة كارمن وُلِدَت في القرن الخاطئ، فلو كانت على زمان نابليون، لما استطاع عبورَ جبال البيرينيه. وافقني الرأيَ جميعُ الحاضرين، ما عدا مرض السُّكَّر.

وفي الجانب الآخر من الغرفة، إيسابيل يورينتي، سيِّدةٌ صارمةٌ كدمية أزياء تتحدَّثُ همسًا، وتبدو خارجةً من مجلَّة موضة

ما قبل الحرب. تقضي نهاراتها بالمكياج والنظر إلى نفسها في مرآةٍ صغيرةٍ لتُعدِّلَ شعرَها المستعار. فقد أرداها العلاجُ الكيماويُّ صلعاء ككرة بلياردو، لكنَّها كانت موقنةً بأنَّ الأمرَ خافٍ على الجميع. قالوا لي إنَّها حصلت على لقب ملكة جمال برشلونة عام ١٩٣٤ وأنَّها كانت عشيقةَ عمدة المدينة. وحدَّثتنا دائمًا عن إحدى مغامراتها مع جاسوسٍ شهير سيُحرِّرها يومًا مّا من هذا المكان المريع الذي زجوَّها فيه. فترفع كارمن عينيها إلى السماء كلَّما فتحت إيسابيل فمها. لم يأتِ أحدٌ لزيارتها، وكان يكفي أن تخبرها بأنَّها جميلة لكي تبتسمَ على مدار أسبوعٍ كامل. وفي مساء يوم خميس، دخلنا الغرفةَ فوجدنا سريرَها خاليًا. توفِّيت إيسابيل يورينتي في ذلك الصباح، ففوَّتت على حبيبها فرصةَ إنقاذها.

المريضة الرابعة هي باليريا آستور، طفلةٌ ذات تسعة أعوام، تتنفَّسُ من ثقب القصبة الهوائيَّة. كانت تبتسم لي كلَّما دخلتُ إلى الغرفة. لم تفارقها أمُّها لحظةً واحدة، وإذا أرغموها على الخروج نامت في الممرّ. كانت تشيخ شهرًا في كلّ يوم. سألتني باليريا مرارًا إن كانت مارينا كاتبة، فأجيبها مؤكِّدًا، أنَّها كاتبةٌ مشهورة. وذات مرَّة، سألتني - ومن يدري لماذا - إن كنتُ شرطيًّا. كانت مارينا تروي لها حكاياتٍ تبتدعها آنيًّا. حكاياتُها المُفضَّلة عن أشباح، وأميرات، وقطارات، بهذا الترتيب. وكانت السيّدة كارمن تستمع إلى حكايات مارينا وتضحك من قلبها. وعبَّرَت والدةُ باليريا، وهي امرأةٌ منهكةٌ وبسيطةٌ إلى حدّ اليأس، ولا أستطيع تذكُّرَ اسمها، عبَّرت عن شكرها لمارينا فأهدتها شالًا صوفيًّا نسجتْهُ بيديها.

وكان الطبيبُ روخاس يزور المريضات عدَّة مرَّاتٍ باليوم. بتُّ أستلطفه مع مرور الوقت. اكتشفتُ أنَّه كان قد تعلَّمَ في مدرستي الداخليَّة نفسها، وكاد ينتسب إلى معهد القساوسة. خطيبتُهُ الرائعة، لولو، تأتي بتنُّوراتٍ قصيرة وجوارب حرير تحبس الأنفاس. تمرُّ إلى المستشفى كلَّ يوم سبت لزيارته، وغالبًا ما دخلت لتُحيِّينا وتسألنا ما إذا كان خطيبُها الفظُّ قد أزعجنا في شيء. وكلَّما وجَّهت لولو إليَّ الكلام، أصبحتُ مثل فليفلةٍ حمراء. وكانت مارينا تمازحني: إن أفرطتُ في النظر إلى لولو غدا وجهي كأحزمة السروال. تزوَّجَ الطبيبُ روخاس ولولو في أبريل. وعندما عاد الطبيبُ من شهر العسل القصير، في مايوركا، بعد أسبوع، كان نحيلًا كالمسمار. فنظرت إليه الممرِّضاتُ وانفجرن بالضحك.

كان هذا عالَمي لعدَّة أشهر. باتت الدروسُ والمدرسةُ فاصلًا تافهًا. أبدى روخاس تفاؤلَهُ بصحَّة مارينا. فهي قويَّةٌ وشابَّة، قال، والعلاجُ يأتي بنتائج جيِّدة. لم نعرف أنا وخيرمان كيف نشكره. أهديناه سيجارًا وربطات عنق وكتبًا، وحتّى قلم مون بلان. فاعترض وقال إنَّه يؤدّي عمله، لكنَّنا نعلم جميعًا أنَّه يقضي في القسم ساعاتٍ أكثر من أيّ طبيبٍ آخر.

وفي نهاية أبريل، استعادت مارينا بعضًا من وزنها وألقها. فأجرينا نزهاتٍ موجزةً في الممرَّات، وحينما هاجر البردُ خرجنا إلى باحة المستشفى قليلًا. وما زالت مارينا تكتب على الكتاب الذي أهديتُه لها، مع أنَّها لم تُقرِئني أيَّ سطر.

- أين وصلتِ؟ - كنتُ أسألها.

- سؤالٌ غبيّ.

- الأغبياء يطرحون أسئلةً غبيَّة. الأذكياء يجدون إجاباتٍ عليها. أين وصلتِ؟

لا مجال لمعرفة هذا. تصوَّرتُ أنَّ تثبيتَ التجربة، التي خضناها معًا، على الورق يحمل معنىً مُميَّزًا لديها. خلال إحدى النزهات في الباحة، قالت لي ما اقشعرَّ له بدني.

- عدني بأنَّك ستُنهي أنت الحكاية، إذا حدث لي شيء.

- ستنهينها أنتِ. - أجبتُ - وعليكِ أن تهديها إليَّ أيضًا.

وفي الأثناء، كانت الكاتدرائيَّةُ الصغيرةُ تكتسب شكلًا، ومع أنَّ السيّدة كارمن قالت إنَّها تبدو كمحرقة النفايات بسان أدريان دل بيسوس، كان برجُ القبَّة يعلو شاهقًا فوق البناء. وبدأنا نُخطِّطُ أنا وخيرمان لتنظيم رحلةٍ مع مارينا إلى مكانها المُفضَّل، الخليج السرّيّ بين توسا وسانت فيليو ذي غيشولس، ما إن تحصل على إذنٍ بالخروج. حدَّدَ الطبيب روخاس، الحَذِرُ دومًا، تاريخَ خروجها في منتصف مايو حدًّا أقصى.

في تلك الأسابيع تعلَّمتُ أنَّه من الممكن أن يحيا الإنسان بالأمل، وأشياء قليلة أخرى.

*

أشار الطبيبُ أنَّه ينبغي لمارينا أن تزيد في المشي والتمارين داخل المستشفى.

- ستتحسَّنُ كثيرًا إذا تجمَّلت. - قال.

منذ أن تزوَّجَ، أصبح روخاس خبيرًا بالمسائل النسائيَّة، أو

هذا ما ظنَّهُ على الأقلّ. أرسلني في يوم سبتٍ مع زوجته لولو لشراء ثوبٍ حريريٍّ لمارينا. وكانت هذه هديَّة، دفع ثمنها من جيبه. فرافقتُ لولو إلى متجر ألبسةٍ داخليَّة في رامبلا دي كاتالونيا، بجوار سينما ألكسندرا. وكانت البائعاتُ يعرفنها جيِّدًا. لحقتُ بلولو هنا وهناك في المتجر، أنظر إليها وهي تعاين ما لا يعدُّ من الأثواب الحريريَّة التي تُثير المُخيِّلةَ إلى أقصى الحدود. وكان هذا أشدَّ تحفيزًا من الشطرنج بما لا يُقاس.

– هل سينال هذا إعجابَ صاحبتك؟ – تسألني لولو وتلعق شفتيها المشتعلتين بالحمرة.

لم أقل لها إنَّ مارينا ليست بصاحبتي. بل كنتُ فخورًا بأنَّ أحدًا مّا يرى ذلك. كما أنَّ اقتناءَ الملابس الداخليَّة النسائيَّة مع لولو تجربةٌ مُسكِرَةٌ لدرجةٍ اقتصرتُ فيها على هزّ رأسي موافقًا على أيّ شيء كالبليد. وحين رويتُ ما حدث لخيرمان ضحك من قلبه واعترف لي أنَّه هو كذلك يعتبر زوجةَ الطبيب مُضرَّةً بالصحّة على نحوٍ خطير. وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي أراه فيها يضحك منذ شهورٍ طويلة.

وفي صباح يوم سبت، قبل أن نستقلَّ سيَّارةَ الأجرة إلى المستشفى، طلب منّي خيرمان أن أصعدَ إلى غرفة مارينا بحثًا عن زجاجة عطرها المُفضَّل. وبينما كنتُ أُفتِّشُ في الدُّروج، وجدتُ في عمق أحدها أوراقًا مطويَّة. ففتحتُها وعرفتُ خطَّ مارينا. كانت الأوراقُ تتحدَّثُ عنّي. النصُّ مليءٌ بالتصويبات والفقرات المشطوبة، فلم تنجُ منها سوى هذه السطور:

صديقي أوسكار أميرٌ بلا إمارة، ومثل كلّ أولئك الأمراء يسعون جاهدين على أمل أن يحظوا بقبلةٍ تُحوِّلُهم إلى ضفادع. يفهم كلَّ شيءٍ بالمقلوب، ولهذا يعجبني كثيرًا. فالأشخاص الذين يدَّعون فهمَ كلَّ شيء، يتصرَّفون بطريقةٍ خاطئة، وهذا مؤكَّدٌ طالما أنَّ مَن يكتبه لا يفهم شيئًا. يرمقني ظنًّا منه أنَّني لا أراه. ويعتقد أنَّني سأتلاشى إذا لمسني، وإن لم يلمسني فقد يتلاشى هو. وضعني على منصَّةٍ عالية بحيث لم يعد يعرف كيف يصعد إليها. يظنُّ أنَّ شفتيَّ أبوابُ الفردوس، لكنَّه لا يعلم أنَّهما مسمومتان. وأنا جبانةٌ لا أطلعه على ذلك، مخافة أن أخسره. أتظاهر بأنّي لا أراه، ونعم، أتظاهر بأنّي لا أتلاشى...

صديقي أوسكار أحدُ أولئك الأمراء الذين يُحسِنون صنعًا إذا ابتعدوا عن الحكايات الخرافيَّة والأميرات التي تسكنها. لا يعلم أنَّه يجب على الأمير الأزرق أن يُقبِّلَ الحسناءَ النائمةَ ليُوقِظَها من نومها الأبديّ، لكنَّ هذا يحدث لأنَّ أوسكار يجهل أنَّ كلَّ الحكايات الخرافيَّة محض أكاذيب، في حين أنْ ليست كلُّ الأكاذيب حكاياتٍ خرافيَّة. فلا الأمراء زرق، ولا النائمات يستيقظن أبدًا من نومهنَّ، وإن كُنَّ حسناوات. إنَّه أفضل صديقٍ حصلتُ عليه، وإذا صادفتُ الساحرَ مرلين يومًا مّا فسأشكره لأنَّه وضعه على دربي.

أعدتُ الأوراقَ إلى مكانها وبلغتُ خيرمان. ارتدى ربطة عنق مُميَّزة وكان نشطًا أكثر من المعتاد. ابتسم لي فقابلتُهُ بابتسامة. كانت الشمسُ ساطعةً في ذلك اليوم، خلال الرحلة بسيَّارة

الأجرة. أبرزت برشلونة أجملَ وجوهها، فسحرت السيَّاحَ الذين توقَّفوا للتمعُّن فيها، وكذلك فعلت الغيوم. ولكن لا شيء من هذا كلِّهِ استطاع تخليصي من القلق الذي غرستْهُ تلك الأسطرُ القليلةُ في رأسي. كنّا في اليوم الأوَّل من مايو ١٩٨٠.

٢٨

في ذلك الصباح، وجدنا سريرَ مارينا خاليًا، بلا أغطية. لا أثر لمُجسَّم الكاتدرائيَّة ولا أثر لأغراضها. وحين التفتُّ إلى خيرمان كان يركض بحثًا عن الطبيب. فلحقتُ به. ووجدناه في مكتبه، مُتعَبًا كمن لم يغمض له جفنٌ طوال الليل.

- تدهور وضعُها. - قال بإيجاز.

أوضح لنا أنَّها، بعد أقلّ من ساعتين على انصرافنا، تعرَّضت لقصورٍ تنفُّسيّ، وتوقَّفَ قلبُها لأربع وثلاثين ثانية. فأنعشوها، وها هي آنذاك في العناية المُشدَّدة، بحالة غيبوبة. استقرَّ وضعُها ورأى روخاس أنَّها ستعود إلى القسم في أقلّ من أربع وعشرين ساعة، مع أنَّه لم يشأ أن يبثَّ فينا آمالًا واهية. لاحظتُ أنَّ أغراضَ مارينا، كتابَها، كاتدرائيَّتَها، والثوبَ الذي لم تلبسه بعد، موضوعةٌ على أحد الرفوف.

- هل يمكنني رؤية ابنتي؟ - سأله خيرمان.

رافقنا روخاس شخصيًّا إلى قسم العناية المُشدَّدة. كانت مارينا ترزح تحت عقدة أنابيب وأجهزةٍ فولاذيَّة أشدُّ رهبةً وواقعيَّةً من أيّ اختراعٍ لميخائيل كولڤينيك. وكانت هامدةً على السرير،

كقطعة لحم مُعلَّبَةٍ في عبوات الصفيح السحريَّة تلك. فرأيتُ عندئذٍ الوجهَ الحقيقيَّ للشيطان الذي عذَّبَ كولڤينيك وفهمتُ جنونَهُ.

أذكر أنَّ خيرمان انفجر باكيًا، وأنَّ قوَّةً عاتيةً جرفتني بعيدًا عن هناك. ركضتُ وركضتُ ولم أتوقَّف إلّا في شارعٍ صاخبٍ ومزدحمٍ بوجوهٍ لا أعرفها، ولا تكترث لألمي. كنتُ محاطًا بأناسٍ لا يهمُّهم مصيرُ مارينا في شيء. عالَمٌ كانت فيه حياتُها مُجرَّدَ قطرة ماءٍ بين الأمواج. فخطر في بالي المكانُ الوحيدُ الذي يمكنني الذهاب إليه.

*

ما زالت البنايةُ القديمة في لاس رامبلاس غارقةً في هاوية ظلامها. فتح الطبيبُ شيلي البابَ ولم يعرفني. شقَّتُهُ في حالة فوضى، تنبعث منها روائحُ الأغراض القديمة. نظر إليَّ بعينين جاحظتين، هائمتين كلّيًا. صحبتُهُ إلى مكتبه وأجلستُهُ بجانب النافذة. كان غيابُ ماريّا صارخًا. وحارقًا. تبدَّدت غطرسةُ الطبيب وحدَّةُ مزاجه. كنتُ بصدد عجوزٍ مسكين، وحيدٍ ويائس.

- لقد أخذها. - قال لي - لقد أخذها بعيدًا...

انتظرتُ ريثما يهدأ. رفع أنظاره أخيرًا وعرفني. سألني ماذا أريد فأخبرتُهُ. رمقني طويلًا.

- ليس هناك أيُّ قارورةٍ لمصل ميخائيل. تحطَّمت جميعُها. لا يمكنني أن أعطيك ما ليس لديَّ. وحتّى لو كان لديَّ وأعطيتك، سيكون هذا معروفًا سيِّئًا. وسترتكب خطأ فادحًا

باستعمال المصل لإنقاذ صديقتك. الخطأ ذاته الذي ارتكبه ميخائيل...

لم أستوعب ما قاله فورًا. لدينا آذانٌ لنسمعَ بها ما يطيب لنا سماعُه، ولم أكن مستعدًّا لسماع تلك الخُطَب. واجه شيلي نظرتي دون أن يرفَّ له رمش. شعرتُ أنَّه أدرك يأسي، وأنَّ الذكريات التي استدعاها تُرعِبُه. فوجئتُ بي أُفكِّرُ: لو رجع الأمرُ إليَّ، لاتَّخذتُ طريقَ كولڤينيك نفسَهُ بلا تردُّد. ما كنتُ لأنتقدَهُ أبدًا.

- إنَّ أرضَ البشر هي الحياة. - قال الطبيب - الموتُ ليس لنا.

أحسستُ بإرهاقٍ شديد. وددتُ أن أستسلم، ولكن لمَن؟ استدرتُ لأنصرف. فناداني شيلي قبل أن أخرج.

- كنتَ هناك، أليس كذلك؟ - سألني.

أومأتُ.

- ماريّا ماتت بسلام، أيُّها الطبيب.

رأيتُ عينيه تلمعان دمعًا. مدَّ يده فصافحتُهُ.

- شكرًا.

وكانت تلك آخر مرَّةٍ ألتقيه.

*

استعادت مارينا وعيها في نهاية ذلك الأسبوع، وأُخرِجَت من العناية المُشدَّدة. أنزلوها في غرفةٍ من الطابق الثاني تشرف على حيّ هورتا. غرفةٌ منفردة. لم يعد لديها طاقةٌ للكتابة، وباتت

بالكاد ترفع رأسها لتشاهدَ كاتدرائيَّتها، المُنجَزَة تقريبًا، على رفّ النافذة. طلب روخاس الإذنَ لإجراء سلسلةٍ أخيرةٍ من الفحوصات. فوافق خيرمان. لم يفقد الأمل. وحين أبلغنا روخاس بالنتيجة في مكتبه، تشرَّخَ صوتُهُ. فبعد أشهرٍ من الصراع، استسلم للحقيقة الجليَّة، وكان خيرمان يُشجِّعُهُ ويُربِّتُ على كتفه.

- لم يعد بوسعي فعلُ شيء... لم يعد بوسعي فعلُ شيء... المعذرة. - انتحب داميان روخاس.

أعدنا مارينا إلى بيتها بعد يومين. لم يعد بوسع الأطبَّاء فعلُ شيءٍ من أجلها. ودَّعنا السيِّدةَ كارمن، والطبيبَ روخاس وزوجتَهُ لولو التي لم تكفّ عن البكاء. سألتني باليريا الصغيرةُ إلى أين نأخذ خطيبتي، الكاتبة الشهيرة، وهل صحيحٌ أنَّها لن تروي لها الحكايات بعد.

- إلى البيت. سنأخذها إلى البيت.

*

تغيَّبتُ عن المدرسة يوم الاثنين. انصرفتُ دون أن أخبرَ أحدًا عن وجهتي. ولم أنشغل بما كنتُ سأخسره. لا يهمّ، إذ كان عليَّ أن أبقى إلى جانب مارينا. أنزلناها في غرفتها. وكانت كاتدرائيَّتُها، المُنجَزَة، ترافقها من على النافذة. كان ذلك أجمل مبنى شيَّدتُهُ في حياتي. تناوبتُ وخيرمان على رعايتها أربعًا وعشرين ساعة. وقال لنا روخاس إنَّها لن تتألَّم، بل ستنطفئ ببطءٍ كشعلةٍ في وجه الريح.

ولم تبدُ لي مارينا جميلةً مثلما بدت عليه حينذاك في دارها الكبيرة بساريّا. نما شعرُها من جديد، وصار أشدَّ لمعانًا، تتخلَّلُهُ خصلاتٌ بيضاء. وحتّى بريقُ عينيها غدا أكثر سطوعًا. وكنتُ لا أفارق غرفتها أبدًا. أردتُ أن أتذوَّقَ كلَّ دقيقةٍ وكلَّ ثانيةٍ تبقَّت لي بجوارها. وغالبًا ما كنّا نظلُّ متعانقين من غير كلام، بلا حراك، طوال ساعات. وفي مساء يوم خميس، قبَّلتني مارينا على شفتيَّ، وهمست بأذني أنَّها تحبُّني، وأنَّها ستبقى تحبُّني إلى الأبد مهما حدث.

توفِّيت في فجر اليوم اللاحق، بصمت، مثلما توقَّعَ الطبيبُ روخاس. في الفجر، مع أولى خيوط ضوء النهار، شدَّت مارينا يدي بقوَّة، وابتسمت لأبيها، وانطفأت شعلةُ عينيها إلى الأبد.

*

مضينا بالرحلة الأخيرة مع مارينا على متن التاكر القديمة. ساق خيرمان بصمتٍ تحت المطر، مثلما فعل قبل شهور. وكان النهارُ مشرقًا حتّى تمنَّيتُ أن يرتدي البحرُ، التي تحبُّهُ كثيرًا، أزهى ثيابه لاستقبالها. أوقفنا السيَّارةَ بين الأشجار، ونزلنا إلى الشطّ لننثرَ رمادَها.

وفي طريق العودة، أقرَّ خيرمان بعدم قدرته على متابعة القيادة حتّى برشلونة. فتركنا التاكر بين أشجار الصنوبر، واتَّفقنا مع بعض الصيَّادين في مرورهم أن يُوصِلونا إلى محطَّة القطار. وعندما وصلنا إلى محطَّة فرنسا، ببرشلونة، كان اختفائي قد بلغ سبعة أيَّام. بدت لي سبع سنوات.

ودَّعتُ خيرمان بعناقٍ على رصيف المحطَّة. وما زلت حتّى اليوم أجهل وجهتَهُ ومآلَه. فكلانا كان يعلم أنَّ أحدَنا لن ينظرَ في عيني الآخر دون أن يرى فيها انعكاسًا لنظرات مارينا. رأيتُهُ يبتعد، أثرًا متلاشيًا على لوحة الزمن. وبعد قليل، اقترب منّي ضابطٌ بزيٍّ مدنيّ، وسألني إن كان اسمي أوسكار دراي.

خاتمة

لم يعد لبرشلونة التي عشتُ فيها شبابي وجود. اختفت شوارعُها وأضواؤها إلى الأبد، لا تعيش إلّا في الذكريات. عدتُ إلى المدينة بعد خمسة عشر عامًا، وزرتُ الأماكنَ التي ظننتُ أنَّها نُفِيَت من ذاكرتي. عرفتُ أنَّ الدارَ في حيّ ساريّا هُدِمَت. وتحوَّلت الأزقَّةُ المحيطةُ بها إلى طريقٍ سريعٍ يركض عليه التقدُّم، كما يقولون. أفترض أنَّ المقبرةَ القديمةَ ما زالت هناك، هائمةً في الضباب. جلستُ في الساحة على مقعدٍ غالبًا ما تشاركتُهُ مع مارينا. ولمحتُ في البعيد هيكلَ مدرستي الداخليَّة القديمة، ولم تتملَّكني الشجاعةُ لأقترب. إذ أبلغني حدسي بأنَّ شبابي سيتبدَّدُ إلى الأبد إن أنا فعلتُها. فالزمنُ لا يجعلنا أكثر حكمة، إنّما أكثر جُبنًا.

لقد هربتُ طوال سنواتٍ ولم أعرف مِمَّاذا. ظننتُ أنَّ ظلالَ الماضي لن تعترضَ طريقي إذا أنا ركضتُ أسرعَ من الأفق. ظننتُ أنَّ الأصواتَ في رأسي ستسكت إلى الأبد إذا أنا وضعتُ بيني وبين تلك الظلال مسافةً كافية. وفي النهاية عدتُ إلى ذلك الشاطئ السّرّيّ قبالة المتوسِّط. ما زالت صومعةُ سانت إيلم

شامخةً في الأعلى، كالرقيب على الدوام. ووجدتُ سيَّارةَ صديقي خيرمان القديمة. غريبٌ أنَّها ما تزال هناك، بين الصنوبر، وقد وصلت إلى غايتها النهائيَّة.

بلغتُ شطَّ البحر وجلستُ على الرمال، حيث نثرتُ رمادَ مارينا قبل سنوات. وكانت السماءُ صافيةً وساطعةً مثل ذلك النهار تمامًا، فأحسستُ بحضورها الطاغي. أدركتُ بغتةً أنَّني لم أعد أستطيع ولا أريد الهربَ ثانيةً. لقد عدتُ إلى دياري.

كنتُ قد وعدتُ مارينا، في أيَّامها الأخيرة، أنَّني سأُكمِلُ هذه الحكاية إن لم يتسنَّ لها هذا. رافقني الكتابُ، ذو الصفحات البيضاء الذي أهديتُهُ لمارينا، رافقني طوال تلك السنوات. ستكون كلماتُها كلماتي. لستُ أدري ما إذا سأوفي بوعدي. أشكُّ في ذاكرتي أحيانًا، وأتساءل إن كنتُ لن أتذكَّرَ إلّا الأشياءَ التي لم تقع.

لقد حملتِ معكِ كلَّ الإجابات يا مارينا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

تُعدُّ روايةُ «مارينا» لحظةً فارقةً في مسيرة كارلوس رويث ثافون الإبداعيَّة. فهي آخِرُ روايةٍ يُخصِّصُها لجيل الناشئة، ويُودِّعُ بها هذا النمطَ الأدبيَّ مصطحبًا معه قارئَهُ اليافع، وأجواءَ المغامرة والتشويق، وطابعَ الرومانسيَّة والنوستالجيا، ومواجهةَ الرعب وأسبابه ببطولةٍ وذكاء، إلى عالَم الرواية المفتوحة التي تُناسِبُ كافَّة الفئات العمريَّة.

وهي أوَّلُ روايةٍ يُكرِّسُها لوقائعَ تدور أحداثُها في مدينة برشلونة. فبعد بريطانيا وفرنسا والهند، يتَّخِذُ ثافون من مسقط رأسه مسرحًا جديدًا لحبكته السرديَّة التقليديَّة، لتغدو برشلونة بطلًا أساسيًّا تُبرِزُ معالمَها الحضريَّةَ وتُثري المُخيِّلةَ الروائيَّةَ بتاريخها وثقافتها وفرادة أهلها وأغرابها.

روايةُ «مارينا» إذًا هي محطَّةٌ ضروريَّةٌ لفهم تطوُّر الصنعة الحكائيَّة لدى هذا الأديب، حيث يتَّضحُ نضجُهُ في رسم الشخصيَّات، وتعدُّديَّة صوت الراوي، وتوظيف الرموز، واختيار المكان والزمان، وعرض التفاصيل ببراعةٍ ستُبهِرُ القرَّاءَ حول العالم لاحقًا، وتدعوهم للولوج إلى «مقبرة الكتب المنسيَّة».

الغلاف : سكينة صلوّن
ISBN 978-9922221656
9 789922 221656

مكتبة
t.me/soramnqraa